الشعوب تقاوم

ترجمة

د. ضرغام الدباغ

الشعوب تقاوم

ترجمة لأربعة مصادر عن المقاومة

د. ضرغام الدباغ

الطبعة الأولى

برلين / 2020

صورة الغلاف :

المقاومة في ميناء سيباستوبل للرسام السوفيتي الكسندر دينيكا (Alexander Deyneka)

صادر عن

المركز العربي الألماني برلين

النسخة مجانية

المطبوع رقم : **10**

فهرس

المقاومة الفرنسية

المقاومة السوفيتية

المقاومة التشيكية

المقاومة اليونانية

المقاومة الشعب الألماني ضد النظام النازي

ارتهان القرار السياسي بيد المؤسسة الدينية

أهداء

قادة المقاومة العربية ضد الغزو والعدوان

إلى الأبطال الذين لم يبيعوا أوطانهم

حملوا السلاح، أو القلم، أو راية الرفض

كلّ حسب طاقته ... قاوموا المحتل

وارتضوا التضحية بكل شيء

وكسبوا الشرف والتاريخ

إلى كل مقاوم شريف

المقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني
1940 – 1944

هنري آمور

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

برلين
2017

كتب التقرير : هنري آمور (Henri Amouroux)

دير شبيغل (Der Spiegel) : الأعداد : 20 / 21 / 22 / لسنة 1990

هامبورغ ـ ألمانيا : (Hamburg -- Deutscjland)

عنوان الكتاب بالألمانية : الفرنسيون تحت الاحتلال الألماني: متعاونون ـ أبطال ـ خونة

Die Franzosen unter Deutsche Besatzung
Kollabos , Helden und Veräter

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

برلين : 2017

الفهرس

المقدمة

الفصل الأول : الحرب ـ الاحتلال الغير منتظر

الفصل الثاني : الفرنسيون تحت الاحتلال

الفصل الثالث : الشعب ينخرط في المقاومة

الفصل الرابع : التحرير ... فرنسا حرة

ارتهان القرار السياسي بيد المؤسسة الدينية

مقدمة

كنت قد قرأت هذا الكتاب الذي نشر على حلقات ثلاثة في مجلة دير شبيغل (Der Spiegel) الألمانية المشهورة ولكني لم أعثر إلا على الفصل الثاني، وترجمته في حينه (وقت صدوره)، إلا أن الكومبيوتر سهّل لي العثور على الحلقتين الأولى والثالثة، فاكتمل الكتاب عندي.

لا أنكر أني فرحت جداً بقراءة تفاصيل الحياة الفرنسية تحت الاحتلال، التي اختار لها كاتبها عنواناً صادقاً، بقوله : متعاونون، أبطال وخونة. وقرأت مقاطع رهيبة في التضحية من أجل الوطن، ليس بهدف أن نتعلم فحسب، بل شعبنا في كل مكان : المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا- مصر، السودان، اليمن، فلسطين، سورية، العراق وأقطارنا الأخرى، قدّمنا تضحيات غالية تستحق أن يتعلم منها شعوب العالم الطامحة للتحرر والانعتاق.

وإذا كانت البطولة والاستشهاد من أجل الوطن يحملنا على الوقوف احتراماً لذكرى الأبطال الذين بتضحياتهم جعلوا الغد ممكناً ..... أبطال قدموا حياتهم بسرور بوعي للأجيال المقبلة، مكتفين من المجد بحب الوطن .. وأن تذكر أسماؤهم على أعمدة... نعم أعمدة هي ركائز وجود الوطن الذي شيدته دماء وتضحيات هؤلاء الأبطال.

سنقرأ هنا كيف أن الاحتلال لوحده يمثل إهانة، ومواقف البشر حيال هذه الإهانة يختلف من فرد لآخر بحسب تكوينه العقلي والثقافي والسياسي، وبحسب قدراته في الصلابة والصمود. فمن المعروف أن الأشخاص التافهين سيجدون(الذرائع) لكي لا يظهروا أي مقاومة لمحتل الوطن، ثم ذرائع أخرى ليظهروا (التفهم والتقبل) وأخيراً السقوط الأخلاقي الذي لوحده فصل في الانهيار النفسي يتجسد في التعاون مع العدو المحتل.

التعاون مع العدو المحتل: هو ما تطلق عليه القوانين (الخيانة العظمى). وفي اللغة العربية رغم ثرائها في المفردات، إلا أنها لا تضع كلمة أو مفردة أو مصطلح خاص للمتعامل مع العدو المحتل، فنحن نقول خائن على كل من يخون الأمانة من أبو رغال وحتى من يخون ثقة صديقه، وحتى لمن يخون زوجته مثلاً، وفي اللغة الألمانية، وأظن في لغات أوربية أخرى كالإنكليزية والفرنسية، هناك مصطلح إنساني / سياسي / قانوني للمتعاون مع العدو المحتل (Collaboration) والقوانين قاطبة تعتبر هذه ذروة الخيانة، ولكن بعض المتساقطين يفعلونها بسرور وهذا ما يدل دون ريب على سقوطهم الداخلي قبل سقوطهم الخارجي.

المتعاون: لذلك قلما نجد بين المتعاونين مع العدو عبر التاريخ وفي كافة دول العالم، شخصاً يستحق الاحترام، فهناك دائماً ثغرة في تكوينه الشخصي، نعم إن المتعاونين مع العدو هم شخصيات محطمة نفسياً وعائلياً، أو فاشلة سياسياً واجتماعياً، والعامل المشترك الأعظم بينها، هو المعاناة من هزيمة داخلية، تتمثل بفشله في تحقيق شيء أراد إنجازه وفشل في تحقيقه، وأبرز دليل على صواب هذا التحليل، هو أن قوى الاستخبارات حين تقرر تجنيد شخص ما تخضعه للدراسة والفحص والتمحيص وفي ملفه سؤال جوهري " لماذا قرر هذا الشخص أن يخون وطنه " وبعبارة شبه مهذبة، لماذا تريد التعاون معنا ؟ فيمطروه بالأسئلة الكثيرة المعقدة والمكررة والماكرة لعلهم يكتشفون أين هي الثغرة، ثم يخضعونه لجهاز كاشف الكذب، وأخيراً يضعونه تحت التجربة والاختبار، فأن يخون الإنسان وطنه شيء شاذ غير معقول، ونشبهها بجريمة الزنا بالمحارم. قد تكون لدى أي شخص ملاحظات حول الوضع في البلاد، ولكن إدخال الأجنبي للبيت ليعبث كما يشاء، يسقط أي اعتبارات لها علاقة أولاً بالشرف، وحتى في الاعتبارات العقلانية لمن يبحث عن المصلحة فيما يعمل ويهدف. العدو المحتل ما جاء بجيشه وقواه السياسية وتجشم

المتاعب والخسائر، إلا من أجل مصلحته، فهو حريص على تأمينها، وليس للمتعاون سوى المبلغ الذي يدفعون له، شريطة تواصل (التعاون) وأن يكون طوع الإشارة، وإلا فالمتعاون شخص رخيص جداً وتصفيته لا تغضب أحداً.

الاحتلال (Occupation): هو عمل كبير تقوم به الدولة المعتدية، وتأتي لبلد ما وتقهر إرادته، وتلغي استقلاله وتعبث بمقدراته وموجودات البلاد، وتقمع أي قوة تعارض ما تقوم به وتوازن القوى يؤشر لصالح المحتل بالطبع، وليس هناك محتل شريف ومحتل غير شريف، الاحتلال من أولى أهدافه البديهية، تدمير إرادة المقابل، وتدمير قواه السياسية والاقتصادية والعسكرية بالطبع في مقدمة الأهداف. والمحتل بداهة لا يحترم استقلال البلاد، وبداهة مرة أخرى لا يعمل على تعزيزها، ومن الطبيعي أن يفكر باستعادة ما فقده خلال عملية الاحتلال التي رآها العدو، أنها تتويج لعملية سياسية بالأصل، بلغت حداً معلوماً من تناقض الإيرادات، بلغت مرحلة الصراع المسلح، واستخدام القوات المسلحة.

معسكر المقاومة (Resistanc): إلا أن الشعب المحتل لديه قوة مادية لا تنضب تتمثل برفض الاحتلال ومقاومته. ومفردة المقاومة بدورها عريضة جداً، تبدأ من مقاومته بالسلاح، وتبلغ درجة عدم إلقاء التحية، أو التعاطي بأي شيء معه. ومن مظاهر المقاومة في بلادنا العراق، تتمثل أن كل أو معظم جنود جيوش الاحتلال في العالم يرتادون المقاهي والمطاعم والأماكن العامة، ومنها فرنسا موضوع كتابنا هذا حيث كان الألمان يرتادون أي مكان يريدون في فرنسا، ولكن المحتلين في العراق لا يأمنون في الخروج من معسكراتهم ومناطقهم الآمنة ..!

والمقاومة ذروتها مواجهة العدو بالسلاح، أو مقاطعته سياسياً، واجتماعياً، وثقافياً، وعدم الحديث معه، بل وعدم إلقاء التحية، وأن تحاول بأي وسيلة متاحة أن تعبر فيها أن العدو غير مرحب به في بلادنا..
" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ".
والفرنسيون لم يكونوا كلهم متعاونون، ولا كلهم مقاومون، ولا أرى فائدة لنحصي أي معسكر كان أوسع وأقوى، من يكسب المعارك ليس بالضرورة أن تكون القوة المادية المسلحة لجانبه، بل وأن تكون خطواته على أسس عادلة، ويقبلها الشعب بصفة عامة.

لا أريد في مقدمتي أن أستبق الكتاب، ولكني أريد تسهيل مهمة القارئ. ألمانيا احتلّت فرنسا، وهم كانوا يبحثون داخل المجتمع الفرنسي عن متعاونين، وهو دأب المحتلين وتحدث في كل البلدان التي تتعرض إلى غزو واحتلال. سينبري أشخاص يدعون أتباع الحكمة ومسايرة القوة التي احتلت البلاد، ومنهم من يعتقد ضرورة تجنيب البلاد الدمار، ولكن هناك دائماً من يريد اغتنام الاحتلال كفرصة ليصفي حسابات داخلية، وهناك انتهازيون دائماً، والباحثين عن الأمن والمكاسب، ووظيفة الدفاع عن الوطن مهمة لغيرهم، ومقاومون للاحتلال من مشارب شتى، وطنيون، وقوميون، واشتراكيون، وأيضاً يحتمل هذا المعسكر شقاوات وزعران، وأشقياء، بل ومجرمين هاربين حتى..! لا نستطيع مناقشة من يريد أن يقاوم احتلال بلاده.. لماذا تقاوم ... الطبيعي هو أن يقاوم، والشاذ هو من يرتمي تحت أقدام المحتلين، لا مبرر ولا عذر لهم .. ولذلك صمت الماريشال بيتان (المتعاون) ولم ينطق بحرف واحد طيلة محاكمته بعد التحرير.

لقد قاوم الفرنسيون بالسلاح، وقاتلوا قتالاً مجيداً، وقدموا التضحيات السخية من أجل بلادهم، ولكن بينهم من قاوم بالكلمة:
ـ الشاعر الكبير بول أيلوار الذي كتب يمجد سقوط صديقه غابريل بيري :
إلى غابريل بيري، أحد أبطال المقاومة الفرنسية
وقت الفجر
أوثقوه إلى خشبة الإعدام
وقد أرعبه ثقل جسده
عالماً بأن الملايين ... الملايين من الرفاق

لابد آخذون بثأره
لقد هوى.....
ثم أشرق النهار

ـ الشاعر الفيلسوف بول فاليري الذي كتب:
أوّاه كم رأيت وجوهاً فرّ الشرف من جباهها.....
وكتب أيضاً:
ليس هناك نهار أكثر ألقاً من اليوم الذي يقتل فيه الخونة.....

ـ وكتاب القصة والرواية مثل فرانسوا مورياك، وفيركور بعمله الكبير "صمت البحر"، والشاعر الكبير رينيه شار، الذي كان يكتب باسم مستعار، والشاعر روبير دينوس، والشاعر الكبير لوي أراغون ...وآخرون كثيرون..... معسكر الشرفاء أيضاً كبير ..!

المقاومة كانت تجد طرقاً كثيرة لتوزع أعمال الكتاب الأحرار، وقد أسسوا اتحاداً للأدباء والكتاب الأحرار، كانوا يضعونها سراً في صناديق البريد، أو يوزعونها في الليل تحت جنح الظلام، وأحياناً كانت تقذفها الطائرات البريطانية من الجو، كما لعبت إذاعة حكومة فرنسا الحرة برئاسة الجنرال شارل ديغول دوراً مهماً في نشر الأدب المقاوم.

رسامون كاريكاتور، وتشكيليون، ومغنون، جنود معروفين ومجهولين في جيش المقاومة الذي هو في النهاية جيش الشعب كله ... اطرح منهم الخونة والمتعاونين، والأنذال، يكون الشعب كله معك، حتى الخائف الساكت في بيته هو لك، الشعب خسر فقط أولئك الذين لم يكفهم جبنهم أو نذالتهم، فصاروا عوناً للمحتل .... وشطبهم من رصيده، هل تريد أن تسمع منهم الذرائع بلغة خسيسة ملتوية (سأكتبها بحروف مائلة، كجذوعهم المائلة بل الخائرة ..):

أنا .. قلت لن أستطيع أن ... في الواقع، هم جاؤوا علي .. أنا كنت ... لا أدري فقد كان كل شيء ... الحقيقة ... صعب الوضع صعب ... أنا أردت أن ... ثرثرة لا معنى لها، ومختصرها : أنا أنزلق في بئر الخيانة ... قالوا لي ... غيري انحرف فانحرفت معه ...إلخ

يا للأسف يا وطني ... يا للأسف ... أبناؤك الذين أطعمتهم وسقيتهم من مائك الطهور ... وشموا ترابك الحر المقدس المعطور ... خانوك .. يا حيف ... ولكن هناك أيضاً أبناؤك الذين يرددون بوجه الخائن قصيدة السياب :

الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام
حتى الظلام - هناك أجمل ، فهو يحتضن العراق

إني لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون
أيخون إنسان بلاده؟
إن خان معنى أن يكون، فكيف يمكن أن يكون ؟

بعد أكثر من نصف قرن على رحيل السياب يهتف باسمك يا وطني شاعر عراقي شيخ يقاوم احتضاره باسمك، فارس الكلمة والقافية ... العراقي الكبير ... عبد الرزاق عبد الواحد أمير الشعر، رحل تاركاً ساحة الشعر حتى إشعار آخر إمارة بلا أمير، مكانة ليس من السهل أن يبلغها اليوم شاعر، مهمة شاقة حقاً بلوغ مكانة كالذروة التي تربع عليها عبدالرزاق عبدالواحد. فقد حجز بوقفته الشجاعة مكانته في الصف الأول من شعراء الأمة في القرن العشرين .. ما قيمة ما تكتب إذا لا ينفع الوطن والشعب ..؟

ويتميز المقاوم البطل عبدالرزاق عبدالواحد، الشاعر مقاتل الكلمة، بوصفه مقاوم، مناضل يمتشق سيفه ...! نعم هو شاعر يحلق في سماوات هي غير فضاءات البشر، يرسم رؤى، ولكنه على الأرض مقاتلاً. هكذا كانت رؤية عبد الرزاق عبد الواحد لوظيفته الشعرية والثقافية والإنسانية والوطنية، عبد الرزاق عبد الواحد، ابتدأ حياته مناضلاً وختمها مناضلاً، منذ مقاعد الدراسة شاباً فتياً، والعراق همه وهاجسه، لا يرى الغد والمستقبل إلا من خلاله، إلى يوم غادرنا فيه، كان يحتل موقعه القيادي في قيادة الثورة العراقية يحتضن راية العراق ويهتف بملئ فؤاده وروحه هنيئاً لمن لا يخون وطنه ...

يا عراق، هنيئاً لمن لا يخونك
هنيئاً لمن إذ تكون طعيماً يكونك
هنيئاً لمن وهو يلفظ آخر أنفاسه
تتلاقى عليه جفونك.

أشهد أنه مضى ليومه بكبرياء القائد العراقي ... يفيض عزماً وقوة ... مخلصاً وفياً حتى النفس الأخير ... عبد الرزاق عبد الواحد قضى ويده على قبضة السيف ... أتحدث عن عبدالرزاق عبد الواحد المناضل القائد ... سلام عليك يا أبا خالد ... وهنيئاً لك حب العراق والعراقيين ...

المقاوم يقدم حياته، وهي ثمينة بلا شك، ولكن هل هناك شيء أثمن من الوطن ... والحياة من يستحق أن تقدم له سوى الشعب، الملايين ليس فقط التي تعيش الآن، بل تلك الملايين التي ستأتي من بعدنا لتجد وطناً محرراً .... يا لها من تضحية شريفة ..!

الشعر العربي المقاوم يزخر بصور الإرادة عندما تتحول إلى قوة مادية يستحيل قهرها، يجسدها الشاعر الفلسطيني العربي الشهيد عبد الرحيم محمود المجاهد .

سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسرّ الصديق وإمّا مماتٌ يغيظ العدى
ونفسُ الشريف لها غايتان ورود المنايا و نيلُ المنى

لعمرك إنّي أرى مصرعي ولكن أغذّ إليه الخطى
أرى مصرعي دون حقّي السليب ودون بلادي هو المبتغى

بقلبي سأرمي وجوه العداة فقلبي حديدٌ وناري لظى
وأحمي حياضي بحدّ الحسام فيعلم قومي بأنّي الفتى

ويتوعد الشاعر العرقي الكبير معروف الرصافي قتلة الشهداء وينشد في حفل جماهيري :

برئت ذمة المروءة منّا إن نُبسي يوم شنقكم أو تُنُوسي

وللشاعر العراقي عدنان الراوي قصيدة شهيرة يحرض الجماهير على النهوض والثورة ومقاومة الأنظمة الديكتاتورية الدموية، ألقاها بمناسبة إعدام كوكبة من ضباط الجيش العراقي الوطنيين والقوميين، نقتطف منها :

قل للجلاوزة الطغاة الراجفين من الغد
العاجنين دم الشباب هناك بالطين الردي
المسكتين عن الحقيقة قول من لم يحمد
الظالمين الشعب في ليل العراق الأسود

يا حفنة من رملك المعطور تجمعها يدي
قسما بابطال العراق وكل حر أمجدي
بالكاشفين صدورهم للنار أي مخلد
وبقية الأحرار بين مطوّق ومشرّد
فك الرهائن يا عراق بزحفك المتجرّد

أقسم بالله العلي العظيم ... ما مرّة شربت ماءً بارداً إلّا وتذكرت العراق وأهلنا ... أقسم بالله العلي العظيم ... ما مرّة ضحكت، إلا خجلت بعدها من نفسي، وأحدث نفسي : ولك عيب استحي وطنك محتل وأنت تضحك .... يا ليتني متّ ألف مرة وصرت هباءً منثوراً قبل أن أراك محتلاً يا عراق ...

لن أزيد .... السيف أصدق أنباء من الكتب .....

نريد العراق ... لا ذرة تراب أكثر .... ولكن أرواحنا دون ذرة تراب مسلوبة ... ليحكمه كائن من كان ولكن بشرط أن عراقياً، أي كان ولكنه مخلص للعراق ويأخذ راتبه من خزينة الدولة وليس من صناديق السفارات ...

أنا أدعو القرّاء إلى الدقّة في القراءة، والتأمّل في أبعاد الأحداث ... هذه أحداث مهمة جرت في بلد متحضر ... اقرؤوا واستخلصوا النتائج والعبر .. لنستفيد من تجاربنا وتجارب غيرنا .. اقرؤوا رجاء .. لقد تعبت كثيراً في إنجاز هذا الكتاب للقارئ العربي، دون أن أكسب لنفسي شيئاً ولا قرشاً واحد ...!

ضرغام الدباغ
برلين : 2017

لوحة الغلاف

لوحة رسمت بالمقصّ (السلويت – Silhouette) موضوعها ..... مقاومة.. الشعب يقاوم, رجال نساء عمال فلاحون ومثقفون ... الشعب يقاوم

الفصل الأول : الحرب ـ الاحتلال الغير منتظر

أطلق الروائي الفرنسي رولاند دورجية زمور سيارته عندما شاهد فجوة في رتل لا نهاية له من السيارات العسكرية الألمانية، وأخرج جسمه من النافذة هاتفاً " هل بوسعنا يا للشيطان المرور ؟ ". الشرطي الفرنسي الذي كان يوجه حركة السير، كان يتصرف وكأنه يريد أن يسيطر بإشاراته على الجيش الألماني المنتصر، فأردف القاص الفرنسي قائلاً " الآن لا مجال للقصص هنا، الألمان أولاً ".

كلن ذلك نهاية حزيران / 1940 في بوردو، والجيش الألماني يواصل غزوه لفرنسا منذ ستة أسابيع، ويقف الآن قبالة المدينة الفرنسية الجنوبية بوردو، في الوقت الذي كانت فيه حكومة باريس قد هربت، وطوال أسبوع كامل، يقف هذا الجيش المنتصر، ينتظر لكي يعطي الوقت للطرف المهزوم أن يتدبر حاله ويتفاوض بشأن البلاد. ورئيس الحكومة باول رينو يتواجد منذ مساء يوم 16/ حزيران في بوردو، وهو في اتصال مستمر مع الماريشال فيليب بيتان، البطل المنتصر في معركة فردان، وبطل الحرب العالمية الأولى، وعلى استعداد للانسحاب لصالحه، وكان قد ناشد مواطنيه عبر الإذاعة بأنه سيسعى للتوصل للهدنة مع الألمان.

كان الألمان لم يدخلوا بوردو بعد، ولكن الحرب الألمانية الصاعقة، والهزيمة التي عاناها الفرنسيون، لم يكونوا قد عايشوا مثلها من قبل، مثّلت صدمة للبلاد التي لم تكن قد أعدت لحرب كهذه، ولا هزيمة كارثية كالتي حدثت. وفرنسا 1939 طبعت في تلك السنة كتاباً لروبرت لافونت باريس بترجمة باول أوتو شمت في 24 / تشرين الأول: أن الدخول في حرب مع الألمان أمر لا يفهمه أحد، دون إلقاء نظرة قصيرة على السنوات التي سبقت الحرب. وفرنسا اعتباراً من حزيران 1944. لا يمكن فهمها دون الانبهار، الذي خلقه الانتصار الألماني لدى الكثير من الفرنسيين.

أي شعب كان هذا .. الفرنسيون عام 1939؟ ... لماذا لم يكونوا قادرين على اتخاذ أي قرار .. والذي بدونه لا يمكن خلق تحدي كبير. الفرنسيون ما يزالون يرابطون على أرضية الذكريات التاريخية الحزينة للحرب العظمى 1914 / 1918. على الرغم من أنهم كانوا يدركون، ولكن دون أن يعترفوا بذلك، أن فرنسا قد فقدت مكانتها الأولى في أوربا، ولكنها رغم ذلك ما تزال (فرنسا) تنصب نفسها حامية للدول الصغيرة (1)

والفرنسيون كانوا قد فوجئوا بأن التنمية الاجتماعية قد أفسدت التقاليد الفلاحية، والكاثوليكية، والعائلية وباختلاط قيمها وقواعدها ببعض أدّت إلى إرباكها. ولم تنجح حكومة الجبهة الشعبية التي تشكلت عام 1936 من قبل الاشتراكيين ومدعومة من الشيوعيين، تمام النجاح، وداعمو اليمين لم يكونوا مرتاحين لها، واليساريون لم يكونوا راضين، لأنها لم تتمكن من إنجاز سوى نصف برنامجها. كان الشعب الفرنسي (14.194,000مليون) يعيشون في بلد لم تشهد شيئاً يشيد فيه منذ عام 1914، ولم يخترع شيء، ولم يشيد شيء. بل كانوا يزينون حياتهم بذكريات الماضي.

(لوحة فرنسية معبّرة ,هتلر وموسوليني ينثران الطائرات والمدافع والمدمرات والقنابل ويتساءلان، : ترى ماذا سيكون الحصاد ....؟)

الرجال أو النساء، فلاحين كانوا أم من سكان المدن، أثرياء أو فقراء، كانوا منقسمين بعمق وكانوا غالباً يكنون الكراهية العمياء بعضهم لبعض، رغم أنهم كانوا يواجهون مخاطر متصاعدة يعترفون بها، ولكنهم كانوا يبخسون أهمية الوحدة الوطنية الضرورية أكثر من أي وقت مضى. اليمين واليسار، الاشتراكيين والبورجوازيين في تمزقات ونزاعات لفظية وحشية وغالباً ما تتطور إلى عنف جسدي. وفي عام 1936 ساهم مليونان ونصف عامل في إضرابات كثيرة، أو كانوا من المتضررين بها، بلغ عددها (16.907)

إضراب. ودخل 32 نائب شيوعي من منطقة باريس فقط إلى الجمعية الوطنية (البرلمان)، وقام العمال الشيوعيين باستعراض قواهم، بتظاهرة إذ تجمهروا وقاموا بقبضاتهم المرفوعة بمسيرة في شارع المواطن.

وللمرة الأولى يتقلد فيها يهودي، مهام رئيس الوزراء في فرنسا (ليون بلوم)، وكان هناك تصاعد كبير في الأجور، لكن يقابلها زيادة في الأسعار وكان التضخم الحاد يلتهمها، وستحتاج البرجوازية لفترة طويلة لكي تتعافى من هذه الأزمة، لم يكن عام 1939، ولا حتى عام 1940 كافياً للشفاء والتعافي منها.

في الرابع عشر من تموز / 1939، كانت فرنسا تحتفل بالعيد الوطني بينما الحرب كانت تقترب، حيث أقيم استعراض عسكري هو الأضخم منذ يوم 14 / تموز / 1919 (بعد الانتصار في الحرب العالمية الأولى). وكانت فرنسا قد شهدت في العام الأسبق الاحتفالات بالذكرى العشرين للنصر الفرنسي على ألمانيا، الآن هي الذكرى 150 على الثورة الفرنسية. وكان استعراضاً عسكرياً رائعاً. ولكنه كان شيئاً يستحق السخرية حقاً.

الموكب كان رائعاً من خلال الحشود البشرية، والعتاد الحربي وما وفرت له الدعاية، ولكن الأمر كان يستحق السخرية، وخاصة لمن يعرف قوة الجيش الألماني، ولكن من كان يعرف ذلك، المهزلة هي بحسب رؤية اليوم، هذا نعرفه الآن، بعد مرور سنة تقريباً على تمزق وهزيمة قواتنا وإبادتها. ومهزلة أخرى تكمن بالمقارنة بالحشود المتفرقة التي كانت تستعرض بعد سنة أمام الجنرال ديغول في لندن، أو الماريشال فيليب بيتان في فيشي. (2)

وكان الصحفيون قد أحصوا أكثر من 16,000 ألف راية في منطقة الإليزيه فقط، وكان هناك أيضاً الكثير منها في ضواحي باريس الحمراء (3) وحضور الاحتفال والحصول على مكان جيد للرؤية تكلف 500 فرنك، وكانت هناك قطارات خاصة، ولكن لا أحد يدفع، جنود الفرقة الأجنبية (4) الذين كانوا يبتون في العراء لكي يقفوا في الصف الأول لرؤية العرض الفخم.

ثم الطائرات، وحتى بريطانيا أرسلت سرباً من الطائرات، حلقت سوية مع سلاح الطيران الفرنسي منح لحشد البسطاء المتفرجين إحساساً مزيفاً بالأمان. ثم كان هناك القوات الاستعمارية، من الهند الصينية والجزائرين والمراكشيين، والسنغاليين، الذي حضروا للدفاع عن الوطن الأم. ثم المسيرة البطيئة المهيبة لقوات الفرقة الأجنبية، وفي الختام المدرعات/ 100 دبابة ثقيلة كان هديرها له وقعه في الجمهور الصامت، وتترك أنطباعاً واحداً : كم هي قوية قواتنا المسلحة.

" أبداً ... لم يكن لدينا في فرنسا جيشاً آلياً كالذي شاهدناه يسير في الاستعراض " كتبت الصحافة في اليوم التالي، الجموع كانت معجبة، وحصل لديها انطباع أنهم شاهدوا قوة لا يمكن مقاومتها، هذا الشعور الخادع سيتواصل لفترة طويلة ... قوة ...لا .. تقاوم ...!

في 1 / آب / 1939، قبل شهر واحد من اندلاع الحرب كان تعداد القوات المسلحة الفرنسية الفاعلة (1 مليون و15 ألف رجل)، وبعد إعلان التعبئة العامة، في 2 / أيلول بلغ تعداد الجيش (6 مليون و 104 ألف رجل) منهم (4 مليون و 654 ألف رجل) في القوات المقاتلة، وحتى هذه المرحلة كانت القوات الألمانية التي تواجههم ضعيفة نسبياً.

وكان هتلر من أجل أن يستطيع أن يخوض هجومه ضد بولونيا بقوات قوية، قد سحب كل قواته من الجبهة الغربية، وفيما كانت الجبهة الشرقية تضم 62 فرقة، كانت هناك 43 فرقة في منطقة الراين، ولكن من

بينها لا يوجد سوى 11 وحدة فعالة، ولا شيء من الطائرات تقريباً، ولا دبابة واحدة، مقابل 2500 دبابة فرنسية.

وفي أوامره ليوم 31 / آب، و3 أيلول / 1939، قرّر هتلر، أن المسؤولية في افتتاحية العداء تقع على عاتق فرنسا وإنكلترا بوضوح تام. وفي الجانب الألماني كانت الأوامر مشددة: ممنوع بقوة أي محاولة اجتياز للحدود بين فرنسا ـ ألمانيا بدون أوامر مباشرة من هتلر، لدرجة أن الأوامر كانت تنص:" في حالة وجود دوريات معادية داخل الأراضي الألمانية، ينبغي أن يطلب منها، أن تغادر الأراضي الألمانية دون استخدام القوة ".

كانت سلبية الألمان هي نتيجة لقرار اتخذ في القيادة، بمنح الأولوية في تركيز كافة القوى في بولونيا، وهكذا كانت السلبية الفرنسية فلسفة أقل ما يمكن من الجهد. لا بل أن القائد العام الفرنسي موريس غاملان، كان يحمل انطباعاً أن الألمان بكل قواهم يريدون الاندفاع في بولونيا، ولكن البولونيون كانوا يحثون القيادة الفرنسية ويحاولون أن يحملوها على اتخاذ إجراءات عسكرية فعالة على جبهتهم، ولكن الفرنسيين كانت لهم العديد من التحفظات.

كان هناك حديث عن " فعاليات تحضيرية " ولابد أولاً من التعرف " كم هي قوية قطعات العدو التي تقف مقابلنا " وبالتالي ينبغي التعامل بحذر شديد في استخدام قواتنا العسكرية. " وقلق دائم، والتصرف باقتصاد ليس فقط مع المشاة، بل أيضاً مع المدرعات والمدفعية".

وهكذا تم إخلاء مئات الألوف من الزاسيين (من عروق ألمانية في مناطق الألزاس) من مناطق الحدود إلى داخل البلاد، بل وبسببهم ظهرت في صحف ناطقة بالألمانية. وفي الجبهة حدثت بعض المناوشات التي بالغت الصحافة الباريسية ووصفتها بالمعارك المنتصرة ..!

هذا المزاج في التعامل مع العدو (الألماني) في الضفة الثانية من نهر الراين، سرعان ما وضعت له تسمية، " الحرب الغريبة " وأيضاً " الحرب المضحكة " وهذه التسميات كانت تمعن في زيادة خفض الروح المعنوية لشعب بأسره.

ولم يتحول الأمر إلى الجدية إلا 10 / أيار / 1940، حيث جاءت الطائرات الألمانية مع قنابلها ورشاشاتها، وصفارات الإنذار أخذت تدوي، وتساقطت فوق القوات الفرنسية التي لم تفقد هدوءها وشجاعتها، بشجاعة أجدادنا الغاليين الذين ما كانوا يخشون شيئاً إلا أن تسقط السماء فوق رؤوسهم، وهذا ما حدث في فجر ذلك اليوم. (5)

أصابت هذه القنابل الجنود الفرنسيين في الصميم، والعديد من أولئك الذين أحنوا ظهورهم، والذين هربوا بعيداً، والذين هتفوا لأمهاتهم، والذين أخذوا يصلون، محاولين السيطرة على خوفهم، كانوا قد عاشوا تجربة الحرب 1913 / 1918، وقد عانوا من قصف المدفعية الرهيبة في فردان، و تصرفوا آنذاك وصمدوا، ولكن الآن انقلب الموقف خلال ثوان من حرب غريبة وحرب مضحكة إلى حديث يدور عن حرب صاعقة، وهذا كان ثقيلاً عليهم.

لم يكن الفرنسيون ليستوعبوا ماالذي يحدث " أتحل نيران الجحيم محل نيران الروح المقدسة، تقتل وتدمر وتبيد، وهذا لا يمكن أن يكون إلا في دماغ هتلر المريض ..! "، كتبت صحيفة باريس ميديا يوم 12 / أيار / 1940 أن ما يزعج معظم الفرنسيين: أن الجيش الألماني (الفيرماخت) أربك خطط عطلة عيد (العنصرة ـ Pfingstt) بشكل تام، ولكن لا أحد بوسعه أن يكتب ذلك ...!

وإلى هذه النهاية المريرة، كانت صحفنا وجنرالاتنا ووزراؤنا لا يزالون متعلقين بأحداث الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918 ، كما لو أنه سيكون أمراً سهلاً استحضار شجاعة، ونجاحات، وجرأة تلك السنوات الآن. لا يمكننا إيقاف الدبابات الألمانية، ولا توجد طائرات ضدها، ولكن وسط المعركة، في 14 / أيار / 1940، تخبرنا صحيفة المصور الفرنسية (L, Illusttration) وقرّاءها، أن في شهر آب / 1914 تمكنت طائرة فرنسية واحدة، من تدمير فرقة خيالة ألمانية بأكملها، وها نحن نواسي أنفسنا بأقصى ما نستطيع ..!

وعندما أسقطت طائرات الشتوكا (6) بعويلها السماء، المفترض أن تكون آمنة، على رؤوس جنرالاتنا، بدأ الناس يكتشفون الخداع والحيل التي كان البعض يرددها عن الكفاءات والقدرات، والحقيقة أننا كنا نفتقر إلى الطائرات، وإلى الأسلحة المضادة للدروع، وأسلحة وأعتدة.
(الصورة : الطائرة القاصفة / المقاتلة شتوكا)

وأصدر جنرال فرنسي توجيهاً للضباط في قواته، يوصيهم بكل جدية، أن يضعوا شراشف السرير على أبراج الدبابات المعادية " وبهذا يصبح طاقم الدبابة كالعميان، ويضطرون لتسليم أنفسهم " إذا كانوا يريدون البقاء على قيد الحياة وأن لا يحترقوا..!" منذ يوليس قيصر لم نتغير نحن الغاليين.(7)

ولكن الدبابات الألمانية لم تكن لتدعهم يغطونها بالشراشف، ولسرعتها كان لوحدات الدبابات دورها الحاسم في تحقيق الانتصار، ومن المؤكد أن الألمان استخدموا أسلحة أفضل، ولكن قبلها كانت استراتيجيتهم أفضل. الدبابات الفرنسية كانت التي كانت سرفاتها (سلاسلها) لا توفر اتصالاً وثيقاً بالمشاة، وأقصى تقرب للدروع من المشاة لا ينبغي أن يكون من 2 كيلو متر، وفي هذه المسافة التي تبلغ خمسة أو عشر دقائق، إذن سيقومون بمناورة لا معنى لها حتى يصلهم المشاة بعد نصف ساعة.

كان شارل ديغول أحد القلائل من الضباط أدرك الحقائق والمؤشرات، وكان قد درس التقدم الألماني في غزو بولونيا، وكتب خطياً آراءه حول دروس المعركة وأبلغها لرؤسائه، وبعد أن كان قد توصل إلى أن وحدات مشاة لا يمكنها أن تؤدي المهمة. " ولا يمكن إيقاف وحدات آلية، إلا بوحدات آلية مثلها".

وأدى تنامي القوات المدرعة الألمانية في وقت قصير، إلى إشاعة الذعر في الجبهة الفرنسية بين القوات، وفي الأركان العامة. وكتب أحد ضباط المدفعية من الجيش الفرنسي التاسع، أواسط أيار " أن من بين 70.000 رجل والكثير من الضباط، لا توجد وحدة في الجيش حتى الوحدات الصغيرة، ما تزال تستمع إلى قادتها، كانت الفوضى ضاربة أطنابها والأمور متداخلة، سواء في القطعات المقاتلة، أو الوحدات الإدارية الخدمية للجيش ".

وعلى مدار قرون، كان على جنرالات الجيش الفرنسي أن يقدموا التقارير إلى الملك، أو إلى رئيس الوزراء، فيما يخسرون في معركة من معاركهم، ولكن لا هزيمة كان لها الكثير من العواقب، كالتي حدثت في أيار / 1940، لم يكن وزن تاريخي لمحادثة كالتي جرت في 15 / أيار / 1940 في الساعة 20.30 بين القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية الجنرال موريس غاميلان، ووزير الدفاع إدوارد ديلاديه، ولو لم

يكن السفير الأمريكي في باريس ويليام بوليت موجوداً في مكتب ديلاديه، لكانت الأجيال اللاحقة لا تدري عن هذا الحوار شيئاً .

الجنرال غاميلان اتصل ليخبر أن رتلاً من الدبابات الألمانية قد وصلت 130 كم شمال باريس، بلدة ريتل (شمال شرق باريس) وبلدة لاون (شمال غرب باريس). فصرخ ديلاديه، إذن يجب الانتقال إلى الهجوم المقابل، كما حدث عام 1918.

" هجوم ... بماذا ...؟ سأله الجنرال غاميلان " أنا لم يعد لدي ما يكفي من القوات الاحتياطية بين باريس ولاون، ولا أستطيع أن أجد وحدة متكاملة واحدة ".

"هل يعني هذا " سأل ديلاديه بوجه متحجر " أن الجيش الفرنسي قد أبيد ؟ " ويقول السفير الأمريكي بوليت " كان لدي انطباع أن ديلاديه قد صغر حجمه ".

" نعم " أجاب الجنرال " لقد أبيد الجيش الفرنسي ".

(الجنرال غاملان يستقبل في باريس رئيس أركان الجيش البولوني)

خوف هتلر وقلقه، كان فقط أن تتعرض أرتال الدبابات الألمانية المندفعة للخطر(كمين أو تطويق) ولاسيما أن قوات الجنرال غودريان كانت قد توغلت عميقاً، لا بل حتى أصدر أمراً (لساعات معدودة) بعزله من منصبه، الأمر الذي منح الفرنسيين فرصة لالتقاط الأنفاس، والقيام بعمليات عسكرية، فعلى سبيل المثال بناء مواقع دفاعية في منطقة بريتاني، رغم أنها جاءت متأخرة، ولم يكن قد تبقى مجال سوى للاعتبارات والجهود السياسية.

كان شارل ديغول قد تقدّم بمقترح وافق عليه رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، أن على فرنسا وبريطانيا أن يكوّنا اتحاداً، وأن كل مواطن بريطاني هو مواطن فرنسي تلقائياً، وكل فرنسي هو بريطاني تلقائياً، وهذا سيكون مقدمة لكل القارة لأن تكون أمة واحدة ولن يستطيع هتلر أن ينتصر عليها، وتمكن شارل ديغول أن يكسب رئيس الوزراء باول رينو لجانبه، ولكن في 16 / حزيران، في الجلسة الأخيرة لحكومة الجمهورية الثالثة، لم يعد رينو في الحكم. (8).

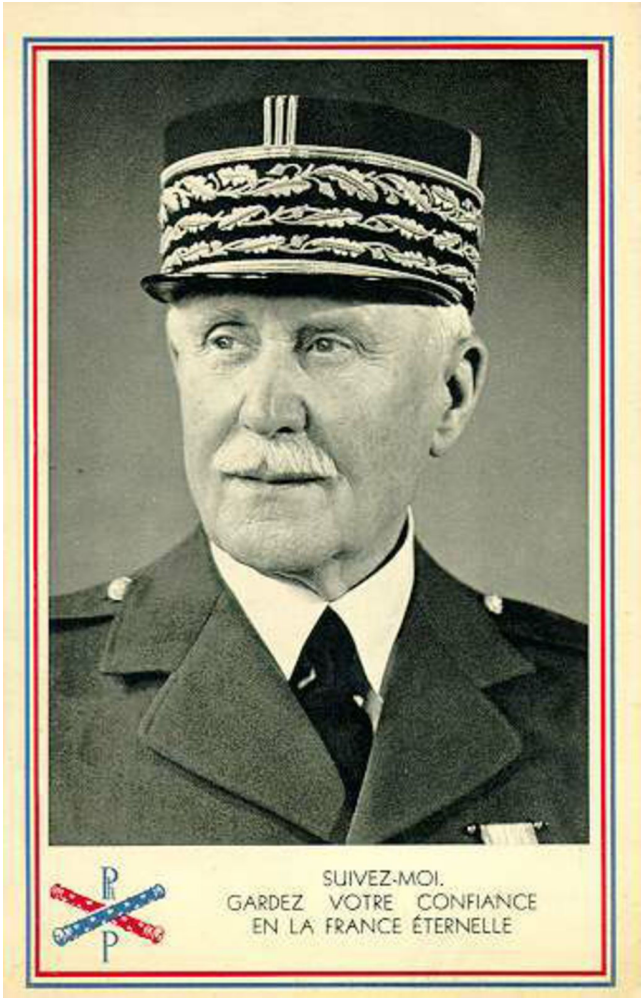

كان شارل ديغول خلال الحرب العالمية الأولى ضابطاً في وحدة قائدها الماريشال فيليب بيتان. وفي الحرب العالمية الثانية استلم يوم 15 / أيار الفرقة المدرعة الرابعة، وفي 5 حزيران/ 1940 عيّنه باول رينو بوظيفة سكرتير الدولة في وزارة الدفاع، وأصبح ديغول سياسياً. وعندما عرض فيليب بيتان وقف إطلاق النار والهدنة على الألمان، قرّر ديغول مواصلة القتال ضد الألمان من خارج البلاد، (9)، وغادر يوم 17 / حزيران مدينة بوردو على متن طائرة بريطانية، وشكّل في لندن حكومة مهجر، ولكن أوج عمله الذي سيدخل التاريخ لم يكن قد حان بعد، وكان عليه أن يواصل القتال من بريطانيا ومن أفريقيا، حيث سيكون أسطورته.

وكان خصمه (الماريشال فيليب بيتان) قد خلف مجده وأسطورته خلفه، فيليب بيتان ماريشال فرنسا، ولولاه لكانت فرنسا ربما قد تحطمت، وهو الذي واصل القتال في معركة فردان التاريخية في الحرب العالمية الأولى، ومن خلال الانتصار الذي حققه على الامبراطورية الألمانية أنقذ فرنسا، وفي ساعة الهزيمة حزيران / 1940، اعتبر بيتان أن الواجب يناديه من جديد، لينقذ فرنسا .. وتقريباً كل الشعب الفرنسي رأى فيه أنه المنقذ الوحيد من المأزق.
(الصورة: الماريشال فيليب بيتان : رجل لُوّث تاريخه)

وفي غضون فترة الاحتلال الألماني لفرنسا 1949 ـ 1944، انهار المنقذ فيليب بيتان تحت الطلبات المتصاعدة للسادة الجدد(المحتلين الألمان)، ثم كان عليه فيما بعد 1945 أن يجتاز محاكمة مهينة، ويحكم عليه في نهايتها بالإعدام. وهو الحكم الذي خفّفه فيما بعد شارل ديغول الذي كان قد غدا بعد التحرير رئيساً

لوزراء فرنسا، إلى السجن مدى الحياة، وكان بيتان قد حكم على ديغول بالإعدام غيابياً، وديغول يصبح منقذ الأمة، وينقذ فرنسا مرة أخرى من ورطة الحرب الجزائرية، ويؤسس الجمهورية الفرنسية الخامسة.

(الخارطة بعد اتفاقية الهدنة: باللون الأحمر والوردي: مناطق احتلال ألمانيّة، باللون الأصفر والتضليل على البنفسجي مناطق احتلال إيطاليّة، المساحة البنفسجية هي أراضي حكومة بيتان)

ولا يمكن فهم انتصار وصعود فيليب بيتان في حزيران 1940. دون معرفة التسييس الذي حدث في تلك المرحلة، والذعر والحزن الشديد لدى الناس لخسارتهم الحرب، حتى جاء الوقت والظروف لإدانته، وكذلك لا يمكن فهم انتصار وصعود شارل ديغول عام 1944 إجماع الشعب في عهد التغيرات والبنى والهياكل الاجتماعية والسياسية. (10)

بين أعوام 1949 و 1944 وبين بيتان وديغول تغير الفرنسيون كثيراً بعد أشنع هزيمة تكبدوها في تاريخهم، وفي أعقاب هزائم وانتصارات الألمان، والإنكليز، الروس، والأمريكيون، أطلقت هذه مشاعر متفاوتة في بلادهم المحتلة، مشاعر دفعت البعض ليتعاون مع المحتل، ولكنها دفعت الآخرين إلى المقاومة والجميع إلى حرب أهلية.

وتحت أشعة الشمس المحرقة لشهر تموز 1940 كان الفرنسيون يبحثون عن مأوى، خلف عجوز (الماريشال فيلب بيتان) كان يبلغ سنه يومذاك 84، ولكن الفرنسيون كانوا يهللون ليس فقط لأنه " عجوز طيب " ولكن أيضاً لأنه رجل انتصر على شيخوخته ومنح من نفسه مثالاً يُحتذى به، وبدون أن يجعل نفسه سخرية، رمزاً ليقف مقابل جيش هتلر. كان بيتان لبعض الناس رجل العناية الإلهية، وللآخرين كان يمثّل خيار أهون الشرّين، وبالنسبة لخصمه شارل ديغول، كان : الماريشال أعظم الممثلين في عصرنا، فنان حقيقي .

في بداية حكمه وقفت فرنسا بأسرها خلف الماريشال، هذا الرجل الذي كان يوماً معتقلاً في القرن التاسع عشر، ابناً لفلاح، ثم جندياً، في بداية حكمه كان 40 مليون فرنسي يعدون أنفسهم " بيتانيون ".

وفي كارثة 1940، كان بيتان الصامت الأعظم، وكان قد كتب حول الروح المعنوية الهابطة للجيش الفرنسي إلى القيادات العليا في البلاد، ولكنه رفض بحزم الدخول في الحكومة، بيد أنه لم يكن ليدع الشك أن عهده قادم، بل كتب هو يقول " في النصف الثاني من 1940 سوف يكونون بحاجة لي " هكذا تنبأ.

وفي النصف الثاني 1940، احتاجوه فعلاً، بأن يتولى منصب نائب رئيس الوزراء، لأنه يعتقد أنه يختلف في نهجه وخططه عن رئيس الوزراء باول رينو، لأنه لا يثق بالإنكليز، وكان الجنرال الإنكليزي سبيرس قد أبلغه بصراحة قاطعة " أنهم "الإنكليز" ليسوا في وضع أن يساعدوا فرنسا حتى جوياً ".

" أن الماريشال بيتان يعتقد " ، هكذا يكتب السفير الأمريكي في باريس بوليت في تقريره " أن الإنكليز لا يعارضون بعد وقت قصير اتفاقية توافقية مع هتلر، وبالنسبة للماريشال، ليس أمامه سوى عقد اتفاقية هدنة مع ألمانيا ".

وعلى العكس من ديغول، قال بيتان: أنها لخيانة ترك أرض الوطن " إنه التزام الحكم للبقاء في البلاد، فرنسا تعيش حالة ارتباك، وإنها تحتاج لمن يدافع عنها، وإخراج العدو، وإلا فإن معنويات الفرنسيين ستموت وآمالهم في إعادة النهوض والبناء ستصبح غير ممكنة ".

" اتفاقية الهدنة " يواصل بيتان " هي في نظري الشرط الضروري لمواصلة وجود فرنسا "، وفعلاً فور استلامه لمهامه كرئيساً للحكومة، قام بالمفاوضات مع الألمان وتوقيع اتفاقية الهدنة.

التقى الوفدان الألماني والفرنسي في 21 / حزيران / 1940 في غابة ومبيني، في نفس المكان، الذي كان فيه الألمان وقّعوا الهدنة مع فرنسا في الحرب العالمية الأولى، وكانت بتقديرهم اتفاقية مذلة، وفي نفس عربة القطار تلك في تشرين الثاني / 1918، وكان قد حضر وفد ألماني بقيادة هتلر شخصياً، مع الوفد الفرنسي، الذي كان يرأسه الجنرال شارل هونت سيغير. وكان الألمان يرغبون في ذات المكان الذي شهد إذلالهم فيه في الحرب العالمية الأولى، أن يشهد هذه المرة انتصارهم (في مسح لذلك العار برأيهم). ومارسوا هذه (Fetshism) الفتشية.، وكانت الكثير من فقرات اتفاقية الهدنة مشابهة للكلمات التي أملاها الماريشال الفرنسي فوش، في العام 1918. (11)

أعلن الجنرال فيلهام كايتل رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الألماني، باسم هتلر " أنه قد تم تحديد هذا المكان غابة كومباني التاريخية ولإصلاح العدالة على هذه الطريقة مرة واحدة وإلى الأبد، وإطفاء ما يعتمل في الذاكرة، التي لم تكن فصلاً مجيداً في تاريخ فرنسا، ولكن بالنسبة للشعب الألماني مسحنا أعمق عار في تاريخه ".

في بوردو، كان وزير الدفاع الفرنسي ينتظر نداءً هاتفياً أقيم بمساعدة الألمان في الساعة 20,30، وويغان لم يكن يعرف قبل بدء التوجه، المكان الذي سيتوجه إليه الوفد الفرنسي الذي سيجري مفاوضات الهدنة مع الألمان. ولما علم بالوجهة (عربة القطار التذكارية في غابة كولومبي) تمزق قلبه، فقد كان هو شخصياً ضمن الوفد الفرنسي عام تشرين الثاني 1918 .

المواد الأربعة والعشرون التي تألفت منها اتفاقية الهدنة، إلى جانب الفقرات والمواد الكلاسيكية التي تتضمنها الاتفاقيات، كانت هناك مواد غير منتظرة. الكلاسيكية منها كانت تتضمن نزع سلاح القوات، وتسليم للمعدات الحربية، وإحصاء الجيش الفرنسي، والدفع لجيش الاحتلال. وبشكل غير منتظر، كانت المساحة تحت الاحتلال كبيرة التي كانت تمثل 3 إلى 5 من مساحة فرنسا 60%، بما في ذلك العاصمة باريس، الشمال بأكمله، والغرب، وعلاوة على ذلك، التأكيد في الفقرة الثالثة أن الحكومة الفرنسية إذا أرادت أن تحرك مقرها إلى باريس، وختاماً كانت الفقرة الأهم : أن الحكومة الألمانية تؤكد أنها لا تنوي استخدام أسطولها بحال من الأحوال ضد بريطانيا، وهي لا تنوي ذلك، كما أنها لا تنوي مصادرتها.

ولأن العاصمة المؤقتة بوردو، أصبحت ضمن المساحة المحتلة من قبل الألمان، انتقلت الحكومة الفرنسية إلى مدينة كليمونت فيراند، وهو موقع حسن ولكن لم تكن هناك مباني مناسبة لعمل الحكومة، لذلك انتقلت بعد وقت قصير إلى مدينة فيشي (Vichy) رغم أنها (الحكومة) كانت تخشى في البداية وأن يرتبط اسمها تاريخياً باسم المدينة / المنتجع الطبي، و بسبب بنك القمار المشهور في المدينة وكازينو القمار ريغيمي المشهور.

وبحسب كلمات هتلر الحكومة الفرنسية كان عليها " أن تبقى عنصراً ذات سيادة، وبذلك يمكننا فقط أن نعتبر أن المستعمرات الفرنسية ستبقى تحت السيادة الفرنسية، ولا تسقط بأيدي الإنكليز ".

وبهذه الأفكار، ومشروع وثيقة الهدنة، التي أعدها العميد هيرمان بومه (من الجيش الألماني)، الذي يظهر ألمانيا منتصرة وكريمة ومستعدة لرحمة خصمها المهزوم، وراغبة في تأسيس نظام أوربي جديد، ستجد بريطانيا نفسها في نهاية المطاف معزولة عنه. وكان يراد من اتفاقية الهدنة أن تعكس وجهة نظر لحل سريع لحل شامل واتفاقية سلام، تكون فيها فرنسا بحجم سويسرا، وكان في الإشارة 490 / 1940 بلداً سياحياً، وربما أيضاً بلداً منتجاً لأنواع من المودة والتقليعات.....!

أيقن هتلر بسرعة، أن التوصل إلى اتفاق مع إنكلترا (تشرشل) لم يعد ممكناً، لذلك فهو كان بحاجة إلى القواعد في المستعمرات الفرنسية، ولكن للسيطرة عليها تعوزه القدرات والوسائل، لذلك فهو كان يحتاج إلى الأسطول الفرنسي سليماً، ولذلك كان عليه أن يترك جانباً من فرنسا تحت سلطة حكومة الماريشال بيتان، وأن يبقي لحكومته سيادة مشروطة.

(لقاء هتلر وبيتان)

في 23 / تشرين الأول / 1940 التقى هتلر مع فيليب بيتان في محطة قطار حتى ذلك الوقت لم تكن معروفة، لبلدة مونتوري الصغيرة (Montorie) وما رسخ في ذاكرة معظم الفرنسيين عن هذا اللقاء، المصافحة بين المنتصر والمنهزم. وفي محاكمة بيتان التي جرت بعد خمسة سنوات، عرض المدعي العام أمام المحكمة الصورة مكبرة، من أجل ملاحظة وتمييز جوانب الصورة، على أنها كانت أكثر من مصافحة بالأيدي، كانت هناك كلمة.

حول اللقاء في بلدة مونتوري هناك فقط الملاحظات التي أدلى بها مساعد بيتان، بيير لافال، والمترجم الألماني باول أوتو شمت، وخلال المحادثة الذي كان على بيتان أن يتوجه للقاء هتلر دون تحضيرات، حاول هتلر أن يأخذ الماريشال إلى حديث يبحث في التعاون المشترك ترجمها المترجم شمت "بالمتعاون " (Kollaboration) وهذه الكلمة طبعت المحادثة بطابعها.

بعد اللقاء مع هتلر، ألقى بيتان خطاباً كئيباً متشائماً ويبدو عليه الحذر (ربما كانعكاس للمحادثة / المترجم)، والذي معظم ما قاله تقريباً، جاء بشكل غامض، ولكن مما قاله بيتان أيضاً " أنا اليوم ماض في طريق التعاون (Kollaboration)".

وسجل مساعد بيتان: هنري مولين دي لابارتيت ملاحظاته قائلاً ,, الماريشال ارتكب غلطة واحدة، إذ كان عليه أن لا يمضي أبداً في التحدث عن التعاون (Kollaboration) أن هذه الكلمة يمكن أن تصبح رصاصة، " يمكن أن تكون تقريباً كرصاصة قاتلة ".

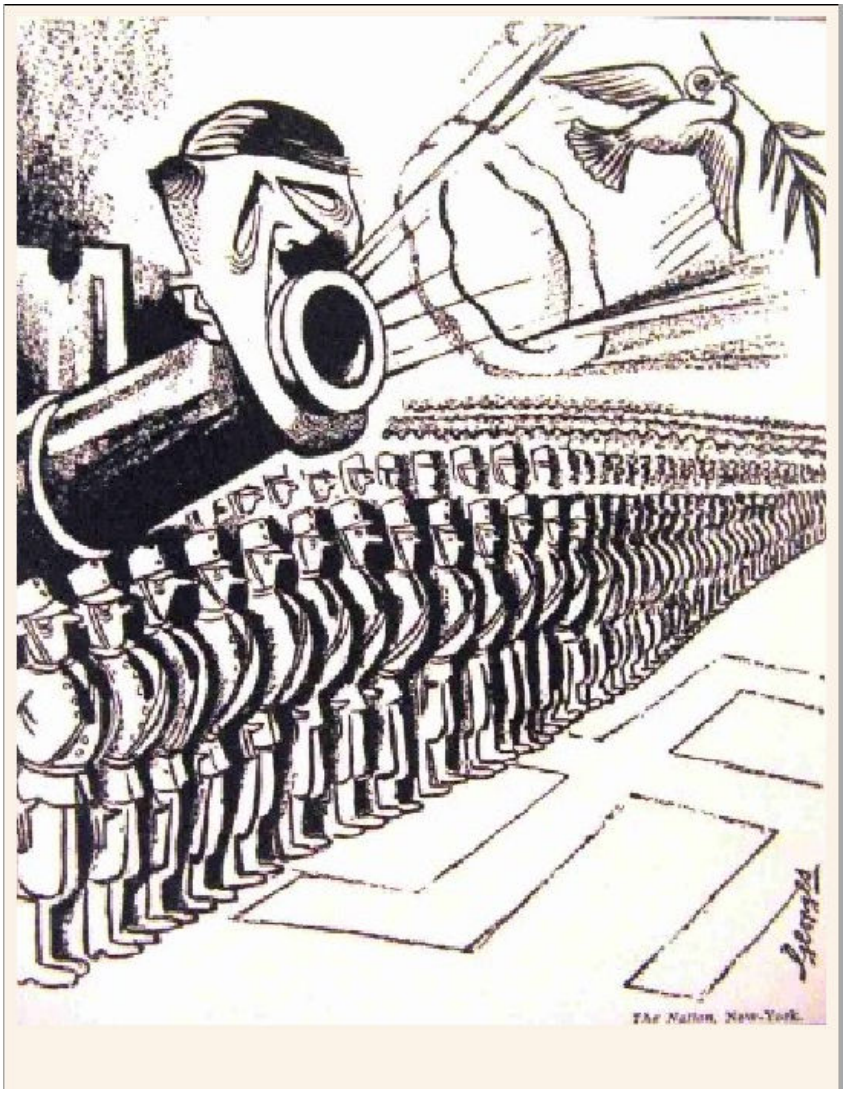

(كاريكاتور معبر: هتلر يتحدث بالسلام من فوهة مدفع ويعبئ الملايين في جيوش للعدوان)

كان الألمان يأملون بتعاون سياسي، بل أن بعض الطوبابويون (الخياليون) تخيلوها تحالفاً عسكرياً ضد إنكلترا. في الوقت الذي لم يكن بيتان على استعداد لذلك. " إنه لمن المحتمل " يكتب الماريشال بيتان لصديقه مكسيم ويغاند النائب عن شمال أفريقيا / الفرنسية، (الجزائر) " في يوم من الأيام سيحل الحديث فيه عن التعاون (Kollaboration)، ولكني سأهتم أن ينحصر الأمر في الشؤون الاقتصادية، أو في الدفاع عن ممتلكاتنا الأفريقية، ولن أوافق على أي هجوم على بريطانيا العظمى، وقد قررت بصدد هذا الموضوع أن لا أنحني لا للإيطاليين، ولا للألمان". وبالمناسبة فإن الفرنسيين لا يعلمون شيئاً عن هذه الرسالة.

والألمان أنفسهم لم يكن موقفهم حيال التعاون الاقتصادي يفهمونه كشركاء، وقد أوضح ذلك هانز ريتشارد هيمن رئيس الوفد الاقتصادي الألماني في لجان الهدنة، في فيزبادن (منتجع ألماني / المترجم) بعد أيام قليلة بقوله " التعاون يمكن أن يكون فقط ضمن النظام الاقتصادي الألماني ". وما ينبغي فهمه في الواقع، فالفرنسيون سيعلمون ذلك.

في مدينة نوير، سجل فريديك موريت في 4 / أيلول / 1940 في مذكراته : " لم يعد هناك خوخ في الرفوف، كما لم يعد هناك كيك لدى باعة الحلويات ". في بلدة فيرينس بتاريخ 14 / آب / 1940، كان

على جميع الذين لم يسحبوا للعمل، أن يسلموا دراجاتهم الهوائية، في ليون صادر الألمان قبل أن ينسحبوا من المدينة بحسب اتفاقية الهدنة، صادروا ما مجموعه 24,000 طن من المواد الغذائية، والمواد الحارقة والسلع الأساسية، التي جمعت خلال أربعة أيام، واستُخدم في شحنها 1800 سيارة شحن، و162 عربة قطار ونقلوها إلى المناطق التي بقيت تحت احتلالهم.

بالطبع دفعنا نحن كامل تكاليف الاحتلال حتى نفقات شراء شجرة عيد الميلاد، ونفقات الإقامة للعاهرات المريضات. ومع ارتفاع نفقات الاحتلال اليومية إلى ما يقرب من 400 مليون فرنك، كان بوسع الألمان أن يديموا 18 مليون جندي بهذه الموارد، فيما كانوا (الجيش الألماني) لا يحتاجون في الساحة الفرنسية إلا إلى 30.000 جندي، فيما كانوا يحصلون خمسة أضعاف ما يحتاحونه لقواتهم في فرنسا، وطيلة سنوات الاحتلال الأربعة، كان الألمان قد وضعوا اليد على ثروات فرنسا ومواردها.

" أنتم تأخذون كل شيء "، أصبحت هذه جملة تقليدية في المحادثات. وحكومة الماريشال، كما كان يطلق عليها في البداية،، قبل أن تنتقل إلى المدينة / المنتجع فيشي، وتستقر هناك، ويكون لها علاقاتها، وكانت تحاول أن تحصل على مزايا من اتفاقية الهدنة قدر الإمكان، ويتخذ منها درعاً بوجه الطلبات المتزايدة للألمان.

التعاون في المجال الاقتصادي، وبالطبع لصالح ألمانيا، يمكن القول، المنهج الأقل من التعاون، بل هو تعاون سياسي أكثر من شيء آخر، يسعى الألمان من جانبهم، السفير الألماني في باريس أوتو أبيتز من خلال علاقاته وكانت له اتصالاته المهمة في باريس وفي حكومة بيتان التي شكلها فيما بعد بيير لافال، الذي كان يعتقد أن الهيمنة الألمانية على أوربا ستكون طويلة الأمد.

بل وأكثر من ذلك، لافال نفسه كان لا يتواني من تسمية نفسه من المتعاونين (Kollaboration)، وكان متحمساً للتعاون مع ألمانيا معجباً بها التي كان يرى فيها أنها ظاهرة ستستمر وقتاً طويلاً، وكذلك كان في باريس من هو معجب بألمانيا، ويرون مجالاً للتعاون معها.

من بين المتعاونين مع الألمان، كالأكثرية ممن عملوا وتعاونوا مع حكومة فيشي علناً وصراحة، كان هناك من المتعاونين في باريس من الحركات العسكرية، والخلاف الذي كان مثار جدل، هي بين سياسة واقعية ذرائعية (Pragmatism) سياسة آنية، وبين سياسة عاطفية (وطنية) (12).

في حرب لا يعرف لها مخرج، كانت ألمانيا أمام عدو، ينبغي تقديم التنازلات له إن كانت جيدة أو سيئة، عداء سيجلب معها الهزيمة، هو للبعض منتصر تاريخي، وللبعض الآخرين ممن ينتظر المرء منهم المساعدة الأخوية، لينقذوا فرنسا الملوثة بالديمقراطية، واليهود والماسونيين، ويعيد نهوض فرنسا معنوياً قبل أن تكون مادياً.

منذ الساعات الأولى للهزيمة، يقارن المتعاونون فرنسا والفرنسيون، بالنموذج الألماني، نموذج ويقولونها بصراحة تامة، إنه نموذج لا يمكن مقارنته بهم، لا يمكن مجاراة الرياضيين الألمان في ألعاب الساحة والميدان، وكذلك الجندي في ميادين القتال، يبدو أن " الإنسان الفرنسي" غير قادر أن يبلغ مستوى "الإنسان الهتلري".

" الأدب المتعاون" واصل العزف على هذه النغمة " الأقل قدرة أو قيمة" والمقال الذي ظهر على صحيفة المصور " ((L, Illustration في 21 / شباط / 1942 في قرار بوضوح تام "نحن نستطيع، وينبغي أن نفعل ذلك، أن نسترشد في إصلاح طباعنا، ونتخذ من الاشتراكية الوطنية (الحزب النازي) مثال لنا نتعلم منه.

من كان هؤلاء المتعاونون الذين في باريس الذين كانوا يسيطرون بمساعدة جهاز الدعاية الألماني، على الصحافة والإذاعة، كانوا معادين للسامية، ومعادين للماسونية، وأكثر من ذلك، كانوا معادين للنزعة البرلمانية من كافة الأنواع، وللذين كانوا في وقت ما في الماضي معادين للنازية في ألمانيا، هؤلاء جميعاً يبدون اليوم الانبهار والإعجاب بالقوة والنظام والضبط والرجولة.

قوة الاحتلال كانت تصطاد متعاونين معها وتزيّن نفسها بهم كالعباءة السحرية، لتمكنهم أخيراً للحصول على قدرات الشعور النفسي والمعنوي النوعي للمنتصر، ,, أنا أحب القوة كثيراً " كتب الكاتب بيير دريو لاروشيل " عندي امتدادهم (بهاءهم) في بلدي هي أفضل الأوقات المثيرة للإعجاب، لنشاهد إعادة نهوضهم، وهم جاؤوا إلينا، لكي لا نذهب ونبحث عنهم ونتعرف عليهم".(13)

هناك حيث هي، هذا يعني أنه لها: عند الجنود الألمان إنها مناقب ومآثر للثقافة العظيمة الآفلة (الغاربة) إنهم يحافظون عليها، وللمتعاونين المهمة تمثلت فقط في الدفاع عن الحضارة المسيحية، وكيف عاش الفرنسيون هذا الأفول..؟

" أنا كنت متعاون (Kollabo)" هذا جاء في رسالة استلمتها، بعدها تلقيت رجاء أن أدلي بذكرياتي الشخصية أيام الاحتلال وأن أعرضها للنشر. " 1940 كنت في سن السادسة عشر، كنجل لضابط وكنت معادياً للسامية (Antisemite) بحسب سذاجة أفكاري آنذاك التي دفعتني لمغامرة، دون التفكير في عواقب وأي قدر حزين كان أن أشاهد الفرقة الفرنسية التي مرت أمامنا بوضع بائس، ولم تكن قد قاتلت حقاً، وفكّرت فقط بإنقاذ جلودهم، بلا كرامة، بلا فخر ! المهزومون كانوا ممن يحتسون البرنو، ويلعبون في الشوارع بالكرة الحديدية (لعبة شائعة في فرنسا / المترجم)، ويجلسون في البارات المنحطة. (14)

" وعلى الجانب الآخر ؟ شعب وصف لنا كقبائل بربرية، ولكنهم كانوا شبان ذو أجسام رشيقة، بمظهر صحي، وأظهروا شجاعتهم وكفاءتهم أيضاً، وهذا ما يجب ببساطة الإقرار به، ولم يكونوا أعداء متعطشين للدماء، وبوسعنا احترامهم، ويكونون غداً حلفاء لنا، ما لم نقل أصدقاء ".

كان الجنود الألمان بعد نهاية القتال يحاولون إظهار أنفسهم بأفضل الصور والحالات، بالغي التهذيب حيال النساء، وفي المترو (قطارات الأنفاق تحت الأرض / المترجم)، كعاشق لوجبات الطعام اللذيذة في المنازل الريفية، كانوا يحترمون الملكيات الخاصة وهو مهم جداً في فرنسا، وكانوا يبدون الاحترام لنمط حياة الناس العاملين.

أظهر الجنود الألمان الإعجاب التام لنُصب الأبطال (بويلوس) في حرب عام 1819/1914 ووقفوا بعفوية واحترام أمام الشعلة الأبدية في قوس النصر بباريس، هم كانوا مبهورين بانتصارهم الباهر، والفرنسيون الذين قد قرؤوا هوراس، كانوا يواسون أنفسهم بجمله لهوراس " اليونان المقهورة المهزومة، قهرت إرادة المنتصرين " . (15)

وكما في أي حرب، الفائز المنتصر له رغباته واحتياجاته، في باريس كان هناك منزل واحد على الأقل، والذي لم ينقطع عن العمل حتى في يوم التقدم الألماني، وعندما هرع بقية السكان من الرعب الذي أحدثه ضجيج الدراجات البخارية واختفوا، قامت مديرة النزل بتعليق قطعة على الباب " سنعيد فتح المنزل بعد الساعة 15 (الثالثة ظهراً) ". وسرعان ما عادت جميع المومسات إلى باريس في قافلة من سيارات الراهبات، حيث كن يربحن الكثير من الأموال، وقد صادر الجيش الألماني 40 من بيوت الدعارة.

وبطبيعة الحال، أظهر المنتصرون الكرم، حيال الفرنسيين الذين في أفضل الحالات فقط يبتسمون. وهكذا طلبت الوحدة الألمانية رقم (47438) التي كانت تعسكر في بريشك ليس باينس (Pechaq les Bains)، في 15 / نيسان / 1941 من الموظفين الفرنسيين 60 مكنسة، و60 جاروفة، 20 أنبوب مطاطي، 35 صندوق كارتون، 25 وعاء لجمع النفايات، و25 سطل لجمع النفايات، و20 علبة مسحوق غسيل، و20 علبة صابون، ومواد غسيل وتنظيف، والألمان أرادوا أن يظهروا لسكان البلدة الصغيرة التي لا يتجاوز عدد سكانها 500 نسمة، كم هم مهتمون بالنظافة، وكم يهتم الجيش الألماني بنظافة المكان والأفراد.

الصحافة الفرنسية المتعاونة تصاعدت ولم تنخفض. وبالنسبة لهم لم يكن الجندي الألماني الذي غزا فرنسا ليماثل أولئك الألمان الذين قاموا مفتونين بالمسيرات في نورمبرغ، والاحتفالات المهيبة للحزب النازي ، وتلك مظاهر فاتنة كانت تعني لهم بأنهم يلتحقون بديهياً بالركب المتعاون، والكثير من الكتاب المتعاونين أبدو الاشمئزاز من تصرفات الفوضوين الفرنسيين.

للفرنسيين العاديين الذين يريدون أن يتمتعوا بحياتهم، يمضون لصيد السمك، ولهم ميل للأطعمة الشهية، ويلعبون أحياناً دور البطل، يطرح المتعاونون بالمقابل المواطنون الفرنسيون في العهود السالفة، الذين يهتمون بالمتع والراحة.

فرنسا في عيون الكتاب والصحفيين المتعاونين الذين وجدوا الرحمة، كانت فرنسا الحروب الصليبية، وأغنيات رولاند، امتدا إلى عصر كارل الكبير(شارلمان) وأغلبهم كان يقول أن إمبراطوريته لم تكن ألمانيّة، ولا فرنسيّة/ فرنسيّة، بل كانت أوربيّة

نصّ الخطاب التاريخي الذي وجهه الجنرال شار ديغول إلى الشعب الفرنسي ترجمة كلمات التوجيه، وكلمات الختام :

" إلى جميع الفرنسيين ....

فرنسا خسرت معركة ....!
ولكن فرنسا لم تخسر الحرب ...!
إن وطننا يواجه خطر الموت.
دعونا نقاتل جميعاً لإنقاذه ..! "

الجنرال شارل ديغول

المقرّ العام
ل . كارلتون غاردنز
لندن

S. W. I.

* * * * *

كلمة المترجم في تحليل الفصل الأول :

يريد المؤلف في هذا الفصل الأول أن يقول: أن فرنسا: بقيادتها السياسية المترددة واقتصاد يعاني من متاعب، وقيادتها العسكرية التي كانت تعيش على أمجاد ماضية، غافلة عن التطور الكبير في السلاح وصناعة الأسلحة لا سيما الدروع والطائرات، اللتان غدتا الأسلحة الأساسية في الحرب، كما قاد التطور التكنولوجي إلى تطور في نظريات التعبئة والسوق (التكتيك والاستراتيجية)، وبينما دخل الألمان بعزيمة قوية وقيادة جسورة، وقوات برية آلية، ومدرعة، وأسلحة حديثة، وقوات جوية متطورة، واقتصاد ناهض وقوي، كان الفرنسيون على العكس من ذلك، يعانون من مشكلات جوهرية في كافة المجالات، وهو السبب الحقيقي في هزيمة فرنسا بسرعة لم تكن متوقعة في فرنسا.

المؤلف يريد أن يشرح الظروف التي أدت إلى أن يحتل الجيش الألماني فرنسا بسهولة شديدة، يريد أن يشرح الظروف الذاتية والموضوعية للانهيار الفرنسي. بقوله أن ما كان ينقص الجيش الفرنسي هو السلاح المتطور وخاصة في الدروع والطائرات، ولكن النقصان الأكبر كان في فقدان استراتيجية واضحة، وتسيب حكومي واضح، قاد إلى فقدان إرادة القتال ليس لدى الجندي فحسب، بل وحتى عند القيادات السياسية.

وخلاصة هذه الثغرات هي أن فرنسا عام 1940 كانت بعيدة عن الجاهزية للدخول في الحرب، وأنه لمن الخفة والبساطة تشبيه ظروف 1914، بظروف 1940.

ويشير المؤلف إلى نقطة، نعتقد أنه لم يمنحها الأهمية اللازمة، في حين نجدها بالغة الأهمية،

"والفرنسيون كانوا قد فوجئوا بأن التنمية الاجتماعية قد أفسدت التقاليد الفلاحية، والكاثوليكية، والعائلية وباختلاط قيمها وقواعدها ببعض أدت إلى إرباكها. ولم تنجح حكومة الجبهة الشعبية التي تشكلت عام 1936 من قبل الاشتراكيين ومدعومة من الشيوعيين، تمام النجاح، وداعمو اليمين لم يكونوا مرتاحين لها، واليساريون لم يكونوا راضين، لأنها لم تتمكن من إنجاز سوى نصف برنامجها. كان الشعب الفرنسي (14.194,000مليون) يعيشون في بلد لم تشهد شيئاً يشيد فيه منذ عام 1914، ولم يخترع شيء، ولم يشيد شيء. بل كانوا يزينون حياتهم بذكريات الماضي".

فرنسا كانت تجتاز مرحلة تاريخية من التحولات السياسية والاقتصادية، " وللمرة الأولى يتقلد فيها يهودي، مهام رئيس الوزراء في فرنسا (ليون بلوم)، وكان هناك تصاعد كبير في الأجور، لكن يقابلها زيادة في الأسعار وكان التضخم الحاد يلتهمها، وستحتاج البرجوازية فترة طويلة لكي تتعافى من هذه الأزمة، لم يكن عام 1939، ولا حتى عام 1940 كافياً للشفاء منها " .

هوامش الفصل الأول

تلميح لإعلان فرنسا ضمان استقلال بولونيا وهو سبب إعلانها الحرب على ألمانيا / المترجم.
شكّل الماريشال فيليب بيتان حكومة فرنسية غير خاضعة للاحتلال في المناطق التي تركها الألمان تحت السيادة الفرنسية كانت عاصمتها فيشي، فيما شكّل الجنرال ديغول ما أطلق عليه فرنسا الحرة في لندن / المترجم.
مناطق شعبية يسيطر عليها الشيوعيون الذين لم يناهضوا الاحتلال ..! / المترجم
هي فرقة قوات خاصة من المتطوعين أو المرتزفة الأجانب / المترجم
الفرنسيون القدماء / المترجم
مقاتلة قاصفة ألمانية / المترجم
نسبة إلى أبناء بلاد الغال، الاسم القديم لفرنسا / المترجم.
إذ كان كل شيء قد انتهى، واستقال باول رينو وخلفه بيتان المتعاون مع الألمان / المترجم
المستعمرات الفرنسية : المغرب ، الجزائر، تونس / المترجم

حين وقّع الهدنة مع المحتلين، وترأس الجزء الغير محتل من فرنسا التي سميت بحكومة فيشي، لأنها اتخذت من مدينة فيشي مقراً لها / المترجم .
الفتشية باختصار شديد، إرهاصات نفسية لها تداعيات جنسية / المترجم.
يستخدم المؤلف مصطلحاً مثيراً باللغة الألمانية (Tagespolitik) وفي القاموس السياسي بالإنكليزية (Daily Politics) أو (Day to Day Politics) أي السياسة الآنية، تعبيراً وتمييزاً عن السياسة المبدأية القائمة على أسس نظرية، وهي براغماتية بهذا المعنى، لمنح السياسة مرونة في العمل والتعامل / المترجم
هذا الكاتب الفرنسي يتغنى بالاحتلال لسوء حظه، وينحدر لمستوى الخيانة العظمى، حُكم عليه بالإعدام عام 1945، ولكنه انتحر / المترجم
مشروب مسكّر / المترجم
هوراس Horaz، شاعر روماني(روما) درس الفلسفة، قاتل اليونانيين، وكان ضابطاً مقاتلاً مجيداً، كشعره الذي كان له تأثيره على تطور الشعر الإنكليزي / المترجم

الفصل الثاني : أبطال ومتعاونون خونة

كانت الأشهر التي أعقبت هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، زمناً هيمن فيه فقدان الشعور والإحساس، وضرباً من الاستسلام للمقادير والصمت. ولم تكن المقاومة إلا شيئاً لا يهتم به سوى بضعة ألوف من الفرنسيين، وهؤلاء الذين أطلقوا شعاراً " لا بد من فعل شيء" هكذا كان الأمر في بدايته. لذلك كانت فعالياتهم نادراً ما تلحق الضرر بشكل واضح وصريح، ولم تكن موجهة حتى ضد سلطة الاحتلال.

فعلى سبيل المثال: لم يقم مسؤول مقاطعة جيروني Gironde بأي فعالية طيلة أشهر نوفمبر ـ تشرين الثاني وديسمبر ـ كانون الأول / 1940 بأي فعالية للاصطدام بسلطات العدو المحتل. وفي يناير ـ كانون الثاني/1941 تم تسجيل حادثتين لقطع خطوط الهاتف، وقد سجلت هذه " إن الفاعل(المخرب) ربما يكون أحد المقاومين للوجود الألماني. وللعلم فإن الأسلاك المقطوعة كانت في المرة الأولى بطول 80 متراً و150 في المرة الثانية، ربما استخدمت كمصائد لصيد الأرانب البرية.

وفي مايو / أيار / 1941 حدث ما لم يكن في الحسبان وقوعه، إذ حدث اعتقال لسارق بنزين وكان شريكه جندياً من قوات الاحتلال الألمان، حُكم فيها على السارق بالسجن لمدة سنة وثلاثة أشهر في معسكر العمل(العمل الإجباري ـ السخرة). وفي شهر يونيو ـ حزيران/1941 تم تسجيل حوادث سرقات أخرى، ترى هل تسجل هذه على أنها من أعمال المقاومة ؟ أم أنها أعمال سرقات وجرائم عادلة ؟

المقاومة بدأت تؤسس وتتشكل ببطء، ففي نهاية عام 1940 تشكلت ثلاث مجموعات مقاومة، وفي مقاطعة إندرا Indre تشكّل فصيل المقاومة كومبات Compat. وفي خريف عام 1941، أي بعد 15 شهراً من الاحتلال ووقف إطلاق النار ولم يكن لديها أكثر من 50 من المنتسبين (المقاومين) ولم يكن الحال يختلف كثيراً في المقاطعات الأخرى.

الفعاليات الأولى المعادية للألمان كانت تنحصر في العادة بتوزيع المنشورات، مكتوبة بخط اليد أو بالآلة الطابعة، ولكن كانت دائماً بأوراق من صنف رديء، وكانوا يدعون الناس فيها للاستماع إلى إذاعة ديغول من لندن، وكان الصليب اللوثري هو رمز المقاومة، أو المطرقة والمنجل للشيوعيين ومن معهم.

والمقاومين الأوائل كانوا من اليمين، أو من اليمين المتطرف، على الرغم من أنهم كانوا يدعون إلى احتقار وازدراء الماريشال بيتان وكانوا يتخذون من السيف والدرع رمزاً، كان ديغول يمثل السيف وبيتان الدرع، ومن أجل تهدئة الخواطر، فإنهم كانوا يذكّرون بالصلات الودّية التي كانت قائمة بين ديغول وبيتان الذي يرأس الآن حكومة فيشي متناسين أن هذه الصلات قد تمزقت منذ زمن طويل. ولكن الأمر يتعلق بالتناغم الفرنسي وتقييمهم للقيم الفلاحية وخشيتهم من الحرب الأهلية. (1)

وكان خارج موضع الشك والتساؤل، بأن فيليب بيتان عام 1940 لم يطبخ مع الألمان في قدر واحد، وأن فيشي كانت لجميع الفرنسيين، بدت وكأنها منفذ للهرب والالتجاء. وبعض المقاومين الأوائل يقرون أو يعترفون، أن المنطقة غير المحتلة في فرنسا (القطاع الذي تديره حكومة فيشي) كانت شيئاً لا يمكن الاستغناء عنها لبناء منظمات المقاومة، وأن بيتان كان قد سهل لهم، على الأقل لأشهر طويلة، العمل من خلال سياسته الصراحة والوضوح.

في الأشهر العشرين الأولى من عهد الاحتلال، كان من السهولة ملاحظة الفرق بين المنطقة المحتلة(التي يديرها الألمان مباشرة) والتي كان الألمان يأمرون وينهون فيها بواسطة الشرطة التابعة لهم، وكذلك العناصر المتعاونة مع المحتلين. أما في الجانب الآخر منطقة حكومة فيشي فقد كان هناك ماريشال فرنسا بيتان يحكم، ومعه وزراء وجنرالات وموظفين، ولكن ربما لا يسع المرء أن يأمل منهم الكثير. (2)

بعد أن قرر شارل ديغول الذي كان قد خسر الحرب في الميدان الفرنسي، مواصلة القتال وقيادة فرنسا من إنكلترا، حيث بدأ على الفور بتوجيه نقد عنيف لبيتان من أجل تكوين اتجاه معادي لبيتان الذي أدرك على الفور هدف معركة الوجود هذه: إنقاذ ضمير وروح الشعب الفرنسي.

وفي بعض أوساط حكومة فيشي، وأيضاً في جيش الهدنة (بقايا الجيش الفرنسي الذي بقي بإمرة بيتان) الذي لم يكن يقبل الهزيمة. كان هناك من ليس ديغولياً، أو شيوعياً، ولكنه يرغب بالمقاومة، وكانت المقاومة تعني، أولاً: عدم الانصياع إلى أوامر المحتل المنتصر، ولا يشترط في ذلك أن يكون محسوباً على معسكر الديغوليين أو الشيوعيين، ولكن كلما غيرت فيشي سياستها بضغط من الألمان، كان معسكر الديغوليين يتسع وتعلو كلمتهم.

وبعد 22 / يونيو ـ حزيران / 1941، عندما غزا الألمان الاتحاد السوفيتي، اكتسبت حركة المقاومة ضد الألمان الاتحاد السوفيتي، اكتسبت حركة المقاومة للألمان طابعاً جديداً تماماً. وفيها انضمّ الشيوعيون الفرنسيون بالاتفاق والنضال مع الديغوليين. وفي الواقع فإن قبل ذلك، لم تكن للمقاومة أي قيمة عسكرية، ولم تكن الضربات ضد الجيش الألماني أكثر من وخز دبابيس، وكانت تكلف مرتكبيها ثمناً باهضاً، ولم تكن أهميتها بأكثر من أنها كانت إيقاظاً للروح الوطنية الفرنسية الذي جعل من شعب الهزيمة الكارثية، شعباً يرفض ذلك.

وكان تحالف هتلر وستالين قد جعل ذلك صعباً على الشيوعيين الفرنسيين المخلصين لسياسة موسكو، وكان خطابهم السياسي خالياً من أي كلمة ضد المحتلين الألمان وكانت كافة مقالات صحيفة اللومانتيه (صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي) ونشرات الحزب تهاجم حكومة بيتان في فيشي فقط، وكانوا يبدون وكأنهم لا يشاهدون الألمان أو كأنهم غير موجودين بالمرة.

وبعد بضعة أيام من الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي، ظهرت ردود الفعل الأولى من الحزب الشيوعي الفرنسي. بعدم مساندة العمل لصالح ماكينة الحرب الألمانية إذ أن " هذه الأسلحة موجهة ضد العمال وفلاحي الكولخوزات السوفيت " ، والدعوة إلى القيام بأعمال تخريب ظهرت في صحيفة اللومانتيه يوم 2 / يوليو ـ تموز تحت شعار " كل ما ينفع ويفيد هتلر يضر بفرنسا، وكل ما يلحق الضرر بهتلر ينفع ويفيد القضية الفرنسية والاتحاد السوفيتي أيضاً " .

وفي نشرة صدرت في يوليو ـ تموز / 1941 خاطب فيها الشيوعيون " إخواننا الديغوليون " ويدعونهم فيها إلى النضال المشترك " الذي يستعد له الحزب منذ يونيه ـ حزيران /1940 " إن الحزب الشيوعي الفرنسي الذي لحمته من لحم شعبنا قد بقى حياً، على الرغم من كل الضربات التي وجهت له، نحن نناضل منذ يونيه ـ حزيران / 1940 جنباً إلى جنب، وقد وقفنا معاً ضد الهدنة التي وقعها الخائن(ويقصد به بيتان).

* * * *

والغزو الألماني للاتحاد السوفيتي، لم يؤدِ فقط إلى احتدام المقاومة ضد الاحتلال الألماني نوعياً فحسب، ولكن أيضاً أوجد أبعاد للتعاون مع العدو. وفي تلك الفترة اعتقد كثير من المتعاونين مع العدو، بأن الأفق قد اتسع لأوربا جديدة، لا يكفيها القلب الوجل الخائف الذي يدير محل جزارة في فيشي، ولكنها تحتاج إلى الرجال الشجعان الذين يدفعهم الإيمان بالمبادئ الفاشية.

وقد كتب الكاتب الفرنسي المتعاون مع العدو، دي شاتبريان " أنه أعمى من لا يعرف الدور الذي أوكله القدر إلى ألمانيا، بل منحطة وملعونة أي أمة أوربية لا تحمي هذا السيف المرفوع ".

الشهور الأولى التي قادتها الدبابات وأجهزة الدعاية على السواء ضد السوفيت الذين بدا عليهم وكأنهم يترنحون، ظهر المتعاونون مع العدو، وهم يمنحون كل ذلك طابعاً من الضرورة وحكم القدر، وبدا أن كل من هو معادياً للسامية يأمل بأن الدولة بمساعدة النازية سوف تظهر هي الأخرى كراهيتها.

ولم يطل ذلك كثيراً، حتى أرغم اليهود في الجزء المحتل من فرنسا على حمل شارة النجمة اليهودية. وعلّقت الصحيفة المتعاونة مع العدو، بيلوري على هذه الإجراءات في 7 / حزيران ـ يونيو / 1942 " من اليوم فصاعداً، على جميع المارة في الطرقات الانتباه".

ولكن ردود الأفعال كانت مختلفة تماماً، وعلى غير ما كان الألمان والمتعاونيين معهم يعتقدون، فإن جميع اليهود الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى، حملوا النجمة اليهودية والأوسمة التي منحت لهم في الحرب 1914 ـ 1918، وبعض اليهود قاموا بتطريز النجمة اليهودية من الحرير، كما جاء ذلك في بعض التقارير الخاصة.

وبعض الذين حملوا النجمة اليهودية لم يكونوا من اليهود، فلكي يظهروا تضامنهم مع اليهود، فقد حمل البعض ممن ليسوا يهوداً النجمة وكان يضمنها عبارات فتازية مثل Jenny أو Pa Pou بل أن أحدهم صنع حزاماً من ثماني نجمات يهودية وكل منها تحمل حرفاً من عبارة Victorre أي النصر. وفرنسية قامت برسم الصليب المسيحي فوق النجمة اليهودية، وأخرى قامت لدى مرورها بنقطة سيطرة للشرطة، إعطاء النجمة لصديقتها، وآخرين من الذين يعتبرون أنفسهم أصدقاء لليهود توجب عليهم قضاء بضعة أيام في التوقيف مقابل إظهار تضامنهم مع اليهود. (3)

نعم كان هؤلاء الفرنسيين، على الأقل في بداية الأمر، يمثلون الاستثناء فقد وصفت الصحف المتعاونة مع العدو هذه الفعاليات بأنها طبيعية وأنها نابعة من الغيظ، وأن محرقة الجثث هي للجميع بدون استثناء من الشيوخ إلى المولودين حديثاً.

وفي صحيفة بيلوري المتعاونة، كان الحديث يدور عن " عرق غير محترم، وهؤلاء هم آخر من يمثله، مع الافتراض بأنه في عام 2142، حسب ما تنعي الصهيونية، بأنه سينقرض، وذلك أفضل".

ويحاول الآن الكثير من اليهود إخفاء نجمته، إذ كان الترحيل (التسفير) إلى آوشفيتز قد بدأ وحتى 11 / يونيو ـ حزيران / 1941 كان قد رحل بحدود 22 ألف إلى 30 ألف يهودي من باريس، و26 ألف من بقية المناطق الفرنسية المحتلة، و50 ألف من المناطق غير المحتلة. (4)

وبالنسبة لكل يهودي، كما كان الألمان يسمونهم، كانوا يطلبون 14 ألف فرنك فرنسي عن كل واحد منهم عند الاستسلام، أي ما يساوي 700 مارك ألماني (في ذلك الوقت) وحكومة فيشي أعلنت أن جميع الذين تم تسليمهم هم بدون جنسية، أو أنهم يهود أجانب، ولكنها رفضت أن تساهم الشرطة الفرنسية في مناطق حكومة فيشي في اعتقال اليهود.

وتحت اسم مستعار (الريح المبكرة)، باشرت 888 مجموعة من الشرطة الفرنسية بالعمل. ففي صباح 16 / يوليو ـ تموز / 1942 بين الساعة الثالثة والرابعة فجراً، بالحركة لاعتقال 22.000 ألفا من اليهود الأجانب في باريس. وفي المساء كانوا قد اصطادوا 12,884 فرداً كان من بينهم 5802 من النساء و4051 طفل.

وكانت لدى الشرطة أوامر صارمة بأن لا يسمحوا بأي محادثة أو مناقشة مع المعتقلين، ولكن مع ذلك كان هناك قبول لرشاوٍ، من حلى ذهبية من أجل إنقاذ حياة، فقد كان هناك من الشرطة من يعاني الفقر والضنك، وبعبارة أخرى مختصرة، كانت الجملة التالية دارجة:" سنعود بعد ساعة " أو بتسريب إشارة يفهم اليهودي مغزاها، أن عليه الهروب.

ويشير تقرير ألماني، أن غالبية السكان (الفرنسيين) كانوا رافضين للنظرة العنصرية، ولكن بالمقابل كان هناك بعض الناس ممن أسمتهم الشرطة بالصيادين، الذين كانوا يخبرون الشرطة عن اليهود الهاربين، كما حدث مع السيدة أبرامسكي، وابنها اللذان انتظرا قدوم الشرطة وهي تغلق الممر مستخدمة القوة لمنع هرب اليهود من البناية.

وبعض الصحف المتعاونة مع العدو انتهجت بكل صراحة دور المبلّغ (المخبر) فصحيفة بيلوري المتعاونة، اشتكت من الذين يأوون اليهود. وأحد الخدم وشى بـ 22 شخصاً كانوا عند اليهودي رولان ماير الذي كان قد صرفه قبل يوم واحد من العمل. فأرسله إلى المعتقل وسُفّر مع 70 ألفاً من اليهود إلى غرف الغاز الألمانية.

وعندما اشتدت المطالبة كمخبرين، كيف فهم صغار النفوس هذه الحالة ؟
فقد تحول العمل كمخبر إلى دليل للوطنية، ولكن ألم يكن ذلك وسيلة لكسب المال أو النفوذ، أو لنيل المناصب، أو كونها وسيلة رخيصة لتسديد فواتير نزاعات عائلية قديمة. ألم تكن تنطوي على إجابة لسؤال " لماذا هو وليس أنا ؟ " والكثير من الفشل والإخفاق: تجّار على حافة الإفلاس، كاتب لا قرّاء له، أو رجال فاشلون، أو رجال ونساء بسطاء الذين يصعب عليهم أن يتخيلوا بأن نجاح من يتنافسون معهم قد حصل لأنهم قدموا ما يستحقون عليه النجاح، وليس من خلال الانتماء إلى عرق أو عنصر معين أو إلى حزب أو جمعية.

ومن تلك: قام خمسة أطباء من الشمال بالوشاية على طبيب يهودي روماني لقاء جائزة مالية، وأخبر طبيب يهودي من بولونيا على أحد أعضاء جمعية يهودية سرية، وقد أودى بثلاثة أطباء يهود آخرين كانوا يمارسون المهنة وهم ممنوعون من ممارستها، وأنه ذهب للعلاج لديهم وقد حصل على موعد مع اثنين منهما.(5)

وقد عرض الطبيب لورينت فيكوير في تقريره بأن عائلة ليفي التي كانت قد اختفت بعد صدور الحكم بحقها، وأنه يقوم بأعمال بيطرية بمعالجة الخيول، وإنه قد جمع حوله عشرين من اليهود، ولديهم مخزون من الأغذية للشتاء. وقد كتب فيكوير في تقريره أيضاً: " إن على العمدة أن يستخدم المعلومات لديه، وأن يقوم بمسؤولياته ".

وقد أخبر أحد حراس مقبرة بيري لاشايز عن زميله أيليا كوجل بقوله: " يهودي مئة بالمئة " . ومخبر آخر، يكتب أن يهودياً صانع للقبعات، ما يزال في ورشته يعمل بتثاقل. ويهودي آخر يكتب هكذا: هناك مصبغة (محل لتنظيف الملابس) يهودية في شارع فوريلار التي على مقربة من شارع لافاييت.

كانوا يخبرون عن اليهود، وعن أصدقاء اليهود. وقد كتب أحد المخبرين قائلاً " إنهم يكدسون الأثاث في الطابق الرابع، إن مالك الشقة السيد ن ... هو صديق حميم لليهودي بلوم، بل يؤكد بعض الناس أن الأثاث يعود له، ولكن بواب العمارة استلم علبة عليها اسم السيد ن ..." أو بلاغات مثل " إن السيدة لاليمنت بوابة العمارة تمتلك حلى ذهبية ونقود وعدد 2 غطاء سرير جميل جداً من الحرير، وهي مودعة لديها أمانة من قبل يهود قبل أن يهربوا".

وهناك بروفسور من مدينة طولون، أخبر عن يهودي هنغاري، شيوعي له صلات بالمقاومة وكان عشيقاً لزوجته، بل هو يكتب في بلاغ الإخبار هكذا :" وبدون هذه الإجراءات(أي اعتقالهم له) لا يسعني أن أتأمل بأن تؤدي زوجتي واجباتها، إن الأمر يتعلق بإنقاذ عائلة فرنسية، وإن هذا الشخص لا يكفيه بأنه يهودي، بل يسلب امرأة فرنسية من زوجها، دافعوا عن النساء الفرنسيات من اليهود، وهذه أفضل وسيلة دعائية، وكذلك تعيدون رجلاً فرنسياً إلى زوجته ".

ترى أي كراهية كانت تتملك السيد كاربنيتر الذي كان يعيش منفصلاً عن زوجته اليهودية ذات العشرين عاماً، بحيث يدعها تعتقل أمامه في الشارع، أو طبيباً فرنسياً الذي أخبر عن كنته اليهودية الشابة وتسبب باعتقالها ولاحقاً في موتها ؟... كما أن من المؤكد أن الأسباب التي دعت السيدة ماريا روزا بأن تسلم عشيقها إلى الألمان، هو أنه كان قد أخبرها في 10 / يناير ـ كانون الثاني / 1943، بأنه لا يريد الزواج منها، وفي اليوم التالي لم تجد الجندرمة أي صعوبة بإلقاء القبض عليه وبحوزته قطعة سلاح ناري، وتلك حادثة أخرى تدل على البواعث المختلطة التي كانت تدفع الناس إلى ارتكاب جريمة التعاون مع العدو، فهذه سيدة تدفع بزوجها بين يدي الألمان، لأنها لم تعد راغبة بالعيش معه، وأنها تريد أن تقيم علاقات غرامية مع ضباط الاحتلال، فوشت بزوجها على أنه يزور البطاقة التموينية. ترى كم هي الحالات التي كانت فيها نساء فرنسيات يرغبن أو يقمن فعلاً علاقات مع الضباط الألمان لتنعم فيها ومن خلالها بالأمن تحت نفوذ مطلق بقوة السلاح، ولكن مقابل كراهية واحتقار الجيران ومشاعرهم الوطنية.

وهنا مقاطع من الدعاية الوطنية المعادية للألمان:

" لقد جعلها الأعداء تنتفخ " إذ كانت السيدة مارسيل تنطر طفلاً من أحد رجال الاحتلال الألمان. وبسبب ذلك اعتقلت هذه السيدة (بعد تحرير البلاد) ونالت عقاباً بالسجن لمدة سنتين. وهناك رجلٌ نال عقوبة السجن لمدة سنتين أيضاً، لأنه كان يعمل في بيت يسكنه الألمان وأنه كان يقضي خدمته في الفراش بدل المطبخ، لذلك لقب " العاهر ".

وكان هناك أيضاً يهود مخبرون عن يهود، فهناك يهودي يدعى ليفي في باريس المنطقة الحادية عشر، وكان لا يفهم شيئاً عن آراء هتلر وملاحقته للسامية، وكان يظن بأن الألمان يفرقون بين يهود(طيبين) ويهود (سيئين)، وهو بالتالي، قام بالإخبار عن يهود مثله باعتبارهم تجار في السوق السوداء. وكتب في بلاغه :" أنقذونا من هؤلاء الناس الذين يسيؤون إلى العوائل اليهودية الشريفة " !!

وهناك، من تحول إلى مخبر ومتعاون مع العدو بسبب الأوضاع المعاشية والتموينية الصعبة، ومنهم من فعل ذلك(الخيانة العظمى) من أجل لتر حليب واحد ! وهناك مثلاً الآنسة روشا التي كانت تسعى من أجل صحة أفضل لنفسها، وكانت عاطلة عن العمل منذ عدة شهور، ولكنها حصلت على بطاقة عمل، ثم نالت بموجب ذلك بطاقة الحصول على الحليب، فمن أجل ذلك كتبت إقراراً خطياً بأنها لم تعد تنتمي إلى العنصر اليهودي، أي أنها تحولت عن ديانتها.

* * * *

في 21 / أغسطس ـ آب / 1941، حدثت الضربة الأولى ضد سلطات الاحتلال. ومن ثم توالت الضربات. ففي مدينة نانتس، قام قائد إحدى الوحدات الشيوعية المقاومة، وهو جيلبرت برو ستلاين، بقتل القائد الألماني المقدم فريتز هونز، وفي بوردو أطلق بيير ريبرية النار على رئيس الإدارة العسكرية والدكتور هانز جوتفريد رايمز، ولم تكن هاتان الشخصيتان الألمانيتان من العناصر النازية، ولم يكن لدى المواطنين الفرنسيين سبب للاستياء منهما، فقد قُتلا بالصدفة بتواجدها في مكان الضربة.

وبعد مقتل المقدم هوتز، وضعت مكافآت كبيرة للاستدلال على الفاعلين. وبناء على ذلك، فقد تلقى عمدة البلدة عدة بلاغات مع أوصاف دقيقة للشيوعي بروستلاين وأفراد جماعته. وقد تسبب ذلك في تقليص نفوذ الشيوعيين في البلدة، فقد كان إطلاق النار على الرهائن من قبل الألمان أمر مخيف. ولكن بعد التحرير صرّح أحد القادة الشيوعيين وهو ألبرت اتسولياز، وهو يرد على الكثيرين من الفرنسيين " لا بد من قتل العسكريين الألمان ولا سيما القادة منهم".

(عسكريون ألمان في المقاهي الفرنسية)

واليهود كوّنوا بأنفسهم وحدة خاصة لهم لمقاومة الألمان. وكمثال على ذلك، تسلل يهوديان، ليون باكين وإيليا فالاخ، في يوم 8 / مايو ـ أيار / 1942 إلى منزل خياط فرو يهودي، لأنه يصنع القفازات للجيش الألماني، ولكنه هذا بدأ بالصراخ بصوت عالٍ دفاعاً عن نفسه، بحيث هرع الجيران إليه لإنقاذه، وفي الممر وسلّم العمارة تعرض الرجلان إلى الضرب من اليهود وغير اليهود. وقد وجد شرطيان صعوبة في تخليص الرجلين الذين كانا ينتميان إلى المقاومة، ثم سلموهما إلى الألمان الذين أصدروا حكماً بإعدامهما رمياً بالرصاص بعد أسبوع.

وفي 23 / أغسطس ـ آب / 1041، وبعد مرور يومين على الضربة الأولى ضد المحتلين الألمان، ظهرت في كافة الصحف التي تصدر في المنطقة المحتلة من فرنسا بيان صادر عن القائد العسكري العام الفريق أوتو فون شتولب ناغل والذي جاء فيه " إن كافة الفرنسيين الذين يُعتقلون من قبل الإدارات والموظفين الألمان، يمكن اعتبارهم كرهائن "وفي حالة حدوث ضربة جديدة " وبحسب أهمية الضربة، فسوف يطلق النار على عدد من الرهائن".

(عملية تخريب قطار تقوم بها المقاومة)

وفي 29 / آب ـ أغسطس / 1941، تم الإعلان عن أولى عمليات الإعدام التي وصلت إلى ذروتها يوم 22 / أكتوبر ـ تشرين الأول / عندما أُعدم رمياً بالرصاص 48 من الرهائن كثأر على اغتيال المقدم الألماني هوتز.

وكان الألمان يختارون الضحايا من بين نزلاء المعتقلات، وتؤلف منهم ثلاث مجموعات، وكان الشيوعيون يسخّرون على الأغلب في أشغال تكسير الحجارة بالقرب من المدينة، وعندما تقع حوادث، كانوا يتقدمون بأنفسهم لاختيارهم ضمن المجموعة التي تقرر إعدامها. وكانوا يرفضون شد عيونهم عند إطلاق النار عليهم فيما كان 90 من رجال الأس أس SS الألمان يتولون إطلاق النار على الضحايا المختارين.

وفي رسالة على الشعب الفرنسي، أعلن الماريشال بيتان(رئيس حكومة فيشي) الذي كان يتلاعب بالأفكار، أنه مستعد ليقدم نفسه كرهينة وقال عبر الإذاعة:" أن خمسين فرنسيّاً دفعوا حياتهم اليوم ثمناً لمجرمين لا اسم لهم، وخمسين آخرين سيعدمون غداً إذا لم يسلم الفاعل نفسه، إن تيار الدم يسيل في فرنسا، والثمن هو مرعب لا يدفعه الفاعلين الحقيقيين، أيها الفرنسيون، إن مسؤوليتكم واضحة: فقد ألقينا السلاح، ولا يحق أن نرفعه مرة أخرى، وأن نطلق النار على الألمان في ظهورهم " .

وفي 15 / ديسمبر ـ كانون الأول / أعلن القائد العسكري الألماني، بأن مئة من الشيوعيين اليهود والفوضويين سيُعدمون رمياً بالرصاص، وحسب ما يذكر المواطن الألماني أرنست يورغن الذي ترجم العديد من رسائل الرهائن، أن هتلر كان قد أصدر أمراً في 16 / سبتمبر ـ أيلول / 1941، بإعدام 50 إلى 100 شيوعي رمياً بالرصاص مقابل كل جندي ألماني يُغتال أو يُقتل في فرنسا. (6)

كيف كان مفعول هذه العقوبات الانتقامية والتنكيل على الفرنسيين ؟

المعادين للشيوعية كان لهم رأي قدّره أحد الموظفين الإداريين في المناطق المحتلة التي يديرها الألمان في تقرير له مؤرخ في يناير ـ كانون الثاني / 1942 " الذين ما يزال لهم النشاط والفاعلية يقلّ عددهم

باستمرار بعد العقوبات الانتقامية الألمانية ". وعلى كل حال فإن الإعدامات " كان لها مفعول مؤسف لدى كافة السكان الفرنسيين " والرهائن الذين تم إعدامهم رمياً بالرصاص كانوا حوالي 500 شخص للفترة من سبتمبر - أيلول / 1941 وحتى يونيو - حزيران /1942، وكان الناس يعتبرونهم شهداء. ويضيف أحد القادة الألمان قائلاً: بأن 18 عملية إعدام في ديجون، وهذه المنطقة لم تشهد إلا أحداث بسيطة، تنعدم فيها حالياً أي فرصة للتعاون مع الألمان، وهناك عاصفة من الكراهية حلت مكانها تجاه العدو المحتل.

وفي تموز - يوليو / 1942 أعلنت حركة المقاومة بأنها " قتلت 131 من ضباط وجنود العدو، وكذلك 3 من الخونة المتعاونين " ونشرت صحيفة اللومانتيه (صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي) التي واصلت صدورها سراً، بأن لابد من تشديد النضال وقتل المزيد من العدو والخونة.

وفي أقل من سنة، تغيرت الأحوال جذرياً في المناطق المحتلة من فرنسا، وكان الشيوعيون فعلاً هم الذين سُعروا من النضال ضد المحتلين، وخلف صور الضحايا التي تحاط بحاشية سوداء للحداد في إعلانات الصحافة لم يعد الكثير من الفرنسيين يشاهدون صور الضباط القتلى من الألمان، بل وجوه الرهائن الفرنسيين الذين قُتلوا كعقوبة وثأر.

وفي شهر أبريل - نيسان / 1942، أعلن الألمان بأنهم سيقومون بإعدام 20 من الرهائن بعد كل عملية (منهم 5 في مكان العملية)، بالإضافة إلى ترحيل 500 فرد إلى مناطق أخرى. والآن فإن هذه الإجراءات لم تعد تشمل الشيوعيين واليهود فقط، بل وكذلك العناصر الآرية والمعدمين والقوادين والمجرمين.

(صورة شهيرة في أرشيف المقاومة : مناضل يبتسم ويضحك عند إعدامه)

وفي 10 / يوليو - تموز / 1942 ضاعف الألمان من عقوباتهم الانتقامية والتنكيل، والآن وبقيادة أحد كبار ضباط أس اس، قائد الشرطة كارل البرشت أوبيرغ، شمل بعقوباته أسر وعائلات الفاعلين وجعلهم مشاركين في المسؤولية، وأصبحوا مهددين بنفس العقوبات على الرغم من أنه لم يستخدم هذا التهديد بشكل ثابت، وهنا في هذه الوثيقة نجد دليلاً على روح القوة والسلطة:

1 . جميع الأقرباء من الذكور، بما في ذلك الأصهار وأبناء العم وأبناء الخالة من البالغين سن 18فما فوق، يعدّون من الرهائن ويعدمون رمياً الرصاص.
2 . جميع النساء من نفس درجة القرابة، يساقون إلى معسكرات العمل الإجباري.
3 . كافة الأطفال تحت سن 18، وكذلك النساء والرجال من الأقرباء خارج هذا التحديد

يوضعون تحت المراقبة (الحضور والتوقيع وتحديد الحركة).

في البدء اعتقد الألمان أن شيئاً من الإحباط والهبوط في المعنويات سيصيب الشعب الفرنسي من خلال تنفيذ عمليات الإعدام رمياً بالرصاص، وقد اهتم مناضلو المقاومة، ليس الشيوعيين فقط، اهتموا بأن لا تهبط معنويات الشعب وشجاعته، بل أن تتصاعد. والألمان من جهتهم كانوا عبر إعلاناتهم وبياناتهم كانوا يهدفون إلى إخافة الناس والسيطرة عليهم. والمقاومة من جهتها كانت تسعى عبر بياناتها إلى رفع معنويات الجماهير.

وكان الألمان يعلنون أسماء الذين يعدمونهم كرهائن في العمليات الانتقامية كنظرة ازدراء واحتقار، والمقاومة كانت تحيط بأسمائهم وتسبغ عليها التضحية والشرف. الألمان كانوا يدعون الناس أن يتعاونوا معهم، كمخبرين وعملاء، والمقاومة كانت تدعوهم للنضال والكفاح. (لاحظ نص ترجمة الإعلان الألماني في ختام التقرير ـ المترجم)

أمّا رجال الأمن والمخابرات الفرنسيين الذين كانوا يعملون لصالح الغستابو (جهاز الأمن والمخابرات الألمانية ـ المترجم) كانت لديهم الصلاحيات منذ أكتوبر ـ تشرين الأول / 1940 بمنح مبلغ 1000 فرنك فرنسي لقاء الإبلاغ عن كل يهودي و300 فرنك عن كل ديغولي. وكان الإبلاغ أو كشف إخفاء سلاح تقابله مكافأة تتراوح بين 5000 إلى 30،000 فرنك فرنسي .

والمخبر العادي إذا جاز التعبير، كان يُمنح أجراً منخفضاً، وبعد أن تقدم الألمان واحتلوا المناطق الغير محتلة سابقاً (منطقة حكومة فيشي)، فقد كانت المكافأة في المناطق الغير محتلة 100 فرنك على سبيل المثال في مقاطعة الألب/ مارتميز. أما كم حصلت مثلاً السيدة B عن تسليمها 22 طفلاً للألمان والذين قُتلوا فيما بعد في مستوصف مدرسة ليون ؟.. فذلك ما يتعذر حسابه !!

كانت أجرة المخبرين عالية إذا حذّر المخبر من عملية اغتيال أو تخريب، أو إذا سلّم إلى الألمان شخصاً قام بعملية. وهكذا فإن مواطناً فرنسياً حصل في التاسع من مايو ـ أيار /1942 على مبلغ قدره 100 ألف فرنك، وكان ذلك يعادل في تلك الأوقات راتب ثلاث سنوات، لأن هذا الرجل ومن خلال المعطيات التي قدّمها، مكّن الألمان من اعتقال شيوعي(إرهابي). وبعد يوم واحد على ذلك، تمكّن شاب فرنسي من المناطق المحتلة وبفضل بلاغ منه، من إحباط عملية حرف قافلة عسكرية ألمانيّة عن طريقها، فإنه بالإضافة إلى المكافأة المالية التي استلمها، نال وعداً باستثناء قريته من العقوبات التأديبية. بل وفضلاً عن ذلك فقد جرى بحث ما إذا كان ممكناً إطلاق سراح أسير حرب فرنسي جراء هذا العمل الذي اعتبرته السلطات الألمانية في غاية الإيجابية.

وبعد حوادث الاغتيال والتخريب الأولى في باريس، بدأت المكافآت تتصاعد، وأن مدير شرطة باريس دفع مرة مليون فرنك مكافأة. وبعد حادثة اغتيال المقدم هوتز من نانس رفع القائد الألماني العام فون شتولب ناغل المكافأة إلى 15 مليون فرنك. وبذلك يكون مفهوماً بأن الإبلاغيات والإخباريات حتى الأشهر الأولى من عام 1944 كانت نادراً ما تكون بتوقيع مجهول، ولكن في جميع الأحوال فإن البلاغات الألمانية لم تكن تذكر الأسماء (المخبرين والمبلّغين).

وبالمناسبة، فإن الكثير من الإخباريات كانت من اليهود. ففي السادس عشر من ديسمبر ـ كانون الأول / 1942 أبلغ أحدهم المفتش المختصّ بقضايا اليهود، عن محل اختفاء سيدة يهودية قائلاً " لأن هذه السيدة يهودية، ونحن الفرنسيون ينبغي أن نعيل عوائلنا، وأنا قد رتبت الأمر بأن أنال ما لديها من حاجات ولوازم، ولكن لا بد أن تُفحص أولاً فيما إذا كانت تملك أشياء أخرى أو أنها أخفتها لدى يهود آخرين ".

ومعماري من مدينة كوت دي آزور أرسل إلى مفتشية الشرطة قائمة تضم أسماء أكثر من 200 محل يهودي، وهو يرجو أن يتسلّم أحدها.

ولكن بالمقابل كان هناك نقد صريح لفعاليات المخبرين. وقد كتب أحد مسؤولي الإدارة بأن هذه الفعاليات قد أشاعت جوّاً لا يحتمل من الشبهات، كما تسببوا في العديد من الحالات المؤسفة. لذلك فإن الإخباريات المجهولة التوقيع سوف تُحال إلى تحقيق الشرطة لإجراء اختبارات الخطوط عليها وطبعات الأصابع.

وقد اقتنعت إدارة البريد الفرنسية عن إجراء رقابة على بريد اليهود، أو الإبلاغ عن ذلك إلى الشرطة، وبعض الناس العطوفين كانوا يحذّرون اليهود بأن إلقاء القبض سيتم بحقهم، وبعض رجال الشرطة كانوا يمتنعون من سماع أو اتخاذ إجراءات عن إخباريات بوابي العمارات.

وقد أعلن المذيع في إذاعة باريس بأن كل رسالة إخبارية مجهولة المرسل والتوقيع سوف تُقذف في سلة المهملات. وحتى الضباط الألمان ملّوا سماع مثل هذه الإخباريات. وكان القائد العسكري لمنطقة إيفرو بين 1941 وحزيران ـ يونيو / 1942، لم يعد بوسعه الاعتماد على المخبرين حتى الذين يخبرون عن مرسلي رسائل بواسطة الحمام الزاجل (من أنصار المقاومة) أو إخباريات عن حيازة معدات عسكرية، أو البلاغ عن مخازن ممنوعة.

بل أن العديد من المحاكم أدانت مخبرين، إذ توجب على أحدهم مثلاً، دفع غرامة قدرها 50 ألف فرنك لأنه قدم بلاغاً مزيفاً بأن أحدهم هارب من معتقل أسرى الحرب ومخبر آخر حكم عليه بالسجن لمدة عام واحد مع دفع غرامة 100 ألف فرنك لأنه أرسل رسالتين مغفلة التوقيع إلى القيادة العسكرية لمنطقة إيتاجس متهماً فيها جاره بإخفاء أسلحة في داره.

وإن شئنا تصديق كبير المفتشين مارسيل مانير، فإن جميع السكان من مدينة بوردو لم يعد أمرهم يهم قسم الشؤون اليهودية، فإن العقوبات قد جعلت من جميع الناس سواسية، ولم يعودوا يكترثوا لها. وبصورة غير مباشرة فقد وردت مثل هذه الأفكار في تقرير في خريف 1943 وجاء فيه : " أن سكان مقاطعة جيروندا يُظهرون روح العداء لليهود مع بدء الإجراءات ضد المواطنين اليهود، ولكن الشطط والوحشية غيّرت من هذا الشعور ".

في الرابع والعشرين /نوفمبر 1940، كان 70 يهودي بولوني متواجدين في المدينة الصغيرة شلايس، حيث استقبلهم السكان هناك بأقل قدر من التعاطف، وعندما ساقتهم الجندرمة في 14 / مارس ـ آذار / 1942 إلى معتقل بالقرب من بويترز، ومنها أرسل معظمهم إلى الموت، أظهر الكثير من سكان المدينة الارتياح وكان السبب لدى القليل منهم هو لكونهم من اليهود، والأغلبية كانوا لا يرتاحون لهم لأنهم غرباء، وإلى لغتهم وتصرفاتهم. (7)

وفي عام 1942 يصف عمدة نوارتابل المسافرين المارين من بلده من اليهود :" فظيع حقاً ... إنهم يمرون عبر البلاد ويشترون كل شيء وبأي سعر كان ". وكان الكثيرون من اليهود قد فرّوا على المنطقة غير المحتلة من فرنسا(منطقة حكومة فيشي)، لا سيما بعد حملة التحري والتفتيش عام 1942، واستقروا في القرى القريبة من الحدود الإسبانية، ويكتب أحد سكان القرية:" كان يأتي 50 منهم على الأقل يومياً، ليس أكثر، ويشترون كل شيء حتى بأغلى الأسعار ".

وكان أقسى صدام بين السكان المحليين واليهود هو ما حدث في مدينة كوت دي آزور ولا سيما في منطقة ينزا. ورحل كثير من اليهود إلى مدينة مرسيليا بعد هزيمة الفرنسيين في الحرب، وبعد فترة قصيرة كانت حالة المواد الغذائية قد وصلت إلى حد النفاذ، وكانت حصة الفرد الواحد هي 50 غرام من الزبد و50

غرام من الجبن فقط في الشهر الواحد، هكذا يكتب أحد سكان بلدة ينزار في سبتمبر ـ أيلول / 1941، واختفت الفواكه تماماً من الأسواق، وكانت النسوة يتضاربن فيما بينهن من أجل القليل من الطماطم والبطيخ الأحمر.

وكسبب لقلة الغذاء يقول أحد الكتاب: " إن الجفاف التقليدي، وكذلك كسل الناس هنا سبب، ولكن السبب الرئيسي هو ما يفعله هنا الغرباء اليهود الذين حلّوا هنا، وتوزّعوا على القرى الجبلية في المنطقة والذين أخلوا بتوازن الإنتاج يمارسون الاحتيال في السوق السوداء، بل أنهم يشعلون السوق السوداء بأسعارهم العالية ويبعثون بها إلى جماعتهم اليهود في القرى الساحلية.

* * * *

لم تبعث الإجراءات المعادية للسامية لدى الأوساط الروحية القيادية أي مقاومة لهذا الاتجاه، ولم يكتب سوى القليل وبشكل سيء عن طبيعة النازية، بل أن أحبار الكنيسة اعترفوا صراحة بحق الدولة اتخاذ هذه الإجراءات. (8)

فكتب أسقف كنيسة مرسيليا بتاريخ 6 / سبتمبر ـ أيلول / 1941 " إننا نعلم جيداً جداً أن المسألة اليهودية تتسبّب في مشاكل وطنية ودولية صعبة، إننا نعترف أن بلادنا لها الحق أن تتخذ كافة الإجراءات ضد هؤلاء الذين التجؤوا إليها بصورة تفوق المعتاد ".

ولكن الكنيسة الكاثوليكية وأيضاً البروتستانتية قامت ببعض المبادرات الشخصية والتي كانت بدون شك تعبّر بالدرجة الأولى عن الرحمة المسيحية. ولكن سرعان ما حصلت على صبغة سياسية. وبعد أن أقرت القوانين الفرنسية بتاريخ 2 / يونيو ـ حزيران / 1941، التي تنص على: " إن عدم الانتماء إلى الديانة اليهودية من خلال الانتماء إلى دين أو معتقد آخر يمكن إثباته " تسببت هذه الفقرة في تسابق لصيد المنتمين الجدد.

وقد احتفل القس بيتزيل راعي أبريشية سانت ايتان دومونت في باريس في أكتوبر ـ تشرين الثاني / 1943 بإقامة المعمودية 100 شخص انتمى إلى المسيحية (هرباً من الملاحقة بتهمة اليهودية) والمئات من القساوسة كانوا كرماء، بحيث أن مدير قسم اليهود في الشرطة سرعان ما سيعتمد الشهادة التي يمنحها السقف بأن حاملها معترف به كإنسان محترم.

وبسبب طيبة القلب والرحمة، فقد بعض القساوسة ببساطة وسذاجة القدرة على الرؤية الدقيقة للأشياء، وهكذا فمن بين الآلاف من المعتنقين الجدد للمسيحية (حوالي: 1810 ـ 1820) لم يستمر على الدين الجديد سوى عشرات منهم والباقين كانوا مزيفين.

(الصورة : إعدام رهائن)

وبالنسبة إلى موظفي الإدارة، كان من السهل إثبات أن عدد اليهود في المقاطعة لم يكن يزيد عددهم على سبعة أفراد. وأصدر الألمان حكماً على اثنين من القساوسة الذين كانوا يمنحون شهادات مزورة بالسجن لمدة 24 شهراً في المحاكم الفرنسية.

والكنيسة كانت تعلم جيداً بأن هذه الموجة من الانتساب إلى الكاثوليكية، إنما كانت للتخلص من الملاحقة فحسب. وعلى الرغم من ذلك، فإنها كانت تقيم دروس تعليم الدين لمدة 6 أشهر، أو سنة واحدة. وكانت ستة أشهر كافية لشخص يريد حقاً دخول المسيحية، أما بالنسبة لمن يريد استخدام ذلك لخداع الجستابو، فإن هذه الشهور الستة تكون قاتلة له، وذلك ما كان يحصل غالباً.

والكثير من اليهود الفرنسيين الذين كانوا قد هربوا إلى المنطقة غير المحتلة من الألمان (القطاع الذي تديره حكومة فيشي) ظلّوا بعيدين عن الإجراءات المعادية لليهود لأن حكومة فيشي لم تكن ضد أن يباد اليهود كأفراد، ولكنها كانت تمارس التأثير على الرأي العام لإعاقة ذلك.

وهكذا كانت حكومة فيشي بالنسبة ليهود المناطق المحتلة، الأمل الأخير. والمنطقة الحرة (منطقة فيشي) كانت تعني لهم الأمان، هكذا يقول الحاخام اليهودي فيليب أيرلانكر الذي كان أحد مؤيدي حكومة فيشي بالطبع، ولكنه استطاع الهرب قبل أن يصل الألمان إلى مرسيليا بتسعة أيام، وبحثهم عنه.

ولكن كل شيء تغيّر عندما احتل الألمان والإيطاليون في 11 / نوفمبر ـ تشرين الثاني / 1942 أخيراً ما تبقى من فرنسا التي كانت تحت إدارة فيشي.

* * * *

إعلان إلى :

المجرمين الجبناء الذين يعملون كمرتزقة لصالح إنكلترا وموسكو. إن المجرم الذي أطلق النار من الخلف على القائد العسكري لمدينة نانس في يوم 20 / أكتوبر ـ تشرين الأول / 1941
لم يلقِ القبض عليه لحد الآن.
وكتكفير عن هذا الإجرام، قررت الإعدام رمياً بالرصاص لـ 50 من الرهائن:
إذا لم يسلّم الفاعل نفسه في مجرى ساعات يوم 23 / أكتوبر / 1941، فإن الإعدام رمياً بالرصاص سيكون من نصيب 50 آخرين من الرهائن.
إلى جميع السكان الذين يساهمون في إلقاء القبض على الفاعل، فإني سأدفع مبلغاً قدره :

15 مليون فرنك

ولكل إبلاغ يدل على الإخلاص سيتخذ كل مركز شرطة ألماني أو فرنسي الإجراء اللازم

باريس 21 / أكتوبر / 1941
القائد العسكري العام في فرنسا
الفريق شتولب فون ناغل

* * * * * * * * *

تحليل المترجم للفصل الثاني :

الفصل الثاني مكرّس لبدايات المقاومة، يستعرض المؤلف الظروف السياسية والاجتماعية / الاقتصادية التي قادت جزء غير بسيط من الفرنسيين للتعاون مع الاحتلال لأسباب شتّى، في مقدمتها عاملان رئيسيان : * الخوف من سطوة المحتلين. * الإغراء المادي.

المحتلون كانوا يضربون بوحشية وبلا رحمة، من السجن والتعذيب وحتى الإعدام، لمن يخالف أوامرهم وتعليماتهم. وكانوا يكافئون من يقف لجانبهم، والأفضل أن يساعد أجهزتهم، فينال المساعدات على شكل : مكافآت نقدية سخية، ترقيات وظيفية، الأولوية في المهن والعمل، وترجيح في التقدم على غيره.

ومن الواضح أن العناصر في هذين المجالين، هم ضعاف الناس، ومنحطّي الشخصية الاجتماعية والسياسية، وسلطات الاحتلال وأجهزتها مدربون تدريباً ممتازاً وكانوا يكتشفون ضعاف النفوس بسرعة وسهولة ويوقعوهم في شباكهم بيسر، لأن أفراد هذه الفئة مهيئة ذاتياً للسقوط، والخائفون ساقطون من الداخل مستعدون للعمل بإشارة، والصنف الثاني المحب للمال وصعود السلم بسرعة ودون استحقاق، ونيل المراتب والدرجات دون كفاءة، وهكذا يندر أن يتعاون مع المحتل شخصية محترمة.

وهناك صنف آخر من المتعاونيين، وهو في كل الأحوال يوضع في عداد المتعاون، الخيانة في درجتها العظمى، وهم المتعاونون العقائديون، الذي تتفق توجهاتهم العقائدية / السياسية / النظرية / الدينية مع المحتل، فيتعاون معه في احتلال البلاد أولاً، ثم يساعده على الاستقرار فيها، ومن ثم يكون عوناً له في قمع مقاومة أهل البلاد للمحتل، فهو بنظر سلطات الاحتلال متعاون ممتاز، وبنظر أهل البلاد كالذي سقطت عنه صفة الوطنية، والناس يخشونهم ويعاملونهم تعامل المحتل.

قرأت مرة في مذكرات ديغول ما معناه : أن الاحتلال يخلف الفساد، ورغم أني تمعنت بالكلمة، ولكننا ندرك اليوم سواء بمطالعاتنا، أو بمشاهداتنا كم دقيقة هذه الجملة، وجوهر المسألة أن الاحتلال عار، عار على من يقوم به، وعار على من يتعاون معه، وعار على من يتحمله دون أن يثور عليه، ومن يقبل عاراً بدرجة الخيانة العظمى، فما هي قيمة رزمة أوراق سيان كم تبلغ قيمتها ..؟

الاحتلال والمتعاون، المخبر، لغة واطئة، كالمصطلحات التي تدور في البارات الواطئة، والمواخير ....

هوامش الفصل الثاني :

1 . بيتان، فيليب 1856 - 1951: ماريشال، بطل الدفاع عن فردان /1910 خلال الحرب العالمية الأولى، عقد بيتان صلحاً مهيناً مع الألمان ونقل العاصمة فيشي. وكان قد وقّع الهدنة مع الألمان في 22/ يونيو - حزيران / 1940، حكم عليه فيما بعد بالإعدام ثم خُفف بسبب كبر سنه وماضيه الوطني، ومات في السجن. المترجم

2 . التعاون مع العدو collarantion ، لها لفظة خاصة في اللغة الإنكليزية والألمانية، وهي كلمة أسوأ من كلمة خائن أو جاسوس، وقى الله شعبنا شر المتعاونين. المترجم

3 . لا شك أن الإرهاب النازي في أوربا ضد اليهود أو غيرهم خلق حالة من التعاطف بين السكان، كما خلق حالات أخرى من الكره والعداء. المترجم

4 . آوشفيتز : أحد أشهر المعتقلات النازية ويقع في بولونيا . المترجم

5 . إذن فهناك يهود يشون ببعضهم، وأن الأمر لا يتعلق فقط بضعف شخصية وانحطاط المرء ليتحول إلى مخبر، ولكن هناك وكما قال الجنرال ديغول : حقاً أن الإرهاب يخلق التفسخ. فالإرهاب وهذه الأمثلة هنا خير دليل. فالإرهاب أي إرهاب ! يفسخ الإنسان ويجعله قابلاً لفعل أي شيء.

6 . الفوضويون: Anarchism جناح انشق عن الماركسية بقيادة باكونين، وكان هذا الجناح يعتمد العنف في مواجهة الدولة. وقد ازدهر هذا التيار في إسبانيا وفرنسا في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. المترجم

7 . يتحدث يهود أوربا عدا لغات الدول التي يعيشون فيها، لغة اليديش، وهي خليط بين لغات عديدة أهمها : الألمانية والسلافية والعبرية وغيرها. المترجم

8 . المقصود بالأوساط الروحية: الأوساط القيادية في الكنيسة الفرنسية. المترجم

الفصل الثالث : الشعب ينخرط في المقاومة

في شباط 1943 اعتبر كافة الفرنسيين البالغين ملزمين بأداء ما أطلق عليه : الخدمة الإلزامية للعمل " Service du Travail Obligatoire "(STO) للعمل الإجباري في ألمانيا، وبهذا ابتدأت مرحلة جديدة في التطور السياسي، والنفسي في فرنسا. تفوق ملاحقة اليهود والشيوعيين، وأثرت هذه الملاحقات والإجراءات مئات الألوف من العائلات الفرنسية حتى آخر قرية في فرنسا ، وهذه قادت إلى مقاومة كافة الإجراءات، بما في ذلك تلك التي كانت تنطوي على خطورة لألمانيا.

بضغوط من فرتز ساوكل، الجنرال المطلق الصلاحيات من هتلر لتوفير القوة العاملة، وكانت الحكومة الفرنسية ملزمة دائماً بتوفير المزيد من القوى العاملة، من المصانع ومن الريف، والطلاب، وموظفين، وكسبة. ومن يمتنع عن السوق للعمل الإجباري (السخرة) لا يمكنه الحصول على فرصة عمل رسمية في فرنسا، وبدون ورقة العمل وبموجب تعليمات صدرت مطلع عام 1943، سوف لن يحصل أيضاً على الوجبات التموينية، وبهذا لم يعد بوسع الفرنسيين التجول بحرية، وبهذا نشطت أيضاً السوق السوداء وخاصة للمواد الغذائية المعيشية، ولكن صعوبة الحركة كانت قاسية لدرجة لم يعد بوسع الناس الذهاب إلى دائرة البريد. (1)

" وضد تواطؤ الشباب ومحاولاتهم الهروب من سحبهم لخدمة العمل الإجبارية (السخرة) " قررت حكومة فيشي أن يعاقب المتهرب بدفع غرامة قدرها 100,000 ألف فرنك فرنسي بل وتعاقب حتى أسرة المتهرب. والألمان من جهتهم اتخذوا الإجراءات الأكثر صرامة، فكانوا ينظمون الغارات وحملات التفتيش، ففي 19 / شباط / 1943، اعتقل البوليس الألماني في مدينة ليون، 20 من الرجال بتهم غذائية، وفي 1 / مارس اعتقلوا حوالي 300 رجل، الذين كانوا في الساعة السابعة مساء في بلدة بضواحي ليون، وبعد أربع ساعات فقط، سُفّروا إلى ألمانيا.

ولكن ليس كل المسفّرين إلى ألمانيا للعمل الإلزامي (السخرة) وصلوا ألمانيا بالفعل، فحيثما لم تكن هناك محطات القطار محروسة من الشرطة الألمانية، كان المسفّرون ينزلون من القطار ويهربون، ولم يبق من 300 مسفّر للعمل، سوى 8 أفراد فقط سفّروا للعمل في المصانع الألمانية. وبحسب ما تذكره صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي " اللومانتية " (L; Humanite) فإن 50 رجل من هؤلاء أعيد اعتقالهم في بيوتهم.

الكثير من الممتنعين، كانوا يعتمدون على مساعدات الإدارة الفرنسية، التي كانت مساهمة. في باريس كان مفتش العمل العام، جان أيسيولاري استفاد من الثغرات الموجودة في القانون، وسعى في محاكم الاستئناف، التي سمحت بكثير من حالات الاستثناء، وبعد نهاية الحرب، ظهر أن 13642 من الملفات التي تم الحفظ عليها الذين كانوا قد فرّوا من خدمة السخرة الإلزامية، كما كان عدد 100,000 نالوا الإعفاءات من عمل السخرة، والألمان كانوا ساخطين لهذه المقاومة السلبية من موظفي الإدارات، فأحالوا 21 من موظفي وزارة العمل على التقاعد.

في المحافظات، وخاصة غرونوبل دمّر الموظفون قسم من ملفات العمل الإلزامي. وفي باريس، أحرقت مجموعة من المقاومين في شباط / 1944 حوالي 200.000 من كارتات التسجيل، وساهم الأطباء في التخريب الإداري أيضاً، وبحسب التعليمات التي أصدرها الألمان، تمكّن بعض العاملين الشجعان في المجال الطبي من إعفاء عدد كبير من الشبان من العمل الإلزامي (السخرة). وفي هذا استغل الأطباء الفرنسيين، خوف الألمان من الأمراض المعدية، وتواصلت تداعيات هذه حتى بعد الحرب، فقد حدث

لأحد الأطباء أن أصدر وثيقة بأن رجلاً مصاباً بمرض زهري (سفلس) وزوجة الرجل اكتشفت الوثيقة، ولم تصدق إلا بعد عدة شهادات من عدة مختبرات، وكادت القضية أن تصل إلى المحاكم.

ولكن كانت هناك إدارات، تعمل بدقة وضبط، وترسل من عمال السخرة أكثر مما هو يطالب الألمان أنفسهم، وكانوا يرسلون الشبان الذين قد حصلوا على إعفاءات وبعض الأحيان عن طريق رشوة الألمان، وفي حالة ما امتنع هؤلاء من مغادرة فرنسا، فليس سوى فرصة واحدة للبقاء على قيد الحياة، "تحت الأرض" هي الاختفاء التام.

" اذا طالبنا ساوكل (مدير عام التشغيل الألماني)، 500.000 رجل " يقول الشاعر الفرنسي المتعاون، روبرت براسيلاش في رسالة يكتبها لصديق له : فهذا يعني أن 499.000 منهم من عصابات المقاومة. وبالطبع هذه مبالغة كبيرة من الشاعر. ورغم إجراءات الألمان والمتعاونين، فإن أعداد الممتنعين عن العمل الإجباري (السخرة) كان في ارتفاع دائم. (2)

وحتى شهر نيسان وأيار 1943 كان 20 - 25 % من الفرنسيين المطلوبين للخدمة الإلزامية (سخرة) قد امتنعوا، وهذه النسبة كانت تتصاعد حتى بلغت 50 – 70% وبعض الأحيان أكثر من ذلك. وفي دائرة لوت، لم يتقدم سوى خمسة أفراد من مجموع 200 شخص مطلوبين للخدمة، وفي شارلفيل لم يراجع أي فرد من مجموع 65 فرداً من المطلوبين.

إلا أن في الأيام التي سبقت إنزال الحلفاء في نورماندي في 5 / حزيران / 1944 وكان التحاق الشباب بالآلاف إلى المقاومة قد تكاثف لدرجة كبيرة خاصة في الأدغال والغابات والجبال في الجنوب والوسط، والتحقوا بمجاميع الشبان هناك.

كم كان عددهم هناك ..؟
في البداية كان عددهم قليل جداً، خمسة في بداية عام 1943 في منطقة ماكويز، وفي محافظة نيفره 3 مقاومين. وفي بداية عام 1944 بلغ عدد المقاومين في ماكويز في 12 مقاوم، وفي منطقة قريبة منها 22، وأخرى تابعة لماكويز 17 مقاوم.

ولكن كان هناك الكثير من المواطنين يساعدون المقاومة، وهكذا كان أسكافي بالقرب من فيغنال يوفر الطعام لكي يعطيه لهم، كما صنع لهم أحذية قوية، والطحان مولر ليو رويار كان يطعم يومياً 12 من الممتنعين على عمل السخرة، وكذلك كان خبّاز يقوم بذات الشيء، وجزّار وهؤلاء كانوا يساعدونهم دون مقابل.

في أنحاء بلدة نيفره، التابعة لكوريزر، كانت هناك عائلة مونيحر وهو صاحب كراج، الذي كان يزود المقاومين في ماكويز، وكان كل يومين يقوم بجولة حتى يصل إلى ماكويز. وعندما راقبته الشرطة السرية الألمانية (الغستابو)، أخذت زوجته وجبة المساعدات الغذائية، ثم بعد ذلك ابنته سوزان، وأخيراً ابنته بيروت، التي كانت تأخذ المساعدات بدراجتها، أو تضعها في حقيبة ظهر.

وفعلاً كان تقريباً جميع الفلاحين الفرنسيين في المناطق المحتلة من الألمان مؤيدين للمقاومة، وحتى ضد حكام منطقة فيشي (المناطق غير المحتلة تحت الإدارة الفرنسية) رغم أنهم كانوا يستثنون الماريشال بيتان من الاحتقار، كانوا يساعدون المقاومين، وكلما زاد عدد المقاومين، كانت المساعدة تصعب أكثر، كما كانت تشكّل وعورة الطريق مشكلة أخرى.

في الأيام الأخيرة من أيلول 1943 قتل رئيس بلدية بلدة أوسنباري من قبل اثنين من الشباب (قتل في باريس) ممن يعملون في السوق السوداء للغذاء. وفي 23 / تشرين الأول، في خلال دقائق معدودة جرى تبديل 70,000 ألف بطاقة من مركز تقنين، نوغين سور مارنا، وكنتيجة للتعاون مع المقاومين، قتلت آنسة وعضو تعاونية في قرية ثلاثة من الشبان، أحدهم كان يرتدي ثياب بوليس، بصلية من مسدس رشاش (غدارة).

صاحبة مقهى متواضع في منطقة مايسون، قُتلت أمام أنظار شقيقتها، من قبل عشر شبان، توقف اثنان من المقاومين أمام محل يبيع الأغذية (وجبات سريعة)، وبعد أن أخذوا طعامهم أطلقوا النار على صاحب الكشك.

" لصوص جبناء، " قتلة مشعلي حرائق " كتبت اللومانتية جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي، " الذين كانوا مع بيتان والخائن لافال (رئيس وزراء حكومة بيتان) الذين يقبعون تحت سقف واحد، يريدون أن يسيؤوا إلى سمعة المقاومين الأبطال "، أما إذاعة لندن فقد علقت في شهر كانون الأول / 1943، أنه إلى جانب أبطال ووطنيين حقيقين، هناك " عناصر مشبوهة " و" خرفان سود".(3)

وفي ذلك الوقت، لم يكن اسم ماوتسي تونغ يعني لهم شيئاً (غير معروف)، ولكن بعض المقاومين من ماكويز، لاحظوا وقرّروا أنّ عليهم العمل والحركة بسرعة بين المواطنين كالسمك في الماء. ولذلك واجهوا العناصر المشبوهة، بعد أن اشتكى تاجر من شاسينويل من أفعالهم. بأن أحد المقاومين من ماكويز قد سرق ساعته واتهم أحد المقاومين، فما كان من رئيس نلك المجموعة إلا أن أخذ معه اثنان من المسلحين بالرشاشات، وواجه تلك العناصر المشبوهة التي تزعم أنها من المقاومة، وطالبهم بأن يظهر سارق الساعة، أو أنهم سيطلقون النار على كافة أفراد العصابة المشبوهة، وعلى الفور ظهر اللصّ، وسلّم الساعة للمقاومة الذين أعادوها إلى صاحبها. (4)
في الحديث عن مقاومة مسلّحة ضد الاحتلال الألماني لفرنسا، حتى عام 1943، لم يكن إلا القليل جداً من المقاومة بالسلاح، وكان لهذا أسبابه : كان المقاومين الماكويز يقاتلون في المقام الأول من أجل المواد الغذائية والمأوى، والأسلحة كانت نادرة للغاية. وقيادات المقاومة لدى اجتماعها في تشرين الأول / 1943 وجرى التباحث على قضايا التسليح للمجموعات في المناطق الغير محتلة (منطقة حكومة فيشي)، وكان مستوى التسليح كما يلي:

المنطقة الثانية : (مرسيليا و6 مناطق تابعة لها): عدد 2 رشاش خفيف (MG) مع 151 بندقية وأربعة ـ خمسة صناديق قنابل يدوية (رمانات).
المنطقة الثالثة : (مونبليه و 7 مناطق تابعة لها) : 655 مقاوم ماكويزر، كلّ منهم مسلح بمسدس رشاش (غدارة)، وعدد 40 رشاش خفيف (MG)، ورشاش ثقيل، ولكن بدون عتاد.
المنطقة الرابعة : (تولوز و7 مناطق تابعة لها) 1295 مقاوم ماكويزر، يمتلكون 254 بندقية، و13 مسدس رشاش (غدارة) و50 مسدس،ورشاش خفيف (هوشكيس) مع عتاد قليل.
المنطقة الخامسة : (ليموز و4 مناطق تابعة لها) وبفضل إمداد السلاح بواسطة القذف بالمظلات من طائرات الحلفاء، وكان هناك 3310 مقاوم ماكويزر بحوزتهم 200 مسدس رشاش، بالإضافة إلى 50 رشاش خفيف(MG) ، و400 بندقية، و300 قنبلة يدوية، و 100 قنبلة حارقة، و300 مسدس، وكمية كبيرة من المتفجرات.
المنطقة السادسة : (كليرمون فيران مع 4 مناطق تابعة لها) 1301 مقاوم، مع بعض المسدسات الرشاشة (غدارات)، والكثير من المتفجرات.
المنطقة الأولى : (ليون وأرجاءها 6189 مقاوم ماكويز) 6180 مقاوم، لا يمكن تحديد تسليحهم، لأن المسؤول لم يكن بوسعه حضور الاجتماع.

وفي عموم المنطقة الجنوبية بأقسامها الـ 37 كان يتواجد في تشرين الأول / 1943 ما مجموعه 14639 مقاوم ماكويزر، قليل من الأفراد وقليل من السلاح، بما في ذلك لو أحسبنا الـ 5000 مقاوم من الحزب الشيوعي بينهم، فسوف لن يكون تعداد حركة المقاومة الفرنسية في هذه المرحلة إلا بنحو 20 ألف مقاتل. (5)

وقد تحدّث ممثلين عن حكومة فيشي (حكومة بيتان)، وكذلك الألمان، وممثلين عن المقاومين الماكويز، تحدثوا عن جهل أو كدعاية، عن المبالغة والأرقام الكبيرة، ووحدها هضبة ميليفاشيس كما تقدّر حكومة فيشي، كانت تضم نحو 10 آلاف رجل مقاتل، " يتلقون يومياً السلاح والعتاد بواسطة مظلات من الطائرات البريطانية ". وأكد وزير الأمن الإمبراطوري الألماني أرنست كلينبرونر، يوم 4 / تموز / 1943 في تقرير أرسله لهتلر،أن مجموع قوة المقاومة الفرنسية المناهضة للاحتلال الألماني لفرنسا تبلغ 80 ألف رجل.

(طائرات الحلفاء تقذف السلاح للمقاومة بالمظلات)

وأكثر من ذلك، ذهب المقدم فاليت دي أوسيا الذي أبلغ ديغول، أن الأقسام المتاخمة لسويسرا (الحدود الفرنسية / السويسرية) أن هناك 300 ألف رجل جاهز ومستعد للقتال تحت شعار حكومة فرنسا الحرة (الصليب اللوثري)، إذا وصلتهم الأسلحة المناسبة، وهذا هو ما كان ينقص المقاومة الفرنسية. (6)

" ومن بين 2000 رجل فقدتهم المقاومة منذ أيلول / 1943" يكتب القائد المقاوم ميشيل براولت في تقرير مؤرخ 16 / شباط / 1944 (قبل أربعة شهور ونصف من تحرير فرنسا).

كان التوتر والاضطراب قد أصاب جيش الاحتلال الألماني بسبب الاغتيالات، التي لم تكن في الواقع مرتفعة،(19 بين 1 / آب و31 تشرين الثاني / 1943) في إطار منطقة عمل مجموعة الجيوش 74 ، التي كانت تعتبر اغتيال أي منتسب للجيش الألماني، أو من القوات الفرنسية المحلية المتعاونة معها، أمراً له عواقبه، والأبعد من ذلك، موقف الفرنسيين عامة، الذين بدؤوا يتعاطفون بوضوح مع المقاومة.

وكانت أهداف المقاومة وعملياتها في هذه المرحلة تستهدف معدات الجيش الألماني أكثر من ضباطه وجنوده وأيضاً كانت عمليات قطع الخطوط الهاتفية مهمة، وخطوط السكك الحديدية.

وكتبت اللومانتيه (صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي)، أن قطاراً يحمل مجازين بين رينز ونويال أيسيغنه، قد خرج عن خطه في 10 / تموز، واصطدم به قطار تابع للقوات جاء في ذلك الوقت. والنتائج كانت : تدمير قطارين، 200 قتيل، 300 جريح، ولكن بموجب متحدث باسم الجيش السابع يوم 10 / تموز، اعترف بوقوع الحادث ولكن أعطى نتائج مختلفة، 8 قتلى، 30 جروحهم خطيرة في قطار المجازين، و50 جروحهم خفيفة في قطار القوات، إذن كانت أرقام صحيفة اللومانتيه، مضاعفة، ولم تكن هذه المرة الوحيدة التي تضاعف فيها المقاومة من أرقام خسائر عدوها.
(تخريب سكة حديد، العملية المفضلة للمقاومة)

في تموز / 1943 كان 36.000 شاب فرنسي قد اقتيد للعمل الإجباري في ألمانيا، وهذا الرقم هو أقل بكثير مما طلبه مدير عام العمل الألماني ساوكل (المار ذكره) وهو 160.000 إلى 180.000، وبهذا يمكن اعتبار برنامج العمل الإجباري للشباب الفرنسي في ألمانيا قد فشل، ولكن الألمان لم يسلموا بهذه النتيجة، فاتفقوا مع الطرف الفرنسي (المتعاون) أن يتم العمل الإجباري ولكن في فرنسا بدلاً من ألمانيا !...

وعقد كل من ألبرت سبير وزير الصناعات العسكرية الألماني اتفاقاً مع جان بيلشوني وزير الصناعة الفرنسي , بأن يقوم عمال فرنسيون من نحو 150 ألف شركة في فرنسا بصناعة (إنتاج) سلعٍ للاستخدام اليومي في ألمانيا , وفي الواقع فإن الشركات الألمانية المنتجة لهذه السلع ستتوجه للإنتاج الحربي , وأن العمال الفرنسيين المكلفين بهذه الأعمال سيكونون في مصانعهم الفرنسية كعمال سخرة (عمل إجباري) , ولكن العمل سيكون لصالح ألمانيا في خارج ألمانيا, و يعني للكثير من الشباب أن يلجؤوا للعمل الكفاحي السرّي , وهذه السياسة أدّت إلى اشتداد النضال المسلّح المقاوم وجلبت لصالح المقاومة الكثير من الناس .

السياسة الجديدة سحبت من المقاومين أعداداً ليست قليلة من عناصرهم، هل كانت هذه فرصة لألمانيا ؟ ولكن هذا كان متأخراً.. وما كان في العام 1940 مجرد حلم من الأحلام، يلوح الآن في الأفق: نصر الحلفاء وهزيمة لخصم قوي هو ألمانيا.

في الأسابيع الأولى من عام 1944، مضى المحتلون الألمان إلى اتخاذ إجراءات انتقامية لمن اعتبروهم رهائن من سكان المدن والقرى، ويقتادونهم إلى أماكن مختلفة- لأنهم لم يتمكنوا من ترويض المقاومين، وفي آذار / 1944 جرى في نلمس للمرة الأولى هذا الأسلوب، الذي طبقوه في روسيا منذ زمن بعيد، إعدام مدنيين غير مشاركين في أعمال المقاومة.

عندما كان هنري نوغور يقود دراجته عبر شوارع نلم (Nlmes) ، اكتشف ستة جثث معلقة من على حاجز جسر لسكة الحديد: " وكلما تمر سيارة من تحت الجسر، ترتطم بأقدام المعلقين، القليل من المارة عندما يشاهدون هذا المنظر يهرعون بعيداً ولا يجرؤون على النظر عالياً إليهم ,,.

وحادثة أخرى عرّضت منطقة كاملة إلى الاضطراب جرت في ليلة 1 /2 نيسان / 1944، إذ تعرّض قطار محمّل بـ 400 رجل من قوات (SS) ومحمل أيضاً بـ 60 دبابة وعربات، تعرض لتفجير في محطة قطار بلدة آسك (Ascq) . والأضرار كانت: العربات أصيبت بأضرار لكن يمكن إصلاحها في غضون ساعات، إطارين للسيارات وأجزاء من محرك، دون إصابة أي جندي.

والمقاومين كانوا غير حذرين وتصرفوا بإهمال، وهذا ما كان يكلفهم حياتهم. وكان رد فعل الألمان على عملياتهم وحشياً، ولا سيما من هؤلاء الجنود المعتادين على مثل ردود الأفعال هذه ضد الفدائيين في الاتحاد السوفيتي.

مجموعة صغيرة من رجال (SS) كانوا يمرون من خلال بلدة، يضربون على الأبواب والنوافذ، ونهبوا 25 منزلاً، وقتلوا قسيساً واثنين من اللاجئين، كما جاؤوا بمساعد القسيس وخمسة من مرافقيهم، ثم اقتادوا حوالي 80 من سكان البلدة الذين ما يزال النعاس في عيونهم، وأطلقوا عليهم النار من مسافة قريبة، وعندما جاءت عربات الإسعاف، أحصى الممرضون 86 جثة و8 جرحى.

هل حصل الألمان على راحتهم بالانتقام ..؟ في بعض الحالات نعم، على الأقل لفترة محدودة، فيما إذا كانوا قد تمكنوا من إضعاف المقاومة، فهذه مسألة أخرى، المقاومة كانت قد ترسخت بصلابة في وسط وجنوب غرب فرنسا.

الطبيب البيطري (م) الذي تم إرساله إلى بلدة كوريز لمراقبة الإنتاج في مصانع تعليب اللحوم بتاريخ 31 / أيار / 1944 كتب يقول: " في الساعة 18 (السادسة عصراً) كنت في المصنع والمدير أخبرني أن ليس بوسعه أن يضمن سلامة الإنتاج، لأن المقاومين يسيطرون على بيته ومخزنه وهو قد أصبح هدفاً لعمليات سطو مسلحة، وخاصة المواد الغذائية، وقد تم الاستيلاء عليها وبما في ذلك أيضاً حاجات شخصية أخرى ".

" في الساعة 23 (11 ليلاً) احتل فصيل من المقاومة (منظمة شيوعية للمقاومة FIT) المدينة وابتدؤوا كالعادة، بعمليات الإعدام، والمصادرة ,, بعدها هاجم المقاومون باب المصنع وطالبوا بسيارة شحن كانت معبأة بالإنتاج (لحوم). وفي اليوم في فترة بعد الظهيرة التالي أردت أن أذهب بسيارتي إلى بلدة أخرى ولكن بعد عشرة كيلومترات صادفت المقاومين الشيوعيين FIT، واستولوا على السيارة، كما ألقوا القبض على السائق. وفي المساء أردت أن أقوم ببعض التحصينات، ولكن فاجأنا هجوم للمقاومين، ولكن الأضرار لم تكن كبيرة ".

في عام المعارك الحاسمة (1944) كانت المقاومة قد أصبحت عنصراً سياسياً، وكان يبدو جلياً أن الشيوعيين يؤيدون شارل ديغول في لندن، وكانت وحداتهم العسكرية المقاومة، في الخط الأمامي يقودون العمليات العسكرية ضد الجيش الألماني، ويتلقون الدعم الإعلامي من لندن، فيما كان ديغول والإنكليز يهتمون قبل كل شيء بدور المقاومة، في يوم (X) وهو اليوم الذي ستقوم به قوات الحلفاء بالإنزال في فرنسا، وهنا تأتي مهام المقاومة بإنزال ضربات سريعة وتتعب بها الخطوط الخلفية للقوات الألمانية وتعرقلها، وتغلق عليها الطرق وتعرقل تنقّل قواتها.

كانت قوة فصائل المقاومة قد تصاعدت كثيراً في الإدارة 13 ، المنطقة العسكرية تولوز كان موجود فيها من المقاومين يوم 1 / تموز / 1942، (4.519) رجلاً فقط، وبعد عام واحد، كان العدد قد أصبح(16.962) مقاتل. وفي 6 / حزيران / 1944 (يوم الإنزال X) كان الموجود (75.452) رجل في هذه المنطقة العسكرية، وهذا الرقم تضاعف خلال شهور الصيف لنفس العام.

في هذا التوسع كان لشارل ديغول من لندن مساهمة مباشرة. " أيها الفرنسيون " هكذا توجه بالخطاب في 6 / حزيران " أن ساحة قوس الشرف قد جاءت، في غضون ال 24 ساعة القادمة، على كافة الرجال الذين أعمارهم بين 20 ـ 46 عليهم التواجد لدى رؤساء البلديات، وأن يسجلوا أسماءهم، لكي يساهموا بتحرير بلادهم، كل فرنسي يتجاهل هذا النداء، سيعامل كالفارّ من الخدمة العسكرية ".

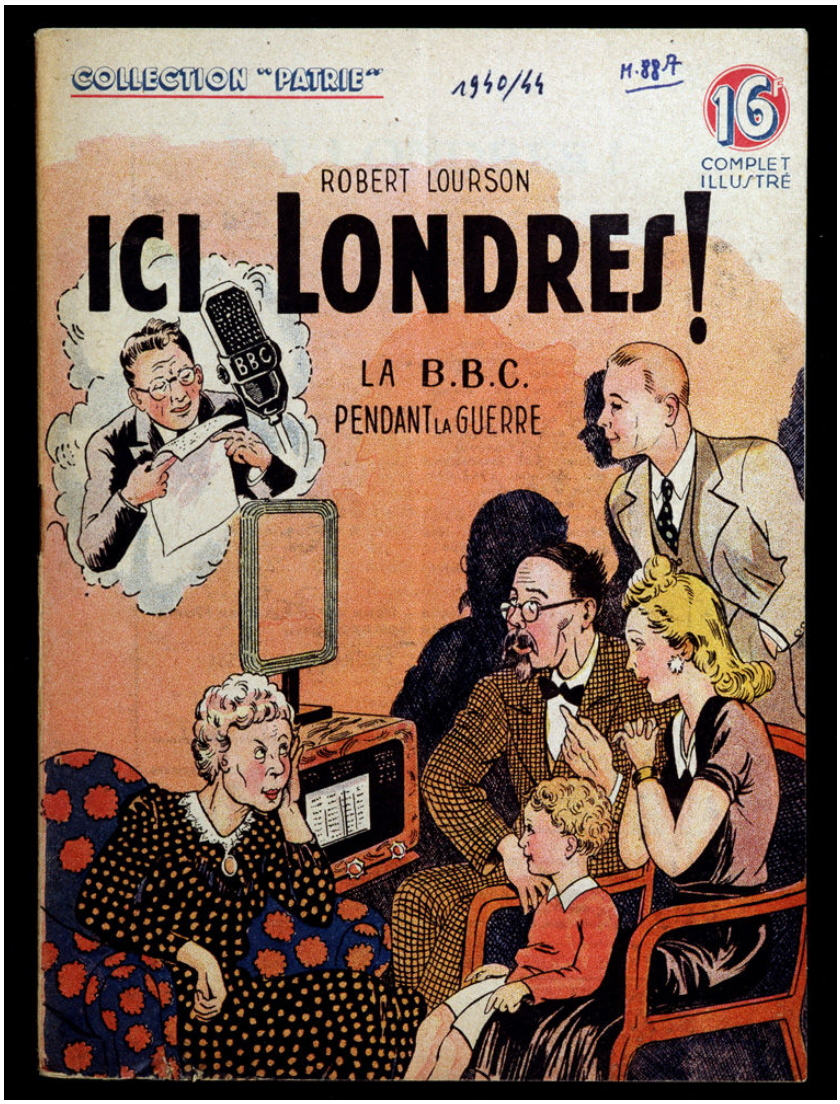

(إذاعة لندن لعبت دوراً مهماً في مقاومة الاحتلال)

في العاشر من حزيران، استمع الفرنسيون إلى إرسال مزعج من لندن: " أوقفوا حالاً الأعمال الفدائية (وقوف) حالياً لا يمكن إمدادكم بما يكفي من السلاح والعتاد (وقوف) اقطعوا كافة الاتصالات وابدؤوا مرحلة إعادة التنظيم (وقوف) تجنبوا التجمعات الكبيرة ونظموا أنفسكم في مجاميع صغيرة معزولة ".

وكان السبب لهذه البرقية (وفق الصيغ العسكرية)، هي أن الحلفاء كانوا محتاجين لكل طائرة لدعم القوات البرية ولإنزال المظليين، ولم يكن لديها الطائرات لإمداد المقاومين.

وكان أكثر ما يساعد الحلفاء، هو التخريب الذي كانت المقاومة توقعه في خطوط السكك الحديدة، وبهذا كانت الإمدادات الألمانية إلى جبهة النورماندي تكون بطيئة. وفي آب / 1944 لم يعد في كل فرنسا اتصالات، ولا خطوط حديدية في مدن كمرسيليا، وطولون، ونيس، وبين بريفا وتولوز، (200 كم) لم يكن هناك إلا قطار واحد فقد كل أسبوعين. فرقة المشاة 257 للجيش الألماني وجدت نفسها في منطقة ريدون، على مبعدة 200 كم من الجبهة، ولم تصل القطعات الأولى إلى هناك إلا في 11 حزيران، سيراً على الأقدام. أما الفرقة 276 فقد احتاجت إلى ما مجموعه 22 يوماً لتتقدم 650 كم.

وفي عملية واحدة دمّر مقاتلو المقاومة 52 عربة قطار للجيش الألماني، وكانت حراسة عقدة مواصلات السكك الحديدة في أمبريو كان هناك 50 جندياً ألمانياً في الحراسة، فيما كان 200 – 300 جندي في مكان قريب من هذه النقطة الهامة، وكان مقاتلو المقاومة الفرنسية قد تأكدوا أن الجنود الألمان كانوا يبحثون عن ملجأ يقيهم من الغارات الجوية. لهذا فقط أطلقوا في مساء يوم 7 / حزيران صفارة الإنذار، وتفرغوا هم للقطارات. بعد 30 دقيقة، جاءت الإنفجارات متلاحقة وكذلك عطّلوا عمل بعض معدات التحويل.

وبالمقارنة، بين 19 / أيار و 1/ حزيران / 1944، دمرت طائرات الحلفاء ما مجموعه 257 عربة وألحقوا الأضرار 183 أخرى من خلال 3400 هجوم، وهذا يعني أنهم كانوا يحتاجون 13 عملية لكي يدمّروا عربة قطار واحدة.

وعمل فرانسوا ديبورتر مدير محطة قطار مونتكورنيت، ما من شأنه أن يجعل 14 عربة قطار محملة بالعتاد، واحتجز طريق 1500 من جنود المشاة المتجهين إلى جبهة نورماندي، ثم سأله الألمان عن طريق التفافي يتجنبون فيه العائق، اقترح عليهم ديبورت طريقاً عبر بلدة هيرسون، ثم أبلغ قادة المقاومة، الذين اهتموا بأن لا يواصل القطار سيره ويصل إلى هدفه.

في 13 / حزيران وصل قطار حتى بلدة بوسي، حيث كان المقاومين قد حشدوا قواهم وأغلقوا الطريق، ولكن القطار وصل هدفه، ولكنه من أجل مسافة 32 كم استغرق سيره 15 يوماً.

كانت القوات الجوية التابعة للحلفاء تطلق النار على كل شيء يتحرك، لذلك كانت خسائر عمال السكك الحديدية الفرنسيين عالية، فقد كان إجمالي خسائرهم 8938 قتيل، وكان 2000 من هؤلاء في الواقع ضحايا القمع الألماني، توفي منهم 1157 من عمال السكك الحديدية في المعتقلات النازية، منهم 809 لقى حتفه رمياً بالرصاص.

ولكن كيف كانت تجربة الجنود الفرنسيين الذي هبطوا الأرض الفرنسية مع قوات الحلفاء ..؟
فبعد نزولهم صاروا يصادفون مواطني بلادهم الذين غدوا أحراراً .. بشكل مختلف تماماً عما شاهدناه في فلم هوليود " أطول يوم في التاريخ " الذي فيه يصف الممثل بوفيل الذي يشرب الشمبانيا في قبعة إطفائي الذي كان يتحرك بخفة بين الانفجارات وأعشاش رشاشات ال (MG) فيما زميله الممثل ليدوكس يتجول بين الانفجارات حاملاً الراية يلوح بها.

أحد الجنود الفاتحين، المحررين الحقيقيين جاك سيدني كجندي في جيش ديغول (فرنسا الحرة)، قابل الفرنسيين بعد النزول، " خرجوا إلينا من الأقبية، مرهقين بعد 48 ساعة " كانت هناك قنبلة غير منفجرة على الأرض وقفوا حولها " كان موقفاً رهيباً، وكنا أوائل الفرنسيين المحررين، كنا نعتقد أنهم سينفجرون من الفرح، لكنهم كانوا غاضبين جداً، شعرنا بخيبة أمل شديدة، سألونا بغير صبر متى سينتهي هذه المشهد ويمضي. وهنا جاء رجل جندرمة ضاحكاً وانضم إلينا قائلاً: اليوم تحديداً كان علي أن أذهب إلى ألمانيا في عمل إجباري (سخرة)، ولكن هذا مضى، وبوسعي أن أبقى هنا ... وأنتم حقاً جئتم في الوقت المناسب، وربما كنا خشنين معه بعض الشيء، بقولنا، إن الحرب لم تنتهي بعد وربما ستأخذ وقتاً أطول. فبدت عليه ملامح الحيرة ومضى بعيداً.

شكراً لله أن الفرنسيون لم يكونوا كلهم كذلك، عندما سار الجنود الفرنسيون من الفرقة الرابعة بين أطلال مدينة سانت أوبين أركويني، التقوا ببعض السكان الذين اعتقدوا أنهم جنود إنكليز، أو كنديين من المقاطعة الفرنسية كيوبيك، أو أمريكيين، وعندما سمعوهم يتحدثون معهم باللغة الفرنسية، اقترب أحدهم منهم قائلاً " أتتحدثون الفرنسية ؟ ". " نعم، طبعاً، نحن فرنسيون ! ". " عجيب هذا يصعب تصديقه، فرنسيون ـ كنديون أليس كذلك ؟ ". " لا ويحك ... نحن فرنسيون ... فرنسيون ... من جنود فرنسا الحرة ". " يا إلهي

.. فرنسيون أحرار ! ". وركض صوب بيته، وعندما عاد بعد بضعة دقائق، عاد وملء ذراعيه قناني خمر كالفادوس يقول " هذه القناني قد خبأتها لكم " قالها ودموع الفرح تملأ عينيه.

في باريس حل يوم إنزال الحلفاء على ساحل نورماندي، كانت مفاجأة حتى للمقاومة، والألمان بعد صدمة قصيرة، عادوا بعدها إلى الثقة. فرنسا في هذا اليوم كانت بلد التنافضات، النورماندي كانت تحترق، وباريس في سلام وهدوء، ولكن بعض الإدارات نهضت.

كان خطاب إذاعة (BBC) بلهجة متحمسة، والبيانات الثورية لمنشورات الشيوعيين، والأنباء عن قتال هائل في الشرق (الجبهة الشرقية / السوفيتية)، وتفوق السلاح الجوي البريطاني، وفي الكثير من أرجاء فرنسا كانت قوة الجيش الألماني تضعف، ومن جهة أخرى كانت جرائم الأمن الألماني الجستابو (Gestapo) تكثف من نشاطها وقمعها، والقوة المتأرجحة لسلطة فيشي (سلطة بيتان) وحتى شخص بيتان نفسه، وأخيراً القناعة والثقة بأن مرحلة جديدة قادمة، وهذا ما دفع أعداد كبيرة من الفرنسيين إلى اتخاذ مواقف وطنية.

ووفق تقرير من المقاومة، أن إنزال الحلفاء أطلق ضرباً من الإعجاب في كليمونت فيران، ففي اليومين التاليين، غادر المدينة 10.000 شخص، وانضموا للمقاومة، بكل وضوح، العمال في مصنع إطارات ميشلين، وموظفو بنك فرنسا، (Banque de France) موظفون، وأبناء تجار، غادروا بالقطار بحقائب على الظهر نحو بلدة لوبراسي وبشاحنات منضمين للمقاومة.

في البداية، رد المحتلون على هذه الظواهر التعبئة العامة،" أنا مستعد دائماً لمثل هذه الحالات" أوضح الجنرال الألماني قائد منطقة برون " كان بوسعي أن أشن الهجمات منذ اليوم الأول، ولكني فضّلت أن يشكلوا مجموعات، وهذا سيسهل علينا هزيمتهم في ثمانية أيام، بوسعي أن أؤكد لكم ذلك بأنه سوف لن يكون هناك جيشاً سرياً في هذه المقاطعة" وبعد الثمانية أيام عانت المقاطعة، معاناة فظيعة.

ما كان ينقصهم هو السلاح الثقيل، الحقيقة أن القادمين الجدد كانوا مستعدين تماماً لمستلزمات الحرب الحديثة، والأكثر بعد هو الحماس غير المنضبط في الكثير من الأحيان، قادت بعد الإنزال إلى حوادث درامية. وهكذا فقد حدثت يوم 8 / حزيران معركة بين المقاومين في منطقة غروليلس (Grolejac) بين وحدة من المقاومين 28 مقاوم، ورتل من القوات الألمانية (SS) المعركة كانت قصيرة، ولم يكن بحوزة المقاومين سوى رشاشة خفيفة، وبعض قطع سلاح من الحرب العالمية الأولى، وقنبلتين يدويتين لدى اثنان من المقاتلين، ومحصلة المعركة كانت مقتل اثنين من المقاومين وخمسة مدنيين. وكلفت الألمان توقف الرتل لمدة 20 دقيقة، على الرغم من ذلك هناك لوحة تذكارية قرب الجسر (موقع المعركة)، بفضل تضحيات الوطنيين تمكنوا من إيقاف رتل ألماني وكلفوهم خسارة وقت طويل ".

وكان مقاتلو المقاومة قد أقاموا حاجزاً أمام قائد دراجة نارية ألمانية، قُتل فيها أحد المقاومين. وجنود من الفرقة الألمانية (SS) الذين ذهبوا إلى مقهى وقتلوا 13 فرنسياً، بينهم 8 نساء، وفتاتين. وخلال مواصلتهم لمسيرتهم، قتلوا سيدتين في كارلوكس (Carluux) ومقاتل مقاوم في بيرلي، وبذلك أشاعوا الذعر، بما يلطّخ اسم هذه الوحدة إلى الأبد.

في الأسابيع التي تلت الإنزال، كانت فيها قوى الاحتلال ما تزال لم تفقد قواها بشكل تام، وسقط الكثير من رؤساء بلديات البلدات في مواقف مأساوية، فقد كانوا يحاولون تجنب الأسوأ، وسقطوا بنفسهم كرهائن. وغالباً ما كانوا يحملون المسؤوليات التي لا يد لهم فيها. ومثال على ذلك ما جرى للدكتور تيمبورال رئيس بلدية سانت رامبرت الذي أعدمه الألمان رمياً بالرصاص مع أحد عشر من الرهائن في 7 / تموز وكان كل ما فعله: أن سكان بلدته قد ساعدوا المقاومين في قتال الشوارع يوم 12 / حزيران.

ومثال آخر هو ما جرى لرئيس بلدية سانت بول دو ليون وكان كل فعله : أنه لم يمنع دخول مجموعة غريبة عن البلدة، في نشوة التحرير، وأسروا جندياً ألمانياً، واستولوا على كمية كبيرة من السلاح.

ومن أجل حماية الأسرى الألمان، كان رئيس البلدية قد احتجزهم في غرفة الغسيل بمقر الجندرمة القديم، وفي اليوم التالي كان رتل ألماني ومعهم وحدة روسية متعاونة يدخل البلدة، بدأ السجناء بقرع الشبابيك ليدلوا رفاقهم على مكان وجودهم، وسرعان ما ابتدأت مطاردة البشر، واقتيد سبعة شبان مشدودي الوثاق إلى الأسفل واستلقوا على أرضية الشارع، وجندي روسي اقتاد اثنين من المدنيين أمامه وأمرهم بالركض، ثم أطلق عليهم النار جميعاً. (7)

في المساء اعتقل الألمان رئيس البلدية وموظفيه واقتادوهم إلى الساحة، حيث كانوا قد جمعوا عدد من المواطنين الآخرين، وأحد الضباط سأل أين هي الأسلحة المسروقة، وهكذا قتلوا 14 فرنسياً بما فيهم رئيس البلدية في نفس المكان والزمان صرعى بنيرانهم، كما اقتادوا 13 آخرين بينهم سيدة، أخذوهم إلى بلدة أخرى حيث أُعدموا هناك.

وهناك بلدتان يمكن اعتبارهما مثالاً حقيقياً لوحشية الألمان، وهما : تولا وأورادور، ولا سيما تولا التي كانت عاصمة إقليم (محافظة) كوريزا (Correze) وهنا كان نتيجة لتهور المقاومين الشيوعيين، الذين بدون أسلحة ثقيلة، ولا استعدادات ضرورية، أرادوا زج سكان البلدة (20,000 نسمة) للوقوف بوجه القوات الألمانية.

في أيار 1944 كان جميع سكان محافظة كوريز قد أُخلوا تقريباً، وكان القلة القليلة من الجنود الألمان وخاصة كبار السن منهم، كانوا ينسحبون إلى المدن. وهكذا في تولا حيث كانت مقراً لسريتين من اللواء 95 الأمني، وكانت قد اتخذت من مدرسة للبنات مقراً لها. في 7 تموز احتل المدينة حوالي 1350 مقاوم حتى مدرسة البنات. وفي صباح اليوم التالي، باشروا الهجوم على مدرسة البنات، واشتعلت النيران في السقوف (من الخشب والقرميد).

" الألمان " صرخت سيدة وحاولت أن تنفذ من خلال الشوارع الفرعية وتنفذ نفسها، ولكن المقاومين تلقوها من خلف المتاريس من براميل النبيذ الخشبية التي أخذوها من تجار النبيذ وعندما كان الألمان يحاولون الخروج كانوا يصبحون أهدافاً سهلة لهم.

في معركة تولا قتل 69 ألمانياً، معظمهم لقى مصرعه عند محاولته ترك المدرسة، ووجد رئيس الجندرمة هناك " الكثير من الجنود الألمان، منهم الكثيرين قُتلوا بنيران المدافع الرشاشة (الرشاش الخفيف MG) ومن مسافات قصيرة، لذلك كانت الجثث مشوهة.
(الصورة : الرشاش الألماني الخفيف الشهير (MG

وب 17 قتيل تصاعدت خسائر رجال المقاومة، ففي الساعة الثامنة مساءً، أبلغ المقاوم كليبر المحافظ عن نفسه بوصفه القائد الجديد لمنطقة تولا. وعندما عبر المحافظ عن مخاوفه من هجوم ألماني مضاد، سخر منه المقاوم (القائد الجديد كليبر) بقوله " إذا شاء الألمان يشنون الهجوم، ويزورونا، فسوف نعد لهم حفل ونستقبلهم أفضل استقبال ".

بعد ساعة كانت المقدمات الأولى للألمان قد حضرت، وغادر المقاومون المدينة فراراً، وإذا شئنا تصديق بعض شهود العيان، فإن بعضهم ألقى بشاراته وسلاحه في الحدائق وأطلق ساقيه للريح. (8)

في ساعات الفجر يوم 9 / حزيران، اقتاد جنود (SS) الألمان أشخاصاً بدون تمييز (اختيار عشوائي)، من أسرتهم وجمعوهم سوية، لأنهم لم يتمكنوا من أسر أي من رجال المقاومة، واختاروا من بينهم أشخاص لا على التعيين لأسباب لا معنى لها، سواء كان اسمه ذو مؤشر غريب (أجنبي)، أو أوراق مزورة، وهو أمر كان شائعاً في تلك الظروف.

وأمام أعين العشرات من أهل البلدة الشبان الذين أُجبروا على مشاهدة عملية الإعدام، جرى شنق 99 مواطن على أعمدة النور في الشوارع، أو معلقين من على شرفات البيوت ولم يسمحوا بدفن الجثث في المقبرة، بل قذفها إلى مكبات النفاية. ورغم أن الألمان أطلقوا سراح كثير من المواطنين الفرنسيين قبيل انسحابهم من فرنسا، ولكنهم أخذوا معهم 149 معتقل إلى ألمانيا وأودعوهم المعتقل السيّء الصيت داخاو (Dachau) لقي 43 منهم حتفهم خلال عملية النقل، وفي نهاية المطاف لم يعد إلا 48 شخصاً إلى بلدته على قيد الحياة. وأكثر من مدينة تولا (Tulle)، كان مصير بلدة أورادور (Oradour) التي ذاقت ويلات الانتقام الألماني.

(طابع بريدي فرنسي يخلد مجزرة أورادور)

في 9 حزيران / 1944، تمكن المقاومون من أسر أحد قادة وحدات النخبة (SS)، وكان قائد كتيبة SS (الفوج) حاول عبثاً أن يفاوض المقاومين لإطلاق سراحه، مقابل إطلاق سراحه بـ 30 معتقلاً وفدية نقدية. ثم استلم قائد(SS) الأمر في بلدة أورادور– غلان إطلاق النار على 50 من أهالي البلدة.

لماذا تم اختيار بلدة أورادور – غلان(Oradour - Glan) للانتقام التي لقى فيها في نهاية المطاف 642 فرنسي حتفه، فهنا لغز، حيث يفترض أن تكون هناك مقرات ومخابئ للمقاومة، ولكن هذا الأمر مشكوك به بدرجة عالية، ففي يوم 10 / حزيران / 1944 في الساعة 14.00 قام رجال من وحدات (SS) الألمانية بتجميع سكان بلدة أورادور، و تم عزل النساء والأطفال في الكنيسة، واقتيد الرجال إلى الكراجات ومخازن الغلال (الشونة).

في مخزن الغلال فقط كان هناك 60 من المواطنين، وجاء الإيعاز إلى سائر الأماكن في نفس الوقت، فانطلقت زمجرة المدافع الرشاشة " كنا نهدف إلى الصدور " قال أحد رجال (SS) خلال محاكمته وزملائه لاحقاً " كانوا يقفون وخلفهم جدار، كانت الظلمة قد حلت ولم نكن نرى جيداً، ولكننا كنا نطلق النار ".

من كنيسة أورادور التي قتل فيها 202 طفل، و240 سيدة، هناك شاهد واحد: السيدة روفانشي، التي فقدت طفلين في المذبحة. وفي المحاكمة التي جرت عام 1953، أدلت بإفادتها، كيف أن الألمان سحبوا حاوية إلى الكنيسة، ووضعوها فوق كرسيين وفجأة فجروا الحاوية بصوت انفجار ودخان كثيف عبّأ قاعة الكنيسة.

ولم يكتشف الناس المدى الحقيقي للوحشية إلا في اليوم التالي. ويقول مفوض الشرطة " كان رماد الموتى يصل إلى حد الركب، ذهبت حتى آخر الكنيسة حيث يقف جوقة المنشدين، التي يفصلها عن الكنيسة سياج معدني مشبك، للخلاص من النيران، وحاول الأطفال تسلق هذا السياج، ولكن الأطراف المدببة للسياج المعدني كالرماح كانت تعيقهم، أيدي متفحمة حرقاً وأجساد الأطفال كانت مرمية على الأرض عند الشبكة هذه.

لماذا لم تقاتل المقاومة على نحو فعال، كان عليها أن تحاول على الأقل. قبل أن تنادي الفرنسيين إلى النهوض والانتفاضة العامة، التي كلفت الفرنسيين الكثير من الأرواح، التخطيط لانتفاضة عسكرية منظمة للمقاومة ضد الاحتلال الألماني.

المعركة المفتوحة الأولى للمقاومة هي القتال من أجل قواعدهم في جبال الألب نهاية عام 1944، وكانت بريطانيا قد حذرت من انتفاضة عامة للمقاومة سابقة لأوانها، لأنها لم يكن بمقدورها إمداد المقاومين بالقوات، ولا حتى بالسلاح، كما كان معظم قادة المقاومة متفقين، أن قتالاً مفتوحاً مع الجيش الألماني يمكن أن يقود إلى كارثة، ولكن بعض آخر كان لهم رأي آخر.

كان الشعار الذي أطلق من لندن : " أن ثلاث بلدان في أوربا تبدي المقاومة بوجه الاحتلال، وهي اليونان، يوغسلافيا، وهاوت سافوي (Haute - Savoie) "، وكان قائد المقاومة ثيودوس موريل مقتنعاً بإمكانية مواجهة الألمان. وفي نهاية كانون الثاني / 1944، تمركز نحو 450 مقاوم في المناطق المرتفعة، كان العدد والعدة يكفي بما لا يجعلهم يهزمون، وقليل ليحتلوا منطقة واسعة وليدافعوا عنها بفعالية. وفي الواقع كان القائد موريا بحاجة إلى ما لا يقل عن 1200 مقاتل ليدافع عن المنطقة، وعدا ذلك فقد كان ينقصه السلاح، والزحافات، وكان جيداً إذ أمن الحلفاء له تلك الاحتياجات، وقذفوها له بالمظلات، ولكنها جلبت انتباه الألمان وأنذرتهم.

(الصورة : الجنرال ديغول يلقي خطاباً من إذاعة لندن (BBC))

في آذار/ 1944، هاجمت الفرقة الجبلية الألمانية 157 حصون ومواقع غليرس (Glieres)، ولأن المقاومين كانوا أقل مقدرة من الألمان، لذلك أصدر قائدهم أمراً بالانسحاب إلى المناطق الشاهقة في منطقة

غليرس، وأكد الجنرال ديغول من خلال إذاعة (BBC) في 8 / نيسان / 1944 " أن 12.000 جندي ألماني (انتبهوا رجاء 12.000) بعد 14 يوماً (انتبهوا رجاء 14 يوم) خاضوا معركة ضد 500 فرنسي الذين لم يسعهم التراجع، بل صمدوا بدلاً من الاستسلام". في الجانب الألماني كان هناك 400 قتيل، ومن المقاومين 100 قتيل. (9)

بعد الحرب ارتفعت أرقام خسائر المقاومة، فعندما افتتح أندريه مالرو وزير الثقافة في حكومة ديغول النصب التذكاري لمعركة غليرس في مطلع السبعينات، ارتفعت أعداد المهاجمين الألمان من 12.000 إلى 20.000، وكتب الجنرال ديغول في مذكراته أن عدد قتلى الجيش الألماني كانوا 600 جندي ألماني. الفرقة الجبلية الألمانية كان موجودها في معركة غليرس 6714 رجل، منهم 3085 رجل ساهم في القتال.

في مقبرة الجيش الألماني في داغنو (Dagneux)هناك 289 قبر فقط، في مقاطعة هاوت سافوي، (شرقي فرنسا الجبلية)، وبحسب أبحاث الجنرال الفرنسي ناتويل أنه لا يمكن تحديد الأرقام بناء على القبور والشواهد المثبتة عليها في المقبرة العسكرية، لاختلاف الأسماء، ووفاة جنود في أماكن أخرى. ومن بين 11 قتيلاً بتاريخ 27 / آذار ليس هناك سوى واحد هو كارل فيشر الذي قتل في نورتردام دي جيس، إذن بالقرب من المواقع الأمامية القريبة للمقاومين ، وربما أن هناك قتلى آخرين قد أخذت جثامينهم إلى ألمانيا ودُفنوا هناك. وبصفة عامة تبدو أن الأرقام الفرنسية الرسمية مبالغ بها.

حتى في المعارك التي دارت في مونت موشيه (Mont Mouchet) قد بولغ بها، ويؤكد أميل كلاودون في أفريغ (Auvergne)، أحد قادة المقاومة، أن فرقة ألمانية معززة، هاجمت يوم 10 / حزيران / 1944 قوات من المقاومة يناهز عددها 3700 مقاتل، ، من بينهم 2700 مقاتل ممن شاركوا في معارك مونت موشيه، كانت القوة الألمانية تبلغ 15.000 رجل الذين قاموا بالهجوم. وبحسب أرشيف الجيش الألماني، لم تكن القوة تبلغ أكثر من 2000 جندي. وهنا مرة أخرى فارق كبير في المعطيات، وفي خسائر الألمان.

في 20 / حزيران / 1944 كتب كولاودون في صحيفة لامور دي أوفيرغني(La Mur d Auvergne) " كان لدينا 150 قتيل فقط، وحوالي 100 جريح، فيما كان العدو لديه أكثر من 1400 قتيل، و1700 جريح ". وبحسب سجل الحرب الألماني أن القوات المشاركة كانت 40 فقط ...!

ولكن ما يهم في نهاية المطاف هي الأحداث، تسجل ليس أعداد الذين قُتلوا من قبل المقاومة، الجنرال الفرنسي لابار دي نانتويل، قدّر خسائر الألمان من 1 / كانون الثاني / 1944، وحتى يوم التحرير تتراوح بين 4000– 5000 قتيل على أيدي رجال المقاومة، وهذا يمثل 2% من مجموع خسائر الجيش الألماني في فرنسا. في الجبهة الشرقية (الجبهة السوفيتية) كانت خسائر الجيش الألماني على أيدي المقاومة الروسية 5 - 6% من مجموع خسائرهم العامة على أيدي المقاومين السوفيت. (11)

والعامل الحاسم أن الألمان كلما شعروا بوجود المقاومة، تضطرب خططهم، ورجال ينبغي أن يوضعوا في أماكن بعيدة عن الجبهة. والأهم، لابد أن يكون السلاح في متناول اليد.

عندما كان في بدايات عمل المقاومة يتعين على المقاومين أن يمولوا أنفسهم ذاتياً، ولم يكن الأمر ليخلو من القيام بعمليات تكاد تكون ابتزازية، وأشبه بأعمال العصابات، لذلك كان كقاعدة منذ أواسط 1944 التمويل الاضطراري، وفي المقدمة كانت عمليات الاستيلاء على أموال تابعة لحكومة فيشي (حكومة بيتان الموالية للألمان).

وأكبر عملية نجحت فيها المقاومة، حدثت بمساعدة فعالة من أحد كبار موظفي حكومة فيشي(محافظ فيشي)، ففي 26 / تموز / 1944 استولت المقاومة على القطار الذي كان يحمل شحنة من الأوراق المالية، من بنك فرنسا (Banque de France) الذي كان بين بيرجيو (Periguex) ومدينة بوردو (Bordeaux) وتم الاستيلاء على 150 كيساً (تزن ستة أطنان) من العملات الورقية تبلغ قيمتها الإجمالية 2.25 مليار فرنك.

واستخدام النقود لم يتم إيضاحه على أية حال، أعيد من المبلغ 797.9 مليون فرنك بعد التحرير. وبعد ثمان سنوات بعد الحرب، أدعي النائب اليميني ليوتارد عن 450 مليون فرنك، ولكن ما يزال خمس المبلغ مجهولاً، وفي يوم 28 / أيلول / 1944، شخص ما لم تعرف شخصيته، حولت له لشراء السلاح، ولم يعرف أحداً حقاً مصير المال أو السلاح.
من المؤكد أنه كان من الصعوبة بمكان، معرفة والحفاظ على مجريات الأحداث في المقاومة، كان أشبه بـ " انهيار جليدي خارج السيطرة " هكذا أسماها المناضل المقاوم جورج، من المجندين في المقاومة ضمن الموجة الثالثة " لم يكن المتعاونون فقط الذين يمكنهم التسلل، ولكن أيضاً كان هناك مجرمين، وسجناء جنائيون، وقوادون، الذين وجدوا فيها وظيفة ممتازة ". (12)

وكيف يمكن للمرء أن يطهر نفسه من الذنوب ويغسلها، كالذين تسببوا في اعتقال بشر، أو الذين حتى لمرة واحدة أقنع نفسه بالسير وراء الماريشال بيتان، وفرنسيون كانوا يسعون لإفساد بعضهم ، ومن يلعب أدواراً مزدوجة، ومن ينافق، والكثير من المتعاونين الذين يستحقون الإدانة، وخاصة لأنهم استفادوا مالياً وربحوا من المحتلين، وكانوا يتملقون المحتل، بينما كان هناك رجال كانوا يدفعون حياتهم للوطن.

تحليل المترجم للفصل الثالث

بموضوعية وحيادية، يعرض المؤلف مسار حركة المقاومة، التي لم تكن تعاني من شحة في الدعم السياسي، أو العسكري، أو المالي.والتصاعد في قوتها: حجماً (عدد الأفراد) وتسليحاً، كان مرهوناً بعوامل عديدة في مقدمتها :

مزيد من التبلور في الوضع السياسي الداخلي، من حيث تأخر انضمام الشيوعيين إلى المقاومة، تناغماً وانسجاماً مع الموقف السوفيتي حيث كانوا حلفاء لألمانيا.
استغرق الأمر وقتاً لتكتشف الأغلبية الصامتة، أن الاحتلال هو تدمير للبلاد وليس خلاف سياسي بين دولتين، أو سوء تقدير العلاقات الدولية كما كان الماريشال بيتان يحاول تصويرها للشعب الفرنسي.
أخطاء كثيرة ارتكبتها إدارة الاحتلال، ومنها الضرائب الباهظة، والعمل الإجباري (السخرة)، والقسوة المفرطة.
سماحهم للميليشيات المتعاونة بتنفيذ تجاوزات على أصعدة مختلفة صعّدت من التذمّر، وقرّبت فئات كثيرة من المقاومة.
المقاومة نفسها كانت مزيج بين قوى وهيئات وحركات، وشبان ساخطين وغاضبين على الاحتلال، وهاربين من العمالة الإجبارية (السخرة)، ولصوص وهاربين من السجون.
ورغم أن المقاومة كانت ترتكب (كأفراد) أخطاء وأحياناً جرائم، إلا أن قيادات المقاومة في غالبها كانت مدربة عقائدياً، يرفضون التجاوزات ويحاسبون عناصرهم علناً، ويردون المظالم.
كان مستوى الدعم بالتسليح الخارجي (من الحلفاء) لا بأس به، مقبولاً، أو أقل من المقبول قليلاً.
من مصادر أخرى، أن شخصية ديغول بقدر ما كانت قوية وحازمة، ويمتلك كاريزما قيادية يلتف حول الشعب الفرنسي، مقابل شخصية الماريشال بيتان التاريخية، إلا أن ديغول لم يكن مقبولاً بقوة من الإنكليز أولاً، ثم حتى من الأمريكان، الحلفاء الغربيون كانوا يفضلون شخصية توفيقية سهلة في التفاوض، ديغول كان صلباً في الحفاظ على موقع فرنسا القيادي، وتمكن بعد الاحتلال أن يضبط الموقف السياسي، لأنه كان يتمتع بتأييد القوى الرئيسية للشعب الفرنسي: الحزب الاشتراكي، الحزب الشيوعي، اليمين الوسط الذي بدأ يتبلور من خلال التيار الديغولي.

يبدو لنا أن الأحداث تجري في أماكن كثيرة وفق سياقات متشابهة، لجهة العناصر المكونة، التراكم التاريخي ثم النتائج، ولكن بسيناريوهات مختلفة، وإيقاع متفاوت، وأعترف أنني رغم دراستي وإقامتي الطويلة في هذه البلاد، فوجئت بقوة وحدة الإيقاع والعنف فوق العادة والمفرط الذي تعامل به كافة الأطراف ... حقيقة شيء لم أكن أتوقعه.

هوامش الفصل الثالث

عمل السخرة باللغة الألمانية (Ywangarbeit) وباللغة الإنكليزية (Unfree labour) وهو من الأعمال المخالفة لقواعد حقوق الإنسان.
الماكويز(Maquis) جماعة ثورية من المقاومة (شيوعيون على الأرجح) كانت تتمركز في أحراش وغابات جبلية بوسط فرنسا
لاحظ أن قوى الاحتلال تحاول أن تسيء إلى المقاومة الوطنية وتحاول أن تنسب لهم أعمال إجرامية، لإساءة العلاقة مع الشعب حاضنة المقاومة.
من خلال مطالعاتنا لتاريخ الثورات الشعبية وحركات المقاومة، قرأنا الكثير جداً من هذه القصص في الصين وحتى الاتحاد السوفيتي في مقاومته للاحتلال الألماني، وبتقديري أن الأمر ذو شقين، الأول فعل متقصد وموجه من سلطات الاحتلال وعملائها، والآخر عصابات وشقاوات وقطاع طرق يعملون لحسابهم في جو الثورة وتفاعلاتها.
يتضح من هذا الاستعراض، أن حركة المقاومة الفرنسية كانت تضم في البداية أفراداً ليس بالضرورة في إطار مقاومة سياسية منظمة، فقد كانت تضم في صفوفها متمردين على السلطات، ورافضين للعمل الإجباري، وهاربين، وحتى شقاوات وقطاع طرق، ولكنها بدأت تكتسب وجهها السياسي بعد انضمام حركات سياسية كالحزب الشيوعي وغيرهم، وبدأ ارتباطها ينتظم مع توجيهات حكومة فرنسا الحرة في لندن (ديغول).
إذا كانت المقاومة حتى تموز / 1943 لم يكن عودها قد اشتد بعد، فذلك يعني أنها تأخرت لوقت ليس قصير، والسبب هو تأخر التحاق الشيوعيين بها، ثم ردود أفعال الناس على تصرفات المحتلين، وثالثاً يبدو أن الدعم البريطاني لحكومة ديغول قد تأخر لأي سبب من الأسباب.
خلال الحرب، انشق عدد لا يعرف بدقة من الضباط والجنود السوفيت(من بينهم عشرة جنرالات)، أسروا أو التحقوا إلى جانب الألمان، شكّل الألمان منهم فرقاً عسكرية كانوا بقيادة جنرالات في الجيش السوفيتي أبرزهم الجنرال فلاسوف، وكان من الضباط الأكفاء الذين ساهموا في الدفاع عن موسكو، استخدمهم الألمان في أرجاء ومواقع متفرقة، وأخيراً استسلموا للقوات السوفيتية في جيكوسلوفاكيا عام 1945.
وفق تكتيكات حرب العصابات، ليس من واجب مقاتل العصابات أن يتصدى لوحدات نظامية كبيرة تفوقه عدداً وعدة، إلا عندما يضمن أنه سيربح المعركة، فالانسحاب ليس عيباً أو خطأ، بل العكس صحيح فمواجهة قوات متفوقة هو جنون لا داع له.
هاوت سافوي (Haute - Savoie) إقليم فرنسي يقع في شرق البلاد على الحدود السويسرية، يتميز بوعورة جبالها.
إعادة التأكيد في خطاب ديغول هو لتأكيد الفارق في القوى، وتأكيد صمود المقاومين الفرنسيين.
هذه أعداد لا بأس بها، فإذا اعتبرنا أن اللواء المقاتل يبلغ نحو 1000 رجل، فإن المقاومة الفرنسية قد أخرجت نحو 10 ألوية (عدا الجرحى والمعاقين)، والمقاومة السوفيتية التي كانت وفق هذه الأرقام أشد وطأة على المحتلين الألمان، فقد خسر الألمان على الجبهة السوفيتية نحو 10 ألوية (عدا الجرحى والمعاقين)، وبالطبع من الخسائر المهمة التي ينبغي أن تجرد الخسائر في المعدات والآليات، وإعاقة الجهد الحربي ووضع الصعوبات أمامه، وخسائر في التفاصيل المادية والمعنوية.

الفصل الرابع : **التحرير** ... **فرنسا حرة**

تحت عنوان " نعي " كتبت صحيفة ليون " جان لونغ، 37 عاماً، سكناه في 18 كورس هنري، الساعة العاشرة ". وكان مرسل النعي يود لو يضيف لهذا السطر، " الجبان قتل في 22 / تشرين الأول / 1943 " ولكن الرقابة لم تكن لتسمح بذلك. الطبيب جان لونغ كان معروفاً بتعاطفه مع الديغوليين، كان الضحية الأولى لمنظمة تشكلت حديثاً أطلقت على نفسها " لجنة مكافحة الإرهاب ".

لم يكن الفرنسيون يناضلون ضد الألمان في فرنسا لوحدهم في الأعوام 1943 و 1944، بل كان هناك فرنسيون يقاتلون ضد أبناء بلدهم، وأحياناً في الخط الأول، وهو ما ينذر بقلق لحرب أهلية.

" من أجل عين واحدة كلتا العينان، ومن أجل سن واحدة، الفكين معاً ". هذه الصيغة الفظيعة كتبها الكاتب الصحفي المتعاون مع الاحتلال جان هنريوت في 13 / تشرين لبثاني / 1943. في مناوشات كتابية ونشرها في صحيفة الميليشيا الفرنسية، هذه المنظمة شبه العسكرية التي تأسست بعد أن طالب بها هتلر حكومة فيشي لتشكيل منظمة شبه عسكرية من "الفرنسيين" الموالين للاحتلال، فالشرطة الفرنسية ينبغي أن تُدعم من المنظمة التي تروج لفكرة أن الجيش الألماني هو هنا للدفاع عن فرنسا ضد الديغوليين والشيوعيين، وكان رئيس هذه المنظمة، جوزيف دارناند الذي أثبت أنه كان من أشد المعادين للمقاومة. (1)

دارنالد كان في أفضل الحالات وأسوئها مغامر، كما كان يقول هو بنفسه، ولكنه كان في نفس الوقت كان معادياً للبرلمانتاريا (للحياة البرلمانية) ومعادياً للسامية، وللشيوعية، وكان قد أصبح معادياً للديغولية، لأن الجنرال شارل ديغول كان قد أصبح خصماً للماريشال بيتان الذي كان قائداً للجيوش الفرنسية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، التي خدم فيها دارنالد متباهياً برتبة نائب ضابط.

وللدقة فإن حرب الفرنسيين ضد الفرنسيين كانت قد ابتدأت عام 1940 فور وقوع الهزيمة، وقد افتتحت صحف المتعاونيين مع الاحتلال كالمجلة الأسبوعية لا أبيل (L, Appel) أو جي سويسبارتوت (Je suis Partout) حرباً باصطياد البشر (العمل كمخبرين علنيين) من خلال نشر أسماء وعناوين مطلوبين وطنيين وشيوعيين ويهود وماسونيين وحتى ديغوليين، وكانت الشرطة الألمانية تستفيد من هذه المعلومات، ومنذ بداية عام 1943 وضعت المقاومة قوائم سوداء بأسماء المتعاونين، وتعرّف عن كل منهم ببضعة كلمات. (2)

هذا الصراع كلّف الكثير من أرواح الفرنسيين، سواء كان المتعاونون حقيقيين، أو تعاونهم مزعوم وغير حقيقي، وعندما قتل رئيس بلدية بلدة إيزر المتعاون مع الألمان، وهو يهم بصعود سلالم بيته، تمكن القاتل من المرور بسهولة وهدوء خلال الناس المتجمهرين الذين حضروا على صوت إطلاق الرصاص، بل وتمكن من أن يسرق دراجة ويستخدمها في الهروب.

وحتى تموز / 1943 كان قد قتل ثلاثة من رجال الميليشيات المتعاونة مع العدو، " حتى القتيل العاشر سنبقى هادئين " قال دارناند، ولكن أيضاً " " ولكن انتقامنا سيكون قاسياً ". والقتيل العاشر من الميليشيات كان رجل الميليشيا يوليس بيتيت، قتله عضو برلمان في 5 / تشرين الثاني / 1943 في الساعة 20.45، بعد طعام العشاء، عندما وصله القاتل عبر الشرفة في غرفة نومه. وفي 22 / تشرين الثاني أحصت الميليشيا 29 قتيلاً.

اتخذ دارنالد قراره الحاسم برد دموي واسع، فاختار ستة ضحايا في بلدة أنسي، يهود، ماسونيين، ومقاومين.. وفي 23/ تشرين الثاني قرر رئيس الميليشيات في البلدة جوزيف ليكوسان، تنفيذ الأمر،

فاختار اليهودي إيليا درايفوس البالغ من العمر 70 عاماً، " أيها السيد، رفيقنا يواخيم قتله أصدقاؤكم بجبن، لقد حكمت الميليشيات، عليكم بالموت، إذا كنتم متدينين، صلوا إذن. لديكم ثلاثة دقائق مهلة، لتستعدوا للموت ". في اليد اليمنى كان ليكوسان يحمل ساعة.

بعد ثلاثة دقائق انطلقت عدة إطلاقات، أصابت درايفوس مقتلاً. وفي نفس اليوم قتل المقدم (أ. د) والماسوني فرانكو بوزون ولويس باغيت البالغ من العمر 53.

المقاومة لم تدعهم ينتظرون الرد طويلاً، ففي 24/ تشرين الثاني (في اليوم التالي) قُتل بالرصاص عنصر الميليشيا كاميلي باربايت الذي يمتلك مطعماً في مارلي (Marlieux) أمام بيته. وبعدها أخذ القتلة سلاح ودراجة النارية ومحفظة القتيل، حملوا جثة القتيل إلى غرفة الطعام، وقبل أن يذهبوا قذفوا بمادة حارقة تحت سريره المزدوج.

حتى أعضاء المقاومة المعتدلين منهم طالبوا، " بأن يكون تصفية الخونة بلا رحمة، وأن يكون الملف الأول الذي تشتغل عليه الحكومة بعد تحرير البلاد" . لذلك قدمت اللجنة المركزية لحركات المقاومة مذكرة بتاريخ 15 / تشرين الأول / 1943، يجب التأكيد أن جميع الموظفين الذين تعاملوا من خلال صلاحياتهم الوظيفية، ينبغي في غضون ساعات قليلة أن يُستبعدوا ويُستبدلوا ". ويجب أن تكون طلبات مقاتلوا المقاومة في المحاسبة والانتقام شرعية ونظامية .

الخيانة، الانتقام، كانت من أهم الكلمات قبل التحرير، وبعدها جرت ملاحقة الخونة الحقيقيين والمزعومين، بهمة ونشاط. " بلد غريب " هذا ما ورد في رسالة مواطن من مقاطعة كوريزا " بلد من المتعصبين، وضيقي الأفق، والأغبياء بوحشية ... بوحشية بالغة ".

التبليغ ـ كانت كلمة هامة لتبرير جرائم لا حصر لها. فالصحيفة التي تصدر سراً (La Marseillaise) المارسيليز أوردت عام 1944 أسماء في عددها لشهر آذار عشرات الأسماء، مع ملاحظات قصيرة، مثل " يقبض من الغستابو (البوليس السري الألماني)، تسبب في إيقاف وطنيين عند " أصدقائه الألمان " ولكن الظنون لوحدها وكذلك بلاغين مخبرين لا تبرر التعذيب والإعدام، أو إطلاق النار على البشر.

وبالطبع كان هناك مخبرين من أعطى للألمان قوائم بالأسماء مع العناوين. السيدة (ب) التي أدينت فيما بعد وحكم عليها بالإعدام، كتبت في 2 / حزيران / 1944 إلى قائد منطقة سانت فلور، " إن المقاومين يريدون إقامة نقاط سيطرة كل 100 – 200 متراً، سوف تتلقى جنودكم بالمدافع الرشاشة، أريد أن أخبركم بهذا، قبل فوات الأوان، فهنا توجد عصابة مخيفة، التي هي ضد الألمان، إذا جاء أحد من عناصركم، بوسعي أن أعطيكم أسماء الأخطر فيهم، ولكن عليكم أن ترتدوا ثياباً تبدون فيها كفرنسيين، وبعكسه فإن الحي المليء بالديغوليين سينذرون، ولأنني أخشى الانتقام، لأنه جرى تهديدي عدة مرات بأن يفجروا بيتي. ولكن ربما من الأفضل أن لا يأتي أحد من قبلكم، وأن تجدوا هؤلاء السيئين بدوني، وأسماؤهم هي :...." وهنا تكتب السيدة 26 اسماً، وتضع أخيراً ما مجموعه 50 اسماً، والسيدة (ب) تذكر في تقريرها اسمَي رجل وزوجته، وبعض الأحيان عائلة كاملة، ومن الأسماء التي ذكرتها قتل بعضهم.

ولكن أيضاً كان مقتل العامل في السكك الحديدة (ل) الذي قتل في موربيان، واغتصبت زوجته ومدبرة البيت، فهل كان هذا يخدم قضية سياسية ..؟. أو عندما قطعت أذن رئيس البلدية في إحدى دوائر كوريزا واقتلعت عيناه، كان على مقاتلي المقاومة أن يفهموا أنهم يقترفون أعمالاً بربرية كتلك التي يتهمون بها خصومهم.

وكان قد تم التسجيل في دوائر فويرون، المدينة الصغيرة، عدد سكانها 15.000 نسمة، بتاريخ 20 / نيسان / 1944 موت الطفلة دانييل جوردان البالغة 3 سنوات من العمر، ووالدها أرنست جوردان 43 عاماً، ووالدتها فلورنتينا جوردان ووالدتها ذات 81 عاماً واثنان من عناصر الميليشيا، اللذان كانا يقومان بواجب الحراسة هناك. وكانت إذاعة لندن (BBC) قد نددت بأرنست جوردان في بيان يحمل عنوان " الشرف والوطن" بتاريخ 14 / نيسان / به كرئيس لميليشيا مدينة فويرون وحكمت عليه بالموت.

اتُّهم اثنان من تلاميذ المدرسة المهنية في البلدة، جان كولونا (20 عاماً)، و إدوارد جيرار (19 عاماً) بأنهما هما من قاما بتنفيذ تهديد إذاعة لندن، الذي لم يكن يعني قتل عشرة أفراد من العائلة في غضون أيام قليلة. صحيفة لي باتي باريسيان، نشرت سبعة صور للمجزرة، مع تعليق ساخر " إمرأة فرنسية فظيعة (الطفلة عمرها سنتان ونصف) يبدو أنها على ارتباط وثيق بالألمان، لأن القتلة لم يكونوا يريدون أن ينالوا عقابهم العادل، أطلقوا رصاصاتهم في رأسها، ومن أجل أن يأمنوا فرارهم، هؤلاء الذين لا وطن لهم، أطلقوا عليها رصاصة رابعة ". (3)

في محكمة عسكرية في مدينة ليون، حيث سيق إليها كلا الفاعلان (القاتلان) جان كولونا، وإدوارد جيرار، وكذلك مسؤولهما الذي أصدر الأمر إليهما باول دوراند، حكم على الثلاثة بالإعدام، واقتيدا لتنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص، حيث جرى ربط الثلاثة ووجوههم إلى العمود لكي يتم الرمي من قبلة مفرزة الرشق على ظهورهم. (4)

بعد يوم واحد من نزول الحلفاء في نورماندي، حشد رئيس الميليشيا دونالد قواته التي كانت تُدعى " حراس فرنسا " وهي القوات الخاصة والنخبة من الميليشيا وكان أفرادها ناداهم "ميليشيا الفرنسية انهضوا ... نحن من سينقذ البلاد، غداً ستكون عاصفة، ونستعيد النظام، آنذاك سوف نميّز المخلصين والخونة، الخونة والجبناء سوف يعاقبون، كما يستحقون ." (5)

وبحسب بعض المصادر، فإن هذا الخطاب لم ينفذه سوى 25% من عناصر الميليشيا، وحتى قبل إنزال الحلفاء، كانت معنويات المتعاونين قد هبطت، ولم تعد مرتفعة كما كانت. وإذا كان 25% من العناصر لم تلتحق بالتعبئة، فإن 75 % الباقية ينبغي أن تكون قد التحقت في مواقعها. في القطاع الجنوبي (الذي كان بإدارة حكومة فيشي)، كان عددهم يبلغ بحسب تقدير المؤرخ اندريه بريسوت، نحو 14.000، فيما يقدرها المؤرخ جاكوب ديلبيري في كتابه " تاريخ الميليشيا " ب 8000 عنصر، الكثير منهم انضموا للمليشيات بسبب كرههم وعدائهم للشيوعية، والديغولية.

وبالتعاون مع القوات الألمانية (SS) قامت الميليشيات في المناطق بحملات تحت عنوان التفتيش، بالنهب وحرق المزارع، وقتلت وعذبت كل من ألقت القبض عليه من مناضلي المقاومة، ومن الفلاحين الذين يشكّون في انتمائهم للمقاومة، وبعد قتال لوديس وتريبفان، استطاعت الميليشيا أن تأسر بعض المقاومين، وبعد تعذيبهم، قامت بإعدامهم رمياً بالرصاص. وبعد التحرير عُثر في غابة لورجس على 38 جثة، كانوا قد عُذّبوا قبل إعدامهم بشكل فظيع قبل قتلهم، وكسروا لهم مفاصلهم وحطموا الفك الأسفل , وضُغطت صدروهم لدرجة تكسر الأضلاع، وكانت أفواههم قد خيطت بأسلاك رفيعة.

والمقاومون ارتكبوا بدورهم أعمالاً مماثلة، وقتلوا من أسروا، ففي سانت أماند مونترواند، أسرت مجموعة من المقاومة في 6 / حزيران زوجات عناصر الميليشيا اللاتي تم مبادلتهن لاحقاً برهائن، وأيضاً 13 من رجال الميليشيا. وفي عام 1967 كتب جورج شيلود أن المقاومين أُرغموا على قتل الـ 13 عنصر من الميليشيا لأن الألمان كانوا في أثرهم يتعقبونهم وعلى مقربة منهم.

" الألمان كانوا على مبعدة 200 متر فقط، وقد يسمعون صوت الإطلاقات، لذلك عمدنا إلى شنق سجنائنا، وقمنا بعمل الأنشوطة من حبال المظلات، ولم تكن لدينا الكراسي، وضعنا الحبل على فرع عال، والأنشوطة في رقاب الأشخاص، وسحبناهم إلى الأعلى بكل ما أوتينا من قوة ".

ولكن الحال لم يكن دائماً فظيعاً كما جرى في سانت أماند مونتروند. وفي إيموتيرز أحال قائد الميليشيا جان بابيستا جيروموني إعدام 30 من الرهائن الذين كانوا عند الألمان فتمّ إعدامهم رمياً بالرصاص.

وبالنسبة للكثيرين ممن تعرضوا للخطر بسبب تعاونهم مع الألمان، حان الوقت للهرب، إذ لم يعد بإمكانهم الاعتماد على الدرك الفرنسي لحمايتهم، ولا في الاعتماد على أبناء جلدتهم من الفرنسيين، وقد عزل المتعاونون وأدينوا لتعاونهم مع المحتل.

وفي إحدى صحفهم كتبوا، أنه تجري تصفيات، ففي إحدى القرى قتل 11 متعاوناً، من بينهم عدة نساء في الفترة ما بين 18- 20 / تموز / 1944. (وكان الحلفاء قد نزلوا في نورماندي وبدأت عملية تحرير أوربا.)

في الحقيقة، كان هناك أكثر، فالصحيفة اقتصرت على الأعضاء من منظمة واحدة، والحقيقة أن الميليشيا وضعت خطة لتجميع كافة المتعاونين والمتناثرين في مركز المقاطعة وفي منظمة واحدة.

وبناء على نصيحة من الميليشيا، أخرج هنري (X) وعائلته : والدته، والده، وجدته، وثلاثة شقيقات، وشقيقين، أخرجوا تحت حماية مسلحة مشددة إلى مدينة غرونوبل، ومن هناك نقلوا في موكب عسكري مسلح إلى مدينة ليون. وفي 19 / آب وبالقرب من شامبير هوجموا.. يتحدث هنري " تلقت والدتي رصاصة في ذراعها وأخذت تنزف بشدة. وتلقى شقيقي رصاصة أخرجت جزءاً من دماغه، فأمسكت به بين ذراعي، ولم يكن يستطيع إلا التلفظ بكلمات مفككة، وشقيقتي الطفلة البالغة من العمر تسعة سنوات شخصت بعيونها نحو السماء، أما والدي فقد كان يكرر جملة " يا أطفالي المساكين ... يا أطفالي المساكين، كل هذا ذنبي أنا ".

نحو 20,000 من عناصر الميليشيا وعائلاتهم، تحولوا في صيف وخريف عام 1944 (أي بعد إنزال الحلفاء في نورماندي وقد لاحت نهاية الاحتلال الألماني في فرنسا) باتجاه الشرق، ومعهم 5000 منتمون إلى منظمات أخرى، أو من الصحفيين ومسرحيين مفضوحين بتعاونهم مع الألمان، وأناس أبرياء، وآخرين مذنبين، ضحايا ومسؤولين لم يروا في المستقبل سوى الموت، أو السجن، أو المكوث في المهاجر.

وبين إنزال الحلفاء في نورماندي، والتحرر النهائي لفرنسا من الاحتلال الألماني، كانت فرنسا في حالة من الترقب. حكومة فيشي لم يعد لها حضور، المقاومون في الغابات والجبال لم تكن سيطرتهم ظاهرة كاملة بعد.

كانت الساعة قد دقت، ساعة الرجال الجريئين، والشجعان، العنف. وباسم فرنسا، أو المقاومة، أو الحرية، كانت العصابات تتجمع والذين لم يكن لديهم ميل قوي لمحاربة الألمان، بقدر ما كانوا يميلون للثرثرة مع الناس. رجال لديهم طموحات سياسية، يستعدون لصنع سيرة، والتخلص من منافسيهم واستخدام الإرهاب لعمل جمعيات وتشكيلات.

كانت موجة التطهير خاضعة للسيطرة النسبية، خلال أيلول ـ وتشرين الأول / 1944، قد جرت قبل التطهير الرسمي. والتي كان فيها عدد القتلى أكثر من التطهير الرسمي. بعض الذين قتلوا كانوا يستحقون

مصيرهم فعلاً، والبعض الآخر ممن قتلوا كانت تصفية حسابات سياسية قديمة، أو بسبب الهياج الدموي، أو أسباب مالية، بما يطلق عليه "العدالة الشعبية" المجنونة، هو الانتقام الذي يمارسه المحررون.

يقول الكاتب والمؤرخ الأمريكي هربرت لوتمان (Herbert Lottman) في كتابه التطهير
" أن التطهير يذكر دائماً وأبداً كم يترتب عليها من معاناة، بينما المطهرون صامتين، وهذا يدور حتى اليوم. هذا الصمت هو دفع الكاتب لوتمان أن يبحث في ملفات من تعرض إلى التطهير، ووجد فيها غالباً أنها مزيج (كوكتيل – Coktail) بين الجنس والسادية ". (6)

والانتقاد الذي يوجه إلى القائمين بالتطهير هو افتقارهم للأدلة التي تستحق التطهير، وبالتالي عدم تقديمهم تقارير مكتوبة عن ما قاموا به من تطهير. ولكن على المعسكر الآخر (الذي تعرض للتطهير) أن لا يتردد بتقديم شهادات وإفادات عما تعرضوا له.

ثم أن هناك دليل، فإنني أحتفظ بمذكرات مقاتل من المقاومة الذي عمل في الفترة حزيران – تموز / 1944 (مع إنزال الحلفاء في نورماندي)، في منطقة سافوي وما دونه في مذكراته لا يحتاج أي تعليق " 26 / تموز: تعذيب عنصر ميليشيا (س)، عمره 29 سنة، منذ ثلاثة أشهر، متزوج، وعليه أن ينشر الخشب وهو يرتدي البلوزة، والصدرية، ويُسقى الماء المالح، قُطعت أذناه بالكامل بالحربة، حفر قبره، واستلقى فيه وهو حي. وبآلة حادة فُتحت بطنه، وبقي كذلك يومين حتى مات..

31 / تموز: سيدتان اعتقلتا.
1/ آب: اعتقال قائد الميليشيا (س).
3/ آب: موت إحدى السيدتين، وتعذيب الميليشياوي ووفاته.

في شهر كانون الثاني / 1948 (3 سنوات بعد نهاية الحرب)، وفي مرافعة ومحاكمة عضو في حركة المقاومة سابقاً، وفي حادث تعذيب تعرضت له سيدة لأنها كانت قد قامت بنشر الأخبار الألمانية. الصحفي جاك فورلاكو كتب عن المرافعة: " كانوا يسحبونها، ويضعون على جسدها مواد محرقة، ويضعونها في حظيرة خنازير، ويعيدون وضع الأقراص المحرقة على جسدها، ثم يرغمونها على وضع قدميها في مياه تغلي، ثم يجلدونها بالأحزمة، ثم يعرضون جسدها لأعقاب السجائر والحرق بالمكواة، ويحرقون شعر رأسها، وأخيراً عندما أرغموها أن تجلس في مياه تغلي عُلقت بعدها من ذراعيها وأطلقوا عليها طلقة مسدس ".

وفي نيسان / 1942 افتتحت إذاعة لندن، ما أطلق عليه المجموعة (T) بكلمة (Traltre) " خائن ". بوضع إشارات بحرف (T) على باب كل بيت من يتهم بالخيانة، سواء بالتأكيد، أو مشتبه بالخيانة، " لأن في يوم الحساب سيدفعون كل ما عليهم حتى آخر قرش ".

" الالتزام بالقتل " كتب الكاتب المقاوم اليميني فيليب فياناي (Philipe Viannay) في 15 آذار 1944 في مقال بدأ بجملة " نحن لسنا متحمسين (عاطفيين) قتلة ولكننا قبل ذلك متحمسين لحياة سلمية وسعيدة ". وواصل مقالته " نقتل الألمان لكي ننظف أرضنا منهم ولكي تكون حرة، ولأن الألمان يقتلوننا. اقتلوا الخونة الذين يساعدون العدو، اقتلوا عناصر الميليشيا وأبيدوهم، لأنهم تطوعوا بإرادتهم، ليقوموا بإرسال الفرنسيين للعمل في ألمانيا، وهم كالكلاب النابحة علّقوهم على أعمدة النور في الشوارع، هم كالحشرات للإبادة. اقتلوهم بلا رحمة، لا تدعوهم يعذبوكم، نحن لسنا جلادين، بل جنود. اقتلوهم بلا رحمة أو شفقة، لأن هذا واجبك، واجب مؤلم، الواجب عدالة ".

في 27 / حزيران / 1944 (بعد نزول الحلفاء) وصل العقيد برنارد أينسوك إلى بريساك مقاطعة شارينت، الذي كان سابقاً عضو في اللواء الأممي في إسبانيا (إبان الحرب الأهلية الإسبانية 1936 - 1939)، ومن كتاب صحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي اللومانتيه. ومع برنارد جاء أولئك الذين يسمون أنفسهم " العدالة الشعبية " محكمة مخيفة برئاسة أحد عناصر المقاومة الذي يطلق على نفسه " القائد غاندي ".

برنارد ورجاله اعتقلوا حوالي 200 شخص، وأخذوا المعتقلين معهم، وابتدأت فوراً محكمة الشعب، وابتدأ العمل، برنارد أدان امرأة (س) وأولادها الثلاثة، وحكم عليهم بالموت. كانت مشتبهة بالعمل لصالح الغستابو (الأمن الألماني). وجرى نفس الشيء مع النجار (س) الذي كان ذنبه الرئيسي أنه كان على خلاف في الرأي مع أحد أعضاء المحكمة.

المحكمة كانت بلا تحقيقات، ولا مع شكليات المحاكم. فالمتهمين لم يكن لديهم محامين، ولمن يحكم عليه بالإعدام لا يحصل على كاهن، ولا كفن لمن يعدم، وكان يتم كل شيء بين الاعتقال والإعدام في غضون ساعات قليلة. وكان قرار الحكم لأكثرهم بالموت. " أنتم بالنسبة لنا أعداء سياسيون وإننا سنقوم بإبادتكم ". وكان هذا يشمل أيضاً خصوماً سياسيين من عهد حكومة الجبهة الشعبية (حكومة اشتراكيين 1936)، الذين كانت محاكمتهم قصيرة، أو مواطنين تم البحث عن ممتلكاتهم ونهبوا بشكل علني وعلى نطاق واسع.

في 4 / تموز جلبت السيدة فرانسواز بينكود إلى بريسك أيضاً، وكانت قد تزوجت منذ بضعة ساعات فحسب، جلبت مع زوجها مباشرة من الاحتفال الديني أثناء عقد الزواج في الكنيسة، جلب معهم الكاهن أيضاً، الذي اتهم أنه ألقى كلمة قصيرة في جنازة أحد المقاومين.

بماذا يمكن اتهام السيدة بينكود ؟ في 13 / آذار/ 1943 كانت مؤيدة لبيتان، مثل كل البرجوازية في منطقتها، وذهبت لحفلة أقامتها الميليشيا،، وفي 6 / أيار / 1943 حصلت على شارة الميليشيا، وبعد ثلاثة أشهر استقالت منها، ولم تعد تساهم إلا في الأعمال الخيرية. ولكنها ارتكبت خطأً واحداً : إذ أتلفت جميع المواد الدعائية للميليشيا، ولكنها أبقت على شارة الميليشيا.

" بعد أن عثرنا على البرهان أن العروس كانت منضمّة إلى الميليشيا، قرر المقاوم الملازم روبرت ، " أنا سأطلق أيادي عناصري، أن يأخذوا المواد الغذائية وكل ما نحتاجه " وأخذوا ما حمولته شاحنتين، ليس فقط سجناؤهم، ولكن فعلاً أخذوا كل شيء، من أطقم الشاي، حتى زجاجات النبيذ المعتقة، ومن المجوهرات، حتى فخذ الخنزير المحفوظ.

وكان دفتر مذكرات زوج فرانسواز بينيكود وقع بيد القائد في المقاومة برنارد، الذي فيه إشارات إلى زوجته بأنها لم تشارك في أي من أنشطة الميليشيا، وبعد حضورها أربع اجتماعات استقالت وتركت الميليشيا، ومزق برنارد الصفحة 8 / آب / 1943 من المذكرات، وأعلن، " نحن نحتفظ بالأدلة التي تهمنا، وسنتلف الأخرى ".

" في اليوم التالي في الساعة الثامنة مساء " أفاد الشاهد جورج بينيكود سمعنا صوت إطلاق نار. ثم جاء حارسان، ليأخذا فرانسواز، كما هي في ثوب عرسها، وعندما مرت بالقرب مني ، طلبت مني أن أصلي لأجلها، وهي ستفعل لنا ذلك أيضاً وهي في الدنيا الأخرى، ونحو 500 متر خارج القلعة، أُعدمت رمياً بالرصاص ".

بعد 40 عاماً من الأحداث، وبعد أن درست وبحثت في الملفات، الأقاويل وإفادات الشهود، عن الإرهاب الذي ساد المنطقة آنذاك، ولكن لا أحد من المواطنين يجرؤ على التحدث عنها للصحافة، ما يزال الخوف يتملك المواطنون.

وإجمالاً، فقد قتل العقيد برنارد ورجاله ما بين 50 – 100 شخص رمياً بالرصاص، لا بل تحدث قاضي التحقيق في مدينة أنغولم (Angouleme) عن إعدام 500 – 600 شخص، وبين من أعدموا رمياً بالرصاص صبي يبلغ من العمر 16 عاماً، وسيدة حامل في الشهر السابع، وصديقة رجل تشيكي كان يخدم في الجيش الألماني، كانت قد رفضت أن تكون عشيقة ضابط برتبة ملازم في المقاومة.

في 7/ نيسان / 1954، تحدث النائب الاشتراكي جان بايل أمام الجمعية الوطنية في باريس (مجلس النواب) عن اغتيال رئيس البلدية الاشتراكي عن بلدة شامبيريت (Chamberet) رينيه بوزين. النائب جان بايل "إنني أخشى أن مأساة هذه الناس في ليموزين (بلدة وسط فرنسا) هي واحدة من بين الكثير في أماكن أخرى". في الحقيقة كان من جملة تصفية حسابات بين الشيوعيين والاشتراكيين في إدارة المقاطعة.

كان بوزين قد شكل في آب / 1943 جماعة مقاومة ديغولية، ولكنه سرعان ما اصطدم مع الشيوعيين في المقاطعات المجاورة، الذين يريدون أن يسيطروا على المنطقة بأسرها لوحدهم . ومن أجل أن يحصل بوزين على السلاح، أجرى اتصالاً مع ثلاثة من الضباط الديغوليين، من أجل تأمين السلاح. ولكنه ومجموعته هوجموا من قبل مقاومين من بينهم ضابط برتبة رائد اسمه شارلوت وقد تم نقل الضباط الثلاثة مع سائقهم، بعد تحقيق قصير اقتيدوا إلى غابة مجاورة، وهناك أطلقوا عليهم النار وأردوهم قتلى، ولم ينجُ من المجزرة سوى السائق الذي أبلغ عن تفاصيل ما جرى.

ثم جاء الدور على بوزين وصديقه لير والملازم بيربغود، الذين أخذوا بالبحث عن الضباط الثلاثة المفقودين، وعندما ألقي القبض عليهم من قبل نفس الرائد شارلوت، الذي أدعى أنه يتحدث باسم غوينغوين، وطالب الثلاثة بالحديث مع غوينغوين، لذلك أخذوهم بالسيارة، لاحظ الملازم بيريغود بسرعة أن السيارة لا تسير في الطريق إلى مقر غوينغوين، وحاول الفرار، ولكنهم أطلقوا عليه النار فأصيب، وحاول الزحف لمسافة 100 متر، ولكنهم عاجلوه برصاصتين قضت عليه. أما بوزين وصديقه لير، فقد أُخِذا حيث هناك بالقرب من مقر للرائد شارلوت، وأعدموهم بطلقة في رقابهم، ووُجدت جثثهم في 26 / آب / 1944 .

في 7 / نيسان / 1954 وخلال مناقشة ما جرى في مدينة ليموزين، في الجمعية الوطنية (البرلمان) قطعت الجلسة قبل منتصف الليل بقليل، وأجّلت إلى تاريخ لاحق، ولكنها لم تبحث أبداً.

في العديد من الآبار والينابيع والمناجم في فرنسا بعد التحرير، وجدت جثث، الضحايا هم ألمان، أو متعاونين، وفي معظم التحقيقات التي جرت، عرف القتلة وعوقبوا. ولكن لم يتحدث أحداً عن ينابيع فونز في مقاطعة أردبتش، ولو لم ينجح الصحفي غابريل دومنيك في التغلب على جدار الصمت ويبلّغ عمّا جرى، ففي كانون الأول / 1950، كتب تقريراً في مارسيليا ميروديونال حيث أبلغ عن حفرة فيها جثث، مجزرة على الأرجح المقاومة مسؤولة عنها.

وحتى يومنا هذا، من غير الممكن القول، كم جثة في منجم الفحم المهجور ذو العمق 42 متراً. حيث الجير السائل، وصخور تزن الواحدة منها حتى 60 كيلوغرام والحطام والأنقاض. أخصائيون من شركة غليسال وأعمالها ويا للغرابة، لم يكن الدفع لها ومن الدولة الفرنسية، بل من الألمان ، ولأن حتى هناك جنود ألمان قذف بهم إلى المناجم، وفي عام 1959 انتشل 34 هيكل عظمي، والصحفي دومنيك نفسه تحدث في البداية عن 215 ميت، ثم ارتفع إلى 292.

باستثناء موريس شافنت، وهو مقاتل سابق في المقاومة، كانت إفادته، نشرها دومنيك، بصمت القضاة السابقون، ومن تولى الإعدام، ومن بينهم على الأقل اثنان على قيد الحياة، وعبر القائد السابق في المقاومة، فورنيه عن رغبته بإيجاد المسؤولين ومعاقبتهم، لكن موقف الصحافة الشيوعية ظل غامضاً جداً " من يعتقد " هكذا كتبت صحيفة الحزب الشيوعي فالمي (Valmy)" بسبب جثث بعض جنود (SS) الألمان يحاولون تقسيم السكان وتسميم الأفكار".

واحدة من أكثر الصور الصادمة المثيرة للاشمئزاز، بين الفرنسيين هي بلا شك النساء اللاتي تم تدميرهن. والصور معروفة في كل فرنسا، وهذه رسالة من بيرجيو، سيدة معاصرة للحدث: النساء اللاتي أقمن علاقة ما مع ألمان، توجب عليهم المعاناة أكثر من غيرهن. عاريات حتى الخصور، اقتدن عبر شوارع المدينة، وقد حُلقت شعور رؤوسهن تماماً وبعض الأحيان فروة رؤوسهن، كان الدم يتدفق من جروح رأسهن بغزارة، وأحياناً رسم وشم الصليب المعقوف بين نهودهن (الصليب المعقوف رمز النازية) لأن شعر الرأس ينمو من جديد، ولكن الوشم لا يزول " .

غالباً كانوا يجلبون النسوة إلى ساحة كدار البلدية مثلاً، على أية حال في مكان يستطيع أي شخص مشاهدتهن، ثم يجلسن على كراسي ويشد وثاقهن من قبل الرجال، بعدها يجري جز شعور رؤوسهن، كان أحياناً يتم تعريتهن كاملاً، لكن على الأغلب يبقين بالسروال الداخلي وحمالة الصدر، ويسرن في شوارع المدينة، بعدها يذهبن إلى السجن، ولكن الهونُ والإذلال لم يكن قد انتهى بعد ...!

و

هنا إفادة شخص يدعى سيرج (V) " لما كنا في نوبة حراسة، كنا نقتادهن، زملائي وأنا إلى العمل، في الساحة، كنا ندفعهن بأعقاب البنادق لحملهن على السير أسرع. وإذا يذهبن إلى المرحاض، ويقفلن الباب، كان الجنود دائماً يدفعون الأبواب، حقاً كانت سادية ".(7)

كانت هناك أساليب أخرى لتعذيب النساء، في رويشيايلي بالقرب من بلدة غرونوبل، جاءت اثنتان من السجينات المجزوزات الشعر، كان آثار الحرق على ظهورهن، إحدى السيدات كانت تعمل كمخبرة وسلمت 24 رجلاً، وفي المحكمة العسكرية بتاريخ 3 / شباط / 1950 .

" اعتقلت أولفيرا سوية مع زوجها، وأمرت بأن تخلع ملابسها كاملاً وتصبح عارية، وجرى التحقيق معها من قبل أربعة رجال (م/ ق / م / ج) وحاولا قص شعر العانة في جسدها. ووفقاً للائحة الاتهام نفسها، جيء بسيدتين سجينتين، وجرى فحصن فيما إذا كن يصلح للعمل في بيت دعارة "، ولكنهن " لم يستطعن ذلك " كما قال شاهد عند قاضي التحقيق.

في بلدة سانت فلور (Saint Flour)، كان هناك في القرن 12 في جدار الجسر، الغرفة التي كان بابها مبنياً، في داخلها كانت سيدة سجنت نفسها حتى نهاية حياتها هناك اختياراً، لتحمي نفسها وغرفتها من الطاعون، ومن خلال رفوف وفتحات، كان سكان البلدة يقدمون الغذاء لهذه السيدة التي كانوا يطلقون عليها (سجينة نفسها).

بعد ثمانية قرون جرت أحداث مماثلة في سانت فلور عينه، اعتقلت السيدة أستر البوي مع أربع نساء أخريات. كانت أستر البوي قد اعتقلت في 24 / آب / 1944 عندما كان عمرها 20 عاماً كان لها علاقة مع جندي ألماني، وبعد أن حلق شعر رأسها أرغمت على أن تعلق لافتة كتبت عليها عبارة مشينة. وفي 20 / تشرين الأول . فيما بعد أشغلت أستر في البريد، واعتقلت مرة أخرى لأنها شوهدت تتحدث مع أحدهم باللغة الألمانية، وبعد عدة شهور من الاعتقال تبين أن هذه الادعاءات لا نصيب لها من الصحة فأطلق سراحها.

وكان شعرها قد نما مرة أخرى، ولكن شرفها، وهو أكثر ما يفتخر به الفقراء، كان قد ذهب. أكثر من 38 عاماً، وسكنت في بيت صغير للراهبات الكرمليين، ومعها والدها ووالدتها، وشقيقتها تيرزا التي كان عمرها آنذاك 19 عاماً، وشقيقها ريمي وكان سنه آنذاك 17 سنة، والطفل هوبرت الذي ولد عام 1941 ليحيا الحياة اللعينة.

يتحدثون في سانت فلور، ولكن ما لا يقولونه، أن أستر كانت تغادر البيت فقط مساء، وبرفقة والدها، بعض تجار المواد الغذائية كانوا يجلبون هذه المواد، ويضعونها بباب الكوخ. في مجرى السنوات توفي الأب والأم، ثم تخلت تيرزا عن هذا الانعزال (الحبس) الاختياري، وأخيراً توفي الشقيق، واحتفظت أستر بجثته، بجانب الغرفة التي ينامون فيها ويأكلون، وأخيراً في 20 / تشرين الأول / 1983 قامت الإطفائية بتحطيم المعتكف (الكوخ).

وقد حصل لفتاة فرنسية صديقة لجندي ألماني ما يشابه ذلك، كلاهما كانا يسيران في الشارع، بين الناس الذين كانوا يتفرجون معجبين، في آب / 1944 عرض الجيش الديغولي في باريس بقيادة الجنرال لوكلريك، عنصر الجندرمة مرسيل يتذكر أنه بذل جهداً كبيراً لحماية هذا الجندي الألماني الذي كان قبل 14 يوماً قد سلم نفسه طوعاً دون مقاومة. وقد نجح في إنقاذه من أيدي رجال المقاومة، وقد لوحقا حتى وصولهما دائرة الدرك، لكن الصديقة الصغيرة أبت أن تتركه بأيدي رجال المقاومة، وعادت بعد 20 دقيقة، لم تعد تعرفه، كما عبرت هي بنفسها، " كان الرأس قد حلق بالموس كبيضة، ولحسن حظها لم يكن لديها عذابات أخرى. الفتاة الشابة والجندي وقفا قبالة بعضهما يبكيان بحرقة ". (8)

وضد غضب سكان باريس، كان على العقيد جاك ماسو (آنذاك، وفيما بعد جنرال وقائد القوات الفرنسية في ألمانيا) حماية 150 سجين ألماني. وأحد المتعاونين السابقين (مع الألمان) هجم وبيده سكين على السجناء وهو يصرخ " يجب أن أقتل أحدكم ..... يجب أن أقتل أحدكم ". (9)

والعقيد ماسو لم يكن بوسعه أن يكون في كل مكان، ويبدو أنه ليس جميع الـ (4200) الألمان الذين قتلوا في باريس، قتلوا في معارك نظامية، فهناك أعداد لا يمكن معرفتها من المساجين والأسرى الألمان قتلوا على أيدي مقاومين، وأشخاص آخرين.

ولكن ليس في باريس فقط جرت أعمال انتقام، بل وفي سائر المقاطعات وخاصة جنوب شرق وجنوب غرب فرنسا. وبعد مذبحة أورادور، وعمليات الإعدام في تولا، وفي مناطق أخرى، وحيث جرى قتل الجرحى الألمان أيضاً. في فرنسا عام 1944 حدث كل شيء من أعمال وأعمال مقابلة.

وليون فارج، الذي كان خلال فترة الاحتلال والمقاومة، يعمل في النضال السري، الذي أصبح بعد الاحتلال مفوض دولة (وزير) حاول عبثاً العثور و البحث عن مسؤول ألماني لكي يحول دون إعدام المزيد من المقاومين، واليهود، وسجناء، بعد أن قتل فعلاً 200 شخص منهم. وكعمل انتقامي، قام بعد تحرير مدينة نانس بإعطاء الأمر بإعدام 80 أسير ألماني من بين 1200 أسير لديه.

حدث هذا في 23 / آب / 1944، ولكن الأمر لم يثار قبل عام 1964، عندما أرادت مدينة نانس الفرنسية، عقد اتفاقية صداقة مع مدينة بايروت الألمانية، أحد سكان المدينة الفرنسية، الذي كان شخصياً في آب / 1944 كان سجيناً في نانس، أخبر صحيفة بايروت اليومية عن الإعدامات التي كل من الذين أعدموا فيها لم يكن قد قُدم للمحاكمة.

وأدلى كاهن بروتستانتي، وكاهن آخر كاثوليكي، اللذان كانا حتى الساعات الأخيرة إلى جانب الذين أُعدموا، أبلغا أن بين السجناء الألمان كان العديد من الشبان من صيادي الجبال، الذين كانوا قد وصلوا إلى نانس قبل أيام معدودة فحسب، ولم يكن لهم علاقة بأحد ولا بأي قدر.

ولكن دماء كثيرة سالت، تدفع إلى مزيد من الداء ... هذا من جانب، ومن جانب آخر، لم يكن أحد لينظر في هذا الصيف الحار لعام 1944، والوحشية التي جرت فيه إلى أعمار الضحايا، ولم يفكر أحد أن يفصل بين الأبرياء، ومن هو من والمسؤولين عما حدث وجرى، والوقت لم يكن قد حل بعد للتهدئة أو للمصالحة، ولم يكن قد مر وقت يكفي للنسيان.

انتهى .

تحليل المترجم للفصل الرابع

يستعرض المؤلف في هذا الفصل، الذي وضع هذا العمل ونشره عام 1990 أي بعد 46 عاماً على الأحداث، وأقوى علاقة سياسية واقتصادية وعسكرية اليوم في أوربا هي بين ألمانيا وفرنسا، وقد جرت مياه كثيرة في العلاقات الفرنسية / الألمانية، وهذه الأحداث يفترض أنها أصبحت من الماضي.

حدث وأن اطلعت مرة على استفتاء أجري في فرنسا، فيما إذا كان الناس مستعدون لفتح صفحة جديدة (هي مفتوحة رسمياً) بين الشعبين، كانت النتائج من شبان وشابات ولدوا بعد نهاية الحرب بسنوات طويلة، مخيبة للآمال ... قد تكون ذاكرة الأفراد حيال ذكرياتهم الشخصية تضعف بمرور السنوات، ولكن ذاكرة الشعوب الجمعية قوية، وهذه نتيجة مهمة توصلت إليها كمؤرخ مجاز.

المبالغة والتطرف والإسراف في كل شيء ولا سيما في العنف (القتل) وإطلاق العنان للغرائز غير الإنسانية، ستجر إلى مواقف مماثلة. نحن نقرأ التاريخ، ندرسه، نشرحه وندرسه بهدف تكوين الخلاصات المفيدة، وأن نتعلم من تجارب غيرنا، ومن يقرأ هذا الكتاب سيتأكد أي درك منحط كان فيه هؤلاء من ارتكبوا هذه الجرائم والمسؤولون السياسيون بالدرجة الأولى، وهنا لا يفيد أن يتذرع أي شخص ...:

" لم أكن أدري " ، " لم أوافق "، " أمرني مسؤولي "

هذه ذرائع لا تنجي من المسؤولية السياسية أو الجنائية.

هوامش الفصل الرابع

لا أنكر أني أترجم هذه الفقرة بسرور وفرح، إذ ثبت لي أن الخونة والمتعاونيين موجودون في كل مكان، وفي كل بلد، والصلاحية هي في جوهر الفكرة تكمن في قاعدة: " أن المتعاون خائن في كافة قوانين الدول ويستحق الاحتقار، وأن المقاوم بطل مضحي لشعبه ويستحق الاحترام ".

هنا بضعة سطور عن حرب مخبرين دارت، فرنسيون يخبرون ضد فرنسيين، لأسباب عديدة، منها أسباب كيدية، إضافة إلى الأسباب السياسية. وأجواء المخبرين دائماً منحطة ووضيعة شكلاً ومضموناً.

هذه أحداث فظيعة، جرت في فرنسا خلال الاحتلال، والاحتلال غير قانوني، وفعل لا إنساني، وبالتالي ستكون له ردود فعل يقوم بها الناس، يقوم بها شبان ورجال غير مؤهلين قانونياً وسياسياً، والكثير من الأفعال وردود الأفعال لا علاقة لها بالسياسة، تدخل في إطار الأعمال والفعاليات شبة العسكرية.

يطلق على المفرزة التي تتولى الإعدام رميا بالرصاص " حظيرة الرشق ".

تشير المعطيات أن ميليشيا حراس فرنسا هي في الأساس حركة سياسية فاشية، وأن تعاونها مع ألمانيا كان تحت هذا الإطار الفاشي، ولكن بالطبع دخلها الانتهازيون والباحثون عن المكاسب.

أوافق على هذا التحليل، من خلال معطيات تاريخية، أن الذين يقومون بالتصفيات هم مرضى نفسيون في الغالب، ولايخلو من السادية وجذرها هو الجنس.

السادية (Sadisem) نزعة جذورها جنسية، يقوم المصاب بها، بتعذيب الشخص الآخر من أجل أن يتلذذ بالتعذيب، وبمعنى جنسي.

من العجيب أن بني البشر بمجرد أن يتوفر لهم غطاء قانوني، وظيفي، ديني، وطني، ثوري، يبدأ بالفتك بالبشر الآخرين سيان درجة مخالفتهم لآرائه ومعتقداته، هنا نشاهد وحشية غريبة، صحيح أن الفلاسفة اليونانيين كانوا قد كتبوا، وورد في القرآن الكريم " النفس أمارة بالسوء " إن البشر اعتدائي بطبعه، ولكن القانون يردعه، والقانون هو شرعي أو وضعي، ولكن بمجرد أن يفلت من هذا الوازع، يتحول إلى حيوان مفترس, قليلة هي الحيوانات التي تأكل بعضها، ولكن البشر في مقدمتها.

يبدو أن هذا الخائن المتعاون، يريد أن يقتل جندي ألماني سجين، ليبيّض صفحته السوداء، وفي مثل هذه الظروف، كل شيء يطفو على السطح، أبطال، أوغاد، خونة، شجعان، جبناء، أبرياء، مجرمين ...إلخ .. كل شيء جائز في القدر الذي يفور ويفور ...!

المقاومة السوفيتية ضد الغزو الألماني
1941 – 1945

ضرغام الدباغ

برلين
2017

الفهرس

مقدمة

الفصل الأول: التعريف ـ الوضع القانوني ـ واجب المقاومة ـ دورها في الحروب
الفصل الثاني: حرب المقاومة في الاتحاد السوفيتي
الفصل الثالث: المقاومة السوفيتية.
الفصل الرابع : مشاركة النساء في المقاومة

صورة الغلاف : تمثال فولاذي لمقاوم سوفيتي .. يحمل الغدارة السوفيتية المشهورة " شباغن " .

إهداء

إلى المقاومين الأوائل في وادي الرافدين

الشهيدة البطلة نوشة الشمري

الشهيدة البطلة وداد الدليمي

مقدمة

منذ مطلع شبابي وأنا متولع بقراءة كتب الثورة بالمقاومة، فكراً وأدباً، وتأريخ حركات المقاومة في العالم، وأدب الرفض، أضافت لها تجربتي السياسية والنضالية الكثير، وفي سنوات السجن الطويل، زارني الصديق والرفيق القديم الدكتور رشدي طالب الرشدي، أستاذ الأدب الألماني (اختصاص أدب المقاومة العربي / الألماني) ورشدي أيضاً زميل الدراسة الجامعية، إذ تزاملنا في مرحلة الدكتوراه في جامعة لايبزغ / ألمانيا، وسألني عما أحتاج، فطلبت منه كتب ألمانية فقط. وفعلاً أهداني عدة كتب أدبية وكلها من أدب المقاومة، غير التي عندي، فاشتغلت كثيراً في السجن وترجمتها وغيرها إلى العربية، كانت الكتب خير معين لتحمّل تلك السنين، فترجمت نحو عشرين كتاباً، وبقدرها أو أكثر تأليفاً. حتى أني طلبت من صديقي الصدوق طيب الله ثراه كتباً باللغة الألمانية، فقلت له أن الكتاب والعمل أصبح بالنسبة لي قضية حياة أو موت، فغر فاه دهشة رحمه الله، وفعلاً أمدني بالكثير منها، كان يبحث عنها في كل مكان ببغداد.

كنت قد ترجمت في وقت بعيد (1986)، كتاب " الحرب الأهلية الإسبانية "، ووقتها عرض علي مبلغ 10,000 دولار ولم أبيع الكتاب، ولكن عندما طبع ونشر عام 2012، لم استفد بسنت واحد منه .. لاحظ تغير أحوال الدنيا.. ولكن الكتاب حظي بتقريض كبير. وتوالت أعمالي في تاريخ حركة المقاومة، في العديد من البلدان، في إسبانيا، والمقاومة الفرنسية، وتاريخ الثورة الأمريكية، وتاريخ الثورة الكوبية، وتاريخ المقاومة الألمانية ضد النازي (رواية)، وأخيراً المقاومة الروسية.

الأحداث تتكرر كما أسلفت، وخير من وصف هذه المتوالية التاريخية الكاتب الفرنسي الكبير هنري آمور بقوله " الاحتلال الألماني لفرنسا : مقاومون أبطال ـ متعاونون خونة " هذه الثنائية تتكرر عبر التاريخ وفي كل البلدان، ومن يتأمل ويفهم التاريخ بوصفه علماً مادياً يفهم هذه الثنائية مع وجود عناصر أخرى جانبية. المقاومون لهم منطقهم أن لابد من الحفاظ على الوطن، المحتل مهمته تدمير البلاد، ولم يشهد التاريخ لليوم مستعمراً شريفاً، والقضية لا تحتاج إلى ثقافة، بل غيرة الإنسان على بيته فقط. وأذكر أني قرأت مرة نصاً بليغاً، كان جنرال فرنسي مستعمر يحدث رؤساء القبائل في المغرب أو في الجزائر، يحدثهم ويسهب في الحديث، وأخيراً بعد أن شاهد عدم تفاعلهم مع حديثه، قال:" أنتم لا تفهمون، نحن سنعمر هذه البلاد ونعلمكم الحضارة ". فأجابه أحد زعماء القبائل، نحن نفهمك ونريد أن نصدقك، ولكننا لا نرى معكم سوى المدافع والقنابل والطائرات والجنود، ولم نشاهد طابوقة واحدة. ولم تبني فرنسا ولا بريطانيا ولا أميركا ولا إيران، وإيران ليست دولة استعمارية (كوصف علمي، المستعمرون دول صناعية) بل توصف حسب تكوينها وسياستها دولة همجية، فكل ما شاهدناه هو التخريب والقتل ومحاولات لمحونا ...!

مرة سألت بروفسور ألماني في كليتنا، قلت له: نحن ندرك بشكل علمي رياضي، أن الاستعمار والإمبريالية خسروا ويخسرون وسيخسرون كافة مشاريعهم التوسعية، وإذا كنا أنا وأنت نعرفها، ألا يفهمها الإمبرياليون والمستعمرون، قال طبعاً ولذلك تراهم يبالغون في القتل والنهب، ويبتكرون طرقاً جديدة يعتقدون أنها ستنقذ نظامهم.

كتبت وترجمت، وقرأت عن تاريخ ثورات وحركات عديدة، من أميركا الشمالية (الولايات المتحدة) وأميركا الوسطى (كوبا)، وأميركا اللاتينية (فنزويلا) والمكسيك، وأوربا (إسبانيا، فرنسا، بلجيكا، النرويج، ألمانيا، اليونان، جيكوسلوفاكيا، والاتحاد السوفيتي " روسيا وأوكرانيا، وفنلندة، وبيلوروسيا " وفيتنام والصين الشعبية، والمغرب، والجزائر، وليبيا). بهذه الحصيلة الوفية من القراءة والكتابة والترجمة، وسماع أناشيد كثيرة بكلمات بليغة جداً، (كنشيد كومونة باريس، وأغنية التضامن من تأليف بيرتولد برشت وغناء أرنست بوش، ونشيد المقاومة الإيطالية بيلا تشاو، ومشاهدة أفلام وثائقية وسينمائية/ ومشاهدة لوحات تخلّد المقاومة والمقاومين والشهداء بعض تلك الأعمال سيبقى خالداً مثل لوحة بابلو

بيكاسو لوحة غورنيكا عن القصف الألماني الوحشي للقرية الإسبانية / الباسك غورنيكا، ولوحة فرانسيسكو غويا الإسباني إعدام ثوار، وأعمال الرسام الألماني الكبير آرنو رنك، ولوحة ديلاكروا عن ثورة شعب باريس 1830، وأعمال ونصب وتماثيل وجداريات ذات قيمة فنية هائلة، خلقت لدي حصيلة فكرية وذهنية وتصور إنساني قبل كل شيء عن الثورة والمقاومة والمقاومين ...

قرأت جملاً كثيرة ومصطلحات وعبارات، قرأت وترجمت أشعاراً في غاية التأثر وصفحات كنت أترجمها وأنا أبكي .. قرأت كتابات وترجمتها تقرع في صدغي لا تقبل أن تغادر فكري وضميري : خطاب القائدة الشيوعية الإسبانية دوريس أيباروري، في وداع المقاتلين الأجانب في الحرب الأهلية الإسبانية ضد الفاشية، شعر بول إيلوار، كلمات لا تنسى للشاعر والكاتب التشيكي يوليوس فرجيك وهذه نفحات منها :

" كنت أتوقع الموت ولكن ليس الخيانة "

" كنا سنذوق الموت أنا وهو، ولكن سائر الرفاق كانوا سيبقون على قيد الحياة ولواصلوا العمل في الطريق الذي سقطنا من أجله. إن الجبان قد يفقد أكثر من حياته، لقد ضاع، فر من جيش المجد، وألحق بنفسه عار الخيانة والقذارة. وحتى من أجل الحياة ...! الخائن لم يعد على قيد الحياة، لأنه وضع نفسه خارج المجموع، لقد حاول فيما بعد أن يفعل شيئاً جيداً، ولكنه لم يفلح أبداً في محو ما فعله في السجن من فظاعات كما لم يحدث أبداً "

"المخلص سيبقى صامداً، والخائن سيخون، الضعفاء سيصابون بالحيرة، والأبطال يناضلون. في داخل الإنسان تستقر غالباً عوامل القوة والضعف، الشجاعة، الخوف، التماسك، الاهتزاز، النقاء، القذارة، وإلى جانب بعضهم البعض، ولكن هنا، لا يمكن إلّا لأحدهم البقاء، أو عندما يحاول امرؤ، ويا للعجب، أن يرقص بينهما، فإنه سيكون عجيباً، كالذي يريد أن يرقص بريشة صفراء على قبعته، وبيده عصا ملونة في مسيرة جنائزية."

بوسعكم أن تنتزعوا منا الحياة ... ولكن ليس شرفنا ...!

الرفاق الذين سيبقون أحياء بعد هذه المعركة، والذين سيأتون إلينا، إنني أشد على أياديهم ، فإننا قد نفذنا الواجب. إنني أكرر مرة أخرى: ومن أجلكم سوف نموت

" وما هي الحياة بالمقارنة مع مجد البطولة ...!!"

" امض بشجاعة في هذا الدرب، أو دع الخوف يتملكك وتنح عن الطريق، إنك لن تقدر على ذلك في كل الأحوال، والفساد لا يتسلل إلا من خلال الخوف فقط "

قبل أن يعدم يوليوس فوجيك بقليل، ينهي دفتر مذكراته " تحت ظلال المشنقة " يقول :
" أردت أن أرسم لكم صوراً، ولكن للأسف لم يتبق إلا ساعات قليلة، أقل مما يكفي لإنشاد أغنية قصيرة ".

إن الأدب الثوري، يعلّم الشرف، والوطنية، وأن تكون صلباً بوجه أعتى الأعاصير والمحن، أن يقدم الإنسان حياته بسرور لما يؤمن به، شاهدت صورة يعجز عقل الناس اليوم من فهمها، شاب روسي مقاوم، يعدم مع رفيقته، ينظر إليها وهي تهوي في آخر أجزاء الثانية يبتسم ترى ماذا كان يفكر : لقد ربحت ومت قبلي، أو إلى اللقاء .. أو لن ينسانا رفاقنا .. بل قل أيها الشاب البطل لن تنساكم الإنسانية بأسرها ورفيقتك البطلة .. ها هي صورتكما تظهر بعد 75 عاماً في بلد غريب عنكما هو العراق سيقرأ الناس أمثولتكما،

وتضحيتكما لم تضع سدى ..! أمثال هؤلاء الشباب بالملايين لا يعرفهم أحد وهذان البطلان يُكتب عنهما بعد 75 عاماً ..

(لاحظ الابتسامة الصادقة على وجه الشاب والحبل في رقبته يبتسم لرفيقته)

الأدب الثوري، يعلّم الناس القيم الشريفة، قيم تخدم الناس، أمثولات في خدمة الوطن والشعب. لا أدب يخدم الغايات الدنيئة للأفراد، " اضرب ضربتك " الّي ضرب ضرب، والّي هرب هرب " عبر وحكم سخيفة تمجد الانتهازية، والخيانة والسفالة والرشوة والفساد وخيانة الشعب.

إن في قراءة التاريخ بوصفه علم، لا حكايات ومسليات، بل بوصفه العلم المادي لفهم التاريخ، بهذه وحدها تتحول القراءات إلى خزين ثقافي علمي يرشد للمواقف السليمة، يعلم كيف نفهم الحياة والتطور، وما معنى التراكمات، وتحولاتها، كيف تنضج مرحلة وتسقط أخرى، ولماذا ؟ ما هي المستحقات التاريخية ومتى يحين أوانها .. عزيزي القارئ إن تعلمت هذه العبر تصبح وكأنك تعيش الحياة في كتاب مفتوح .. لا أسرار ولا غوامض ولا مفاجآت.

الأعمال التي أقدمها كهذا الكتاب مثلاً، فالمصادر في اللغة الألمانية وفيرة جداً، ولا سيما في الإنترنيت، فأنا أقوم بتجميع بحوث، أترجم بعضها نصاً، وأخرى أستقي منها، وفي الأخير أرتبها وفق سياقات القراءة المفيدة، وهناك سلسلة كتب رائعة جداً اسمها التاريخ المصور، كتب مختصرة مفيدة مدونة بشكل علمي موثوق لأن الكتّاب كلهم أساتذة في أكاديمية العلوم الألمانية والسلسلة المتوفرة عندي 54 عدد، هناك بعض الأعداد تنقصني، أبحث عنها في الإنترنيت لدى هواة الكتب. نحو 10- 15 منها كلما أنظر إليها أتأسف ملئ روحي لأنها بعيدة عن متناول القارئ العربي، وسأحاول أن أترجمها بقدر ما يسمح الوقت والصحة.

أريد أن أقول أيضاً: إن مفردات النضالات الثورية قد تكون مفيدة ولكن دراسة العبر السياسية والنضالية هي ما ينبغي التركيز عليها. والواقع التشابه في جوهر مسألة المقاومة هو واحد تقريباً في كل البلدان، لخّصها الكاتب الفرنسي هنري آمور " المقاومة الفرنسية : مقاومون أبطال وخونة متعاونون" نعم في

كافة البلدان التي أطلعنا على تجاربها، هناك وطنيون تدفعهم غيرتهم للمقاومة، وهناك خونة يلهثون وراء امتيازات لا يستحقونها في الواقع، وهناك من يخون لأنه منحط يريد من يحترمه ولو كذباً، المحتل لا يحترم المتعاونيين نعم .. يقبل تعاونهم مقابل شيء، ولكنه لا يحترمهم.

إقامة التحالفات الوطنية مسألة مهمة، ينبغي إقامتها والسعي نحوها بلا كلل أو ملل، والطرف القوي هو من ينبغي أن يضحي من أجل إقناع قوى صغيرة، ينبغي التراجع من أجل إحراز تقدم، هذه ليست تكتيكات في سوق السياسية، بل هي أن لا تترك قوة لا تعبأها سواء من أجل تحرير الوطن، أو بنائه وإعماره، والإعمار أصعب من الثورة، لأنك ستكون على تماس مع قوى خارجية هي خارج إرادتك. في الإعمار ينبغي أن تستوعب السياسة بفروعها، والاقتصاد بفروعه، والاجتماع بفروعه .. فما أشق هذه المهام، وما أسهل من يثرثر مجاناً على قاعدة الجهل نور ..!

الثلاثمائة أسبارطي الذين ماتوا دفاعاً يكتب اليوم في موقع بطولتهم ..
" أيها المارّ من هنا .... عندما تذهب إلى أسبرطة، أعلن هناك: أنك رأيتنا راقدين هنا ... كما يأمرنا به القانون ....." .

يسرني غاية السرور من يطلب مني كتبي المنشورة وبحوثي ودراساتي السياسية، فالهدف الأول والأخير هو خدمة الثقافة العربية، وهو ما أعمل له بكل قواي .

ضرغام الدباغ

برلين – أيلول / 2017

الفصل الأول : التعريف ـ الوضع القانوني ـ واجب المقاومة ـ دورها في الحروب

التعريف

ـ المقاوم هو المناضل المسلح الذي لا ينتمي إلى القوات المسلحة لدولة ما.
يخوض الفدائيون/ المقاومون عملياتهم القتالية في المناطق التي لا تتواجد فيها قوات مسلحة أخرى (جيش أو شرطة)، في أرض لها من يطالب بها. المقاوم يقاتل غالباً في أرض بلاده وأرجائها، ولكن ليس دائماً مناطقياً، كما حصل في حرب الاستقلال الإسبانية (1808 – 1828) أو الحرب النابليونية على أرض شبه جزيرة إيبريا (إسبانيا ـ البرتغال ـ جبل طارق) حيث ظهر المقاومون، أو كما في الحرب الإسبانية، أو في الحرب الألمانية ـ السوفيتية، وفي نضالات جوزف بروز تيتو وماتسي تونغ. وهوشي منة وأرنستو جيفارا المقاومون يتواجدون في الحروب الأهلية، أو في الصراعات الداخلية، وأحياناً على شكل انتفاضات ضد الحكام كما فعل فيدل كاسترو، أو المحتلين، من المستعمرين. وفي عام 1785 افتتح جون فون إيفالد في مدينة كاسل (ألمانيا) رفضه للحروب الصغيرة التي باعتقاده وحسب خبرته، لها صلة أو امتداد للانتفاضات في المستعمرات شمال أميركا.

الفدائيون عامة مجهزون بالأسلحة الخفيفة. والتخريب هو من بين أساليبهم القتالية، وكذلك التجسس، وشن الهجمات على وحدات عسكرية صغيرة للعدو، ومكافحة الخونة المتعاونين مع العدو، والمقاومين غالباً ما يعملون بحماية وتغطية من السكان المدنيين، يحجزون القوات النظامية البطيئة الحركة، التي لا تستطيع الهجوم، مستفيدين من معرفتهم الدقيقة بالأرض، وتعاون السكان المحليين معهم.

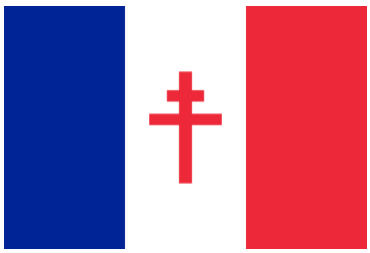

من وجهة النظر العسكرية، فإن مصطلحات: المقاوم، الفدائي، محارب العصابات، تستخدم كمفردات للمقاتل المقاوم. والمقاومون الذين برزوا في النضال ضد قوات المحور (ألمانيا ـ إيطاليا) في المناطق التي احتلتها في أوربا سميوا عادة فدائيين / مقاومين (Partisan) فيما أطلق على الحركات المناهضة للاستعمار مصطلح عصابات (Guerlleros). (1)

(الصورة : شعار منظمة المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني)

ـ الوضع القانوني :
القانون الدولي لا يعرف للمقاومة تعريفاً ووضعاً خاصاً، ومن ثم فهي تندرج تحت إطار أحكام اتفاقيات الحرب الدولية ذات الصلة التي تنص على أربعة معايير رئيسية لتحديد ما إذا كان الأشخاص الذين وقعوا في أيدي العدو يعتبرون أسرى حرب :
في المقدمة، الشخص الذي يعد هو المسؤول عن مرؤوسيه.
الذين يحملون علامات وإشارات معترف بها.
يحملون السلاح بشكل مكشوف.
يلتزمون بقواعد وأعراف الحرب في عملياتهم.

في البروتكولين الإضافيين المؤرخين 8 / حزيران / 1977 عُدّلت هذه المتطلبات، بحيث يكون حمل السلاح علانية في المسير العسكري والهجوم، كافياً لاعتباره (Combatant) مقاتلاً. (2)

وهم الأشخاص الذين لا يستوفون كافة المعايير المذكورة أعلاه ولكنهم رغم ذلك يشاركون في القتال، يتمتعون بالرغم من ذلك بالحماية التي ينص عليها البروتكول (1) المادة (75)، من القتل العمد والتعذيب، هم يتحملون المسؤولية للعقوبات التي قاموا بها وفقاً للقوانين المعمول بها وقت وقوعها. وفي ذلك من الضروري، اعتقال المتهمين بها ساعة وقوع العمل: والمقاوم الذي انتهك المعايير المذكورة أعلاه، ولكنه لم يقع بأيدي الأعداء، إلا بعد نجاح الفعل، لا يفقد حقوقه.

ـ التطور التاريخي:
بحثت اتفاقية لاهاي عام 1907 عن فكرة توفيقية في حالة القناص الفرنسي ـ البلجيكي في الحرب الفرنسية ـ الألمانية عام 1870 ـ 1871 : وكشرط لذلك، أن يشخص هذا المحارب بتشخيص قيافته الرسمية كمقاتل وتعريفه (شخص له مزايا المحاربين ـ Combatant) في القانون الدولي، وطالبت المحكمة مغزى التعريف بوجود شارة واضحة، وحمل السلاح بوضوح.
(الصورة : شعار منظمة المقاومة البلجيكية)

وتواصل مفعول لائحة لاهاي لعام 1907 بعد الحرب العالمية الثانية، من خلال اتفاقيات جنيف الأربعة، (12/ آب / 1949)، والآن حتى بعض معارك الفدائيين (المقاومة) اعتبرت معارك نظامية ونالت بموجبها حقوقها.

وإذا انتهك أحد الطرفين ما نصّ عليه قانون الحرب من حظر لعمل معين، محل الدفاع عن النفس في محله. وإذا هوجم جنود من قبل غير محاربين (شخص له مزايا المحاربين ـ Combatant) يحق لهم أن يصدوا الهجوم بما يتوفر بأيديهم من سلاح، حتى لو يلحق ضرراً بمدنيين غير مشاركين في المعارك.تعتبر أضرار جانبية.

ـ واجبات المقاومة.
في بعض الدول مثل: هولندا ، أو بلجيكا، هناك وجهة نظر في حالة تقع حرب عدوانية، وهو ما يناقض ويخالف القانون الدولي، ووجود مقاومة ضد الاحتلال الغير شرعي، وتعتبر حركة المقاومة مشمولة بمزايا الفدائيين / المقاومين (Partisan) فيما يطلق على الحركات المناهضة للاستعمار مصطلح عصابات (Guerlleros). إذا ما استوفوا شروط ومعطيات هذه الحالة(الإشارات والعلامات الواضحة، وحمل السلاح علانية). (3)
(الصورة : شعار منظمة المقاومة الهولندية)

Bundesarchiv, Bild 101I-007-2477-06
Foto: Trautvetter | 1941 Juli - August

وقد اعتبر الإعدام رمياً بالرصاص بحق أعضاء الحركة البلجيكية المنتسبون إلى (Armée secrète) أو المنظمة السرية الهولندية المقاومة (Binnenlandse Strijdkrachten) جريمة قتل، وكذلك منتسبي حركة المقاومة السرية الفرنسية (Forces Francaies de l, interieur)، الذين قاتلوا فيما بعد إلى جانب الحلفاء في تحرير فرنسا، واعتُبروا أبطالاً ونالوا الأوسمة و التكريم. (4)

(الصورة : مفرزة ألمانية في الاتحاد السوفيت تحذّر من وجود فدائيين في هذه المنطقة)

في عقيدة الدفاع للجيش الأحمر (Military Doctrine) كان قتال المقاومين (Partisan) حتى أواسط الثلاثينات ضمن خطة الدفاع عن البلاد. أما الجيش اليوغسلافي فقد اعتبر قتال المقاومة بعد عام 1945 (بعد النصر والتحرير) استراتيجية رئيسية في الدفاع عن الوطن، والمقاومة الفرنسية اعتبرت أن النضال ضد المتعاونين، كواحدة من الواجبات الرئيسية لها. وفي اليونان أيضاً، لعبت المقاومة ضد الاحتلال الألماني وكذلك المقاومة (DILAS: DSE) خلال الحرب الأهلية، دوراً مهماً وحاسماً.

قتال المقاومة في الحرب العالمية الثانية.
وحدات من قوات ال (SS) والشرطة العسكرية (الانضباط العسكري)، قاموا بتنفيذ عدة مجازر بحق السكان المدنيين في عملهم ضد المقاومين (الحقيقيين أو المفترضين) وهناك الكثير من الدراسات عن جرائم الجيش الألماني الهتلري. والأساس لهذه الجرائم هو قانون الحرب على الاتحاد السوفيتي وخطة الهجوم التي سميت (باربا روسا – Barbarossa) بقانون جرى إعداده من قبل القيادة العامة للقوات المسلحة، وتمريره بتاريخ 14 / أيار / 1941، ووقعه الفيلد مارشال (المشير) فيلهام كايتل. وكان هذا ينص على أن: " الفدائيين (المقاومين) الذين يدخلون بين القطعات، ينبغي مقاتلتهم وملاحقتهم وقتلهم بلا رحمة ". وأيضاً ورد " كافة الهجمات الأخرى من سكان مدنيين، ينبغي مكافحتهم بكافة الوسائل حتى الإبادة، حتى يتم إفشال الهجمات ". (5)

(الصورة: إعدام مدني سوفيتي في محاكمة فورية)

وقد نفذت القيادات الميدانية للجيش الألماني، هذه الأوامر بشدة وقسوة وتحديداً في الجبهة الشرقية (الاتحاد السوفيتي)، فكانت تقتل وتعدم عشوائياً، وتقتل رهائن وارتكبت فظائع تاريخية. وحتى صدور هذه التعليمات القانونية الحربية، كانت التعليمات والقوانين الألمانية مع محاكمة، ولكن المرسوم الأخير تحت لافتة مكافحة الفدائيين والمقاومين، وكان يطلق عليهم وقتئذ بـ (عصابات القتل) أتاح المرسوم خوض حرب إبادة في احتقار للقانون الدولي، وحلت هذه التعليمات (المرسوم) محل القضاء العسكري، يتحكم بالسكان المدنيين، في " إنزال العقوبة الفورية " فيما سمي بقانون الكتيبة / الفوج / اللواء.. إلخ ، وهذا ما وضع الجنود الألمان في وضع المجرمين، شرعت بتطبيقه منذ اليوم الأول لغزو الاتحاد السوفيتي.

وكانت مكافحة المقاومين كانت قد اعتبرت سياسة نال توصية "كسياسة إبادة " (Ausrottungspolitil) باللغة الألمانية وبالإنكليزية ــ Extermination Police" يؤكد على ذلك حديث هتلر في قيادات الحزب النازي : " لقد أعطى الروس الآن الأوامر لخوض حرب مقاومة خلف خطوط جبهتنا، وحرب المقاومة هذه لها أيضاً ميزة: أنها تعطينا الفرصة لكي نبيد، كل من يقف بوجهنا ".

(الصورة: جنود ألمان يعدمون مقاومين روس)

وعلى خلفية هذا الفهم، لوحق بصفة خاصة اليهود، الذين عوملوا وكأنهم مقاومين. وفي 8 / تموز / 1941 (بعد نيف وشهر من بدء الحرب على الاتحاد السوفيتي) وفي حديث له مع ضباط الوحدات الخاصة (SS) ومع ضباط الشرطة، في مدينة بيالياستوك السوفيتية، قوله " اعتبروا أساساً أن كل يهودي هو مقاوم ".

ومنذ عام 1942 فصاعداً، ومع تصاعد نشاط المقاومة السوفيتية خلف خطوط المواجهة، بدأت تشكل تهديداً ملموساً للجيش السوفيتي، بدرجة تفوق ما كانوا (الألمان) يتصورونه في خططهم عن قيام مقاومة، لذلك كانوا يبخسون قدرهم، ولكن القتال بدأ يتصاعد منذ 1942 بين المقاومة والجيش الألماني، ليبلغ حدوداً شرسة ليتخذ أبعاداً إجرامية فيما بين الطرفين، وليتسع ويشمل السكان المدنيين أيضاً.

وقد تجاوز الجيش الألماني في ممارساته وأفرط بعيداً عن قواعد مكافحة المقاومة، وأساليب التعامل القانونية متجاوزاً توجهه نحو المقاومة، إلى من يشتبه بأنه مع المقاومة، دون دليل، وكانوا يقتلون بشكل عشوائي.

وكانت مكافحة المقاومة لا ترتبط بنشاط المقاومة ولا علاقة لها بشخصية معينة، وكانت البلدات والتجمعات السكانية . والسكان اليهود كانوا بصفة عامة مؤيدين للمقاومة، أو مساعدين لهم، وكانوا يعدمون لذلك. وأكثر من ذلك يستحق الملاحظة، أنه بالرغم من نداء ستالين (زعيم الحزب والدولة السوفيتية) في 3 / تموز / 1941 أن التمييز يصعب في زخم الأحداث في المناطق التي انسحب منها الجيش النظامي والباقين من الجنود في تلك المناطق هم في الغالب جنود غير نظاميين، الذي قد اختبؤوا في أماكنهم خوفاً من الجيش الألماني.

وفيما يتعلق بقتال هؤلاء الأشخاص يتحدث مراقب " في الفترة الزمنية ما بين 1941 وحتى 1942 كان هناك " مقاومة بدون مقاومين "، ومع ذلك يقدر عدد البشر الذين قتلوا على يد الألمان على أنهم مقاومين بلغ (345,000) ، أقل من 10% من هؤلاء ربما كانوا مقاومين حقاً. (142,000) بشر بينهم (14.000) يهودي قتلوا في (55) معركة فقط.

القيادة العامة للقوات المسلحة الألمانية أعلنت في مذكرة رقم (69 / 2) بتاريخ 6/ أيار / 1944 حول مكافحة أعمال المقاومة، ولكن لهذه المذكرة وتفاصيلها كانت لها الأهمية اللاحقة في فكر واستراتيجية حرب العصابات ، ضمنها اثنان من الضباط البريطانيين أوبري ديكسون (C. Aubrey Dixon) وأوتو هيلبرون (Otto Helbrunn) في مؤلفهما عن تكتيكات واستراتيجية حرب العصابات.

أسماء منظمات مقاومة منتظمة

Sowjetische Partisanen mit dem Zentralen Stab der sowjetischen Partisanenbewegung
die Polnische Heimatarmee
die Jüdische Kampforganisation (polnisch Żydowska Organizacja Bojowa, ŻOB) im Warschauer Ghetto
die Fareinikte Partisaner Organisatzije, eine jüdische Widerstandsgruppe gegen die deutsche Besatzungsmacht im heutigen Litauen
Bielski-Partisanen
die Résistance Frankreich
die Resistenza Italien
die Österreichische Freiheitsfront im besetzten Belgien
Jugoslawische Partisanen (Tito-Partisanen)
Griechenland
Nationale Befreiungsfront EAM und Griechische Volksbefreiungsarmee ELAS
Andarten auf Kreta
EKKA in Mittelgriechenland
rechtsnationale und royalistische Widerstandsgruppen
„Waldbrüder“ im Baltikum, v. a. Litauen, gegen die Sowjetunion (bis ca. 1953)
„Verstoßene Soldaten“ in Ostpolen und „Curzon-Polen“ während des Zweiten Weltkriegs und kurz nach dem Krieg
Ukrajinska Powstanska Armija in der Ukraine 1941–1953
Peschmerga, Kurden im Irak
PKK, Kurden in der Türkei

أسماء شخصيات مقاومة معروفة

Tadeusz Komorowski in Polen
Mordechaj Anielewicz in Polen
Peter Gingold in Frankreich und Italien
Josip Broz, genannt Tito, in Jugoslawien
Milovan Đilas in Jugoslawien
Falk Harnack in Griechenland
Soja Anatoljewna Kosmodemjanskaja in der Sowjetunion
Wolfgang Abendroth in Griechenland

Ernesto Che Guevara in Kuba
Ahmad Schah Massoud in Afghanistan
Andreas Hofer in Österreich
İbrahim Kaypakkaya in der Türkei (TIKKO)
Augusto César Sandino in Nicaragua
Max Bair in Österreich, Spanien und Jugoslawien

لاحظ رجاء : من بين أسماء المقاومين لا يوجد عربي واحد رغم أن تاريخنا يزخر بالمقاومين : عبد القادر الجزائري، عبد الكريم الخطابي، عمر المختار، ياسر عرفات وعشرات غيرهم

كما لاحظ أن من بين حركات المقاومة لا يوجد اسم منظمة عربية واحدة رغم أن منظمة التحرير الفلسطينية معترف بها دولياً ولها مقعد في الأمم المتحدة، فيما أقحموا اسم منظمة "بي كا كا" الكردية / تركيا رغم أنها مسجلة على قائمة الإرهاب ..... لاحظ موضوعية الغرب الديمقراطي ..!

* هذا الفصل مترجم بمعظمه عن الموسوعة الألمانية

هوامش الفصل الأول

. تعتبر قانوناً اليابان ضمن مصطلح المحور مع ألمانيا وإيطاليا، ولكن قلما كان هناك تنسيق فعلي بينها والطرفين الآخرين.
. كومباتانت : (Combatant) هو الشخص "الأشخاص" الذين يعتبرون مقاتلين وفق القانون الدولي المتواجدين في مناطق القتال، مستقلين عن المشاركين في النزاع، والحرب ويعدّون باتفاقية جنيف إن وقعوا بالأسر.
نفس المصدر.
منظمة (Armée secrète) اعتبرت فرعاً لمنظمة المقاومة الفرنسية.، و(Forces Francaies de l,interieur)، هي المنظمة الفرنسية لمقاومة الاحتلال الألماني لفرنسا.، أما منظمة Binnenlandse Strijdkrachten)، فهي منظمة المقاومة الهولندية.
هذا القانون (لائحة عمل / تعليمات) جرى إعدادها في القيادة العامة للقوات المسلحة ووقعه رئيس الأركان العامة، قبل نشوب العمليات الحربية بنحو أسبوعين.

الفصل الثاني : حرب المقاومة في الاتحاد السوفيتي

بعد أن قامت ألمانيا بهجومها على الاتحاد السوفيتي في 22 / حزيران / 1941، وجّه جوزيف ستالين نداء إلى الشعب السوفيتي في المناطق التي احتلها الجيش الألماني، يدعوهم لتنظيم حرب شاملة خلف خطوط العدو، في المناطق التي احتلها العدو. ومع ذلك كان قسم من المواطنين المدنيين في البداية ينتظر، بل أن بعضهم أبدى الصداقة للألمان. لا سيما سكان مناطق البلطيق وأوكرانيا الذين كانوا يحيون الجيش الألماني ويرون فيهم محررين من النظام الستاليني.

(بوستر شهير : روسا الأم تدعو أبنائها للدفاع عنها)

ومع تصاعد وحشية سلطات الاحتلال، كان الدعم يتصاعد بالمقابل من السكان للمقاومين. وفي مطلع عام 1942 بدأت حرب مقاومة شعبية فعالة ضد الألمان، التي قادت من الجانبين إلى قسوة لا متناهية، وشددت من كراهية الشعب للألمان وأيضاً بسبب ومن خلال الاستغلال (النهب) الاقتصادي للسكان، مما أدى إلى تراجع متواصل للمستوى المعيشي للسكان.

ومع ذلك فإن حركة المقاومة لم تبلغ الدرجة التي أرادها ستالين (الحرب الشعبية). في البداية كان هناك كتائب المقاتلين السرية، تتألف أساساً من جنود الجيش السوفيتي الذين تقطعت بهم السبل، وابتعدوا عن وحداتهم، وبقوا في الأراضي التي تم احتلالها من قبل الألمان، ومن الشبيبة السوفيتية (الكومسومول ـ Komsomol) .

وفي مسارات الحرب اللاحقة، بدأت منظمات المقاومة تتشكل، وفي بعض الحالات كانت إجبارية للذكور في المناطق المحتلة، ولكن أيضاً من النساء والأطفال، تواجدن بين صفوف المقاتلين. ومنذ شهر أيار / 1942 فصاعداً، كانت حركة المقاومة السوفيتية تدار من قيادة الحزب الشيوعي السوفيتي (KPdUSR) والجيش الأحمر (السوفيتي) وجهاز الأمن، ووزارة الداخلية ومنظمة الشبيبة السوفيتية (Komsomol) تدار وفق النظم والهيكلية العسكرية وكانت تشتد كقوة منظمة. ومنذ أيار / 1942 وحتى كانون الثاني 1944 تأسس ما أطلق عليه " رئاسة الأركان المركزية لحركة المقاومة ".

تصاعد العدد التقريبي للمقاومين من حوالي 30,000 مقاتل إلى حوالي 200,000 ، ولكن مع تواصل استرداد الأراضي السوفيتية من الاحتلال الألماني، من خلال عمليات الجيش الأحمر، بدأت الأعداد تنخفض (مع تقلّص مساحة الأراضي المحتلة) . وبصفة عامة قاتل تحت راية المقاومة من السكان المدنيين بين 1941 وعام 1944 (وهو عام نهاية الاحتلال تقريباً) بأرقام تقدر ب 400,000 إلى 500,000 من الرجال والنساء المواطنين السوفيت، قاتلوا في إطار المقاومة ضد الجيش الألماني ومن معه من الجيوش الأجنبية. (1)

.

وكانت قوات المقاومة غالباً تعمل في مجموعات تبلغ من 300 مقاتل إلى 2000، (المنتقمون للشعب) كما كانوا يطلقون على أنفسهم.وكان تدريبهم العسكري غير موحد، يتنوع بين أختصاصيين كالقناصين، أو مختصين بالتفجيرات، معلمين. وفي الأماكن التي كان يأوي إليها المقاومون، في معسكرات وخيم مموهة في غابات ومستنقعات كتلك الموجودة في روسيا البيضاء، واسعة ويصعب الوصول إليها، وكذلك الأجزاء المحتلة من أوكرانيا، وروسيا. وكان تأمين السلاح والعتاد كان يتم غالباً بواسطة طائرات سلاح الجو الروسي، ومن جيش الاحتلال الألماني نفسه. (2)

الخدمات والملابس كانت صعبة، وكان يتم تأمينها من المناطق الغير محتلة، وكان سكان المناطق المحتلة يعانون الأمرّين من جيش الاحتلال، ومن المقاومين الذين كانوا يرهقونهم بطلباتهم، بل بلغ الأمر لدرجة كراهية المقاومين.

وغالباً ما كان المقاومون يسيطرون على مساحة أراض زراعية واسعة، وبذلك ألحقوا بالمحتلين الألمان خسائر بالغة في مجال قطاع الأغذية وإنتاجها، التي كان الألمان يعولون الحصول عليها من المناطق المحتلة. ومع ما يسمى بحرب "السكك الحديدية" كبدت المقاومة (Partisan) الجيش الألماني خسائر فادحة. وهكذا في المناطق الخلفية لمجموعة جيوش الوسط وهي منطقة العمليات الرئيسية لوحدات المقاومة بين حزيران وكانون الأول/ 1942، وكانت تحدث في المتوسط 5 ـ 6 ضربات على السكك الحديدية يومياً. وفي العام 1943 جرى تفجير ما يقرب من 11,000 تفجير لأرصفة تحميل وشحن،

و9,000 عملية ضد السكك يخرج القطار بموجبها عن السكة، تدمير نحو 40,000 قاطرة، تخريب 22,000 عربة من مختلف الأحجام.

خلال الهجوم السوفيتي الصيفي/ 1943 بلغت عمليات التخريب(Sabotage) ذروتها القصوى، وكان المقاومون بذلك يقطعون خطوط الاتصال، ويزيدون من صعوبة تموين القطعات المقاتلة بالرجال والعتاد، ولكن القوات السوفيتية عانت بدورها أيضاً في مرحلة تقدمها واستردادها لأراضيها كانوا يستخدمون السكك الحديدية كواسطة للتنقل، وعانوا من الخطوط المخربة.

والمقاومة كانت مفيدة من جهة أخرى، إذ تعين على الألمان تخصيص قوات لحماية وسائط التنقل، والطرق من عمليات التخريب، واضطروا لرفع درجات الأمن والحماية التي لم تكن بدون تكاليف.

وبدأت التدابير المضادة للجيش الألماني على نطاق واسع منذ عام 1942، والتعليمات والأوامر الصادرة من أدولف هتلر (الزعيم الألماني) كانت تنطوي على " الإبادة الشاملة" (بالألمانية / Restlos Ausrottung)، للمقاومين في كافة أرجاء وميادين الجبهة الشرقية, وكانت السلطات الألمانية بدأت منذ صيف 1942 تطلق على المقاومين السوفيت لأسباب نفسية " وحدات المخربين" لم تعد كلمة مقاومة تذكر. واتسمت الحرب بالشراسة والوحشية، التي كان يقودها هاينرش هملر قائد الأمن في الدولة، وقائد (SS) وقائد الشرطة الألمانية وقادة أمنيون ووحدات أمن منحوا الصلاحيات التامة " لمكافحة العصابات". وإلى جانب هذه الوحدات، كان هناك مساعدون محليون (متعاونون) ووحدات من الجيش الألماني متخصصة بقتال ومكافحة (المخربين) جرى تجميعها في وحدات أطلق عليها قوات التصيد.(3)

كان المدنيون غالباً هم ضحايا حملات التطهير، وغالباً ما كان يجري الأمر هكذا، فبعد هجوم تقوم به المقاومة، يقوم الألمان باقتحام القرية التي يفترضون وجود مشتبهين فيها، ويجري تفتيش القرية، وفحص المشتبه بهم، يأخذون بعض الناس للعمل الإرغامي (السخرة) ويظل مصيرهم مجهولاً، أما مصير الباقين من السكان فيبقى بيد قائد الوحدة، ويشنق من يشتبه بهم سواء كانوا حقيقة مقاومين أم أبرياء، وتبقى جثث من يشنق معلقة لأيام.

وفي أعوام 1943، و1944، تحدثوا عن نجاحات في الوحدات المكلفة بمكافحة المخربين، عن قتل نحو 150,000 شخص، وسجن 91,000 من " قطاع الطرق". ولكن الرقم الإجمالي الحقيقي للمقاومين يصعب تقديره، ولكنه يقرب من مئات الألوف من المقاومين والمدنيين ومن الجنود الألمان.

(لوحة لرسام روسي : المقاومة شبان وشيوخ)

هوامش الفصل الثاني

. قاتلت جيوش عديدة مع الجيش الألماني بقوى وأحجام متفاوتة : إيطاليون، رومان، بلغار، إسبان
يعتبر جيش العدو مصدر رئيسي من مصادر تموين المقاومة بالسلاح والعتاد وسائر الاحتياجات وحتى المالية.

(بالإنكليزية/ Complete exterminatioo) إبادة كاملة

الفصل الثالث : المقاومون السوفيت

كان المقاومون السوفيت، أعضاء في حركة المقاومة ضد الفاشية والنازية الذين قاتلوا بين أعوام 1941 و 1944 في الحرب العالمية الثانية على الأرض السوفيتية، ضد الاحتلال الألماني. وغالباً ما كانت حركات المقاومة قد نظمت من قبل الحكومة السوفيتي وبقيادة الجيش السوفيتي، وحصلت على الدعم منهما.

ومن خلال الأعمال الوحشية التي قام بها الألمان ضد المقاومين الحقيقيين، أو المفترضين (المشتبهين بالمقاومة)، مع إبادة قرى بأكملها، كان بالمقابل أعداد المقاومين يتصاعد من خلال انضمام المواطنين المدنيين إلى حركة المقاومة. وفي عام 1943 كان يعمل ويقاتل على الأرض السوفيتية نحو 250.000 شخص (رجل وامرأة) وكانوا يسيطرون على أراضٍ انسحب منها الجيش، وكانت فعالياتهم من الأهمية والتأثير الكبير بحيث أنها أعاقت الألمان من نهب الزِراعة السوفيتية والاستغلال الاقتصادي، كما أنها أرغمت الألمان على تخصيص قطعات للمقاتلة في حرب العصابات، وقطعات أخرى لحراسة وحماية خطوطهم الخلفية.

ـ بداية المقاومة:
وفيما يتعلق ببداية المقاومة، تثبت الأبحاث أنه في مرحلة بداية الغزو الألماني للاتحاد السوفيتي، أن هناك تناقضاً شديداً في النوايا السياسية لهتلر مع ستالين، وسلوك جنودهما، وبصفة خاصة السكان المدنيين السوفيت، الذين بدر منهم خلافاً ما كان متوقعاً، وما كانت أجهزة الدعاية والأعلام الألمانية، إذ وجدت القوات الألمانية أن المواطنين المدنيين السوفيت، لا يميلون لمقاومتهم، بل على العكس حتى يمكن القول أنهم كانوا يحيون الألمان بود، أو على الأقل كانوا يتصرفون كحياديين، أو غير مبالين على الأقل.

(وجبة من المتعاونين الخونة)

ولكن الأمر كان مختلفاً مع جنود الجيش الأحمر (الجيش السوفيت) الذين لم يتمكنوا من الانسحاب مع قطعاتهم، عندما هاجمت القوات الألمانية وبدأت الحرب على الاتحاد السوفيتي بتاريخ 22 / حزيران / 1941، فلقوا وراء خطوط الجبهة في المناطق المحتلة، فعلقوا هناك وبقوا متناثرين مشتتين.

في هذه المرحلة من الحرب كان السكان المحليون، بالكاد يدعمون المقاومة، ولكن سرعان ما بدؤوا بتشكيل مجاميع، بدأت تقاوم الوجود والاحتلال الألماني. في البداية لم يكن الأمر أكثر من مجموعات تريد

البقاء والصمود، وأخرى تريد المقاومة، كانوا يمثلون إرادة يائسة، بصورة ما للبقاء على قيد الحياة، في هذه المرحلة لم تكن المقاومة تمثل خطراً على الجيش الألماني.

في 29 / حزيران / 1941 أصدرت الحكومة السوفيتي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي توجيهات (Directive) بتشكيل منظمات / مجموعات من المقاومين في كافة الأرجاء، بل وتشكيل قوات مقاومة (Partisan) في المناطق التي احتلها الجيش الألماني، والدعوة لتجنيد مقاومين وتوجيه ضربات وإحداث تخريبات (Sabotage) على الأشخاص والمنشآت الألمانية. واتخذ المكتب السياسي قراراً بتاريخ 18 / حزيران " في تنظيم المقاومة في الأراضي خلف الخطوط الألمانية ".

هذه المساعي، كانت من جهة أخرى القيادة الألمانية قد أصدرت تعليماتها في أواسط تموز / 1941، عبرت عنه في البيان رقم 33 آ ، أن المناطق التي تم احتلالها في روسيا لا يمكن السيطرة عليها إلا بوسائل قاسية، وقام العسكريون بتأييد ما ذهب إليه (الزعيم) هتلر وصادقوا على قراراته وتوجيهاته " وأن الحرب ضد المقاومة لها ميزة لصالحنا أننا نتمكن من القضاء على أعدائنا ".

وفي مجرى النصف الثاني من عام 1941 كان يتصاعد العنف الوحشي للقوات الألمانية ضد المقاومين الحقيقيين أو أولئك المشتبه بهم، وهو ما جعل أعداد منظمات المقاومة تتصاعد. ففي عام1941 كان هناك أكثر من 2000 مجموعة بقوة عددية تناهز ال 90,000 شخص(رجل وفتاة). وفي منتصف نيسان 1942، أكد القائد الأعلى للمناطق المحتلة أن قوات المقاومة ستتمكّن مقارنتها بالقوات النظامية.

كان تسليح ودرجة تنظيم قوات المقاومة تتصاعد تدريجياً مع مرور الوقت. في أيار / 1942 كان هناك رئاسة أركان لحركة المقاومة السوفيتية ، وهيئات ركن لدى قيادات الجيوش السوفيتية في الجبهات. وحصل المقاومون على وسائط الاتصالات اللاسلكية، وفي عام 1943 كان عددهم قد بلغ 250,000 شخص. ويسيطرون على مساحات واسعة من الأراضي ومنعوا السلطات الألمانية من نهب الاقتصاد الوطني، وعطلوا جزءاً مهماً من قدراتهم العسكرية.

ـ المناطق التي عملت فيها المقاومة:

ـ المقاومة في روسيا البيضاء :
جمهورية روسيا البيضاء السوفيتية احتلت بأكملها في صيف عام 1941، وفي هذا الوقت كان الجيش الألماني كان يتقدم ببطء في أراضي أوكرانيا حيث كان الجيش السوفيتي الأحمر يقاوم بشدة.

(مقاومين سوفيت)

كانت روسيا البيضاء قد فوجئت من القوات الألمانية الآلية السريعة، وكانت العديد من المدن قد ابتدأ قصفها في 22 / حزيران (اليوم الأول للحرب) وقتل الكثير من المواطنين. ولكن الكثير من الروس البيض، اللاجئين والنازحين من المناطق المحتلة، أعيدوا إلى قراهم للعيش فيها والتي كانت قد تعرضت جزئياً إلى التهديم. فقط حوالي 20% من الروس البيض ويمثلون 1,8 مليون نسمة، نجحوا في الفرار عام 1941 شرقاً، بعضهم انسحب مع الجيش الأحمر. واستقبلت مدينة موغيليوف بالإضافة إلى سكانها ما يربو على 200,000 نازح ولاجئ من مينسك (عاصمة روسيا البيضاء) وأرجائها.

أكثر من 25% من السكان، روس بيض، بولونيين، ويهود ماتوا خلال سنوات الاحتلال الألماني، مئات الألوف منهم أخذوا قسراً إلى ألمانيا للعمل الإجباري (السخرة) والجالية اليهودية أبيدت تقريباً.

في بداية الحرب، رحب كثير من الروس البيض بتقدم الجيش الألماني، كمحررين لهم من الإرهاب الستاليني. وكما أيضاً في المدن الأخرى التي احتلها الألمان، أغلقت المدارس والجامعات، وفرض المحتلون الأيديولوجية النازية " الرجال " و "البشر المتخلفون"، وفي ذلك وضعت مناهج تعليم خاصة لسكان البلدان التي تم احتلالها .

ونتيجة لهذه الإجراءات، تصاعد عدد الذين يقررون الالتحاق بوحدات المقاومة, وفي النهاية أعطت مدينة مينسك المثال على ذلك، كان قد تصاعد عدد المقاومين في مختلف مجاميع المقاومة إلى أكثر من 2000 مقاوم/ مقاتل.

Sowjetische Freischärler, Aufruf zum Partisanenkrieg (Plakat, 1941): *Zulauf zu den „Volksrächern“*

(بوستر للمقاومة السوفيتية)

وفي الأرجاء الغربية لروسيا البيضاء، كان المقاومون لا يحضون بشعبية، والعديد من المقاومين وقعوا ضحية وشاية أهالي المنطقة بأيدي المحتلين الألمان.

في عام 1943 ووفقاً للمصادر السوفيتية، فقد كان فقط في روسيا البيضاء وحدها نحو 375,000 مقاوم، منهم 65% من الروس البيض، و45% من أعراق أخرى. كما كان هناك 4000 بولوني، و400 تشيكي وسلوفاكي، و300 يوغسلافي، وآخرين قاتلوا ضمن وحدات المقاومة.

ومن أجل مكافحة وحدات المقاومة، أسّس الألمان وحدات خاصة أطلقوا عليها اسم : قوات مكافحة العصابات (Bandenbekäfungstruppen) التي كانت مجهزة أحياناً بالأسلحة الثقيلة، لقتال المقاومين، في معارك كانت غالباً تستغرق أسابيع ومكافحة العصابات في مناطق كاملة تباد وتقتل. واتبعت استراتيجية أخرى تتمثل بتكليف القوات الحليفة بتنفيذ هذه " الأعمال القذرة " مثل اللواء السيءّ السمعة التي يقوده " برونيسلاف فلاديسلافوفيتش كامينسكي " الذي كان يتولى مناطق كاملة، كإقليم ليبل، التي تمكن من إبقائها خالية من المقاومين، ولكن باتباع طرق تدميرية، في إبادة القرى والبشر حتى المشتبه بهم، وتسبب في قتل مجاميع من البشر. (1)

أساليب كامينسكي في القتل تجاوز في وحشيته تلك التي كانت الوحدات الألمانية (SS)، وكانت قوات كامينسكي تمارس التعذيب والاغتصاب مارسها بحق المواطنين البيلاروسيين المدنيين. في بيلوروسيا تم تدمير ما مجموعه 5,295 قرية وبلدة، وبعضها أبيدت بسكانها، إذ هدمت 628 بلدة وقتل كافة سكانها. وإلى جانب لواء كامينسكي، كانت هناك وحدات من الخونة المحليين، والشرطة المحلية، وساهم هؤلاء في القتال ضد المقاومين.

وفي أعوام 1943 , 1944 تمكنت وحدات حركات المقاومة القوية، من تحرير مناطق كاملة، وفي عمليات الانسحاب للجيش الألماني، في أعوام 1944/1043 كانوا يعانون من صعوبات جمة من هجمات وضربات المقاومة.

ـ المقاومة في أوكرانيا :

في احتلال أوكرانيا ، حظيت القيادات الألمانية بترحيب كبير. ففي البداية نالوا ذات الترحيب مثل روسيا البيضاء، ولاسيما في غرب أوكرانيا، التي كانت حتى عام 1939 تعود لبولونيا، وكانوا ينظرون للجيش الألماني ويرحبون بهم كمحررين من الستالينية، ولكن بعد أولى التعليمات والإجراءات الألمانية، ذات الطابع الانتقامي، تغيرت مواقف السكان المحليين.

في صيف عام 1941، فرّ حوالي 5,8 مليون أوكراني، وروس، ويهود، من البلاد، أو تم إجلاءهم. وبما يقارب ما حدث في المناطق السوفيتية الأخرى التي تم احتلالها، تم تسفير الآلاف من المواطنين إلى ألمانيا في العمل الإجباري (السخرة) . وملايين من الأسرى السوفيت تعرضوا للتجويع في معتقلات الأسرى. لا سيما عاني المواطنون اليهود الأوكرانيون، الذين فقدوا ربما 800,000 ضحية.

وفي وقت لاحق، أسس الشيوعيون، والوطنيون الأوكرانيون وحركات سياسية صغيرة (الفوضويون)، مجموعات مقاومة، كانوا أساساً ضد الألمان، ولكنهم كانوا يتنازعون فيما بينهم أيضاً. وليس الجيش الألماني كان يتعرض لهجمات مقاومة أوكرانية، بل وكذلك المواطنون المدنيون أيضاً، من هجمات مجموعات مقاومة أوكرانية. (2) (3)

وكلّفت حرب المقاومة في أوكرانيا نحو 5,5 مليون ضحية، من بينهم جزء فقط من المقاومين، ومعظم الضحايا كانوا من البولونيين والأوكرانيين المدنيين.

خلال حصار خاركوف عام 1941 حتى 1942 توفي أكثر من 20,000 من سكان المدينة بسبب الجوع من الروس والأوكرانيين، والألمان كانوا يأبون الانسحاب من المدينة، ويمنعون في نفس الوقت وصول الغذاء إليها.

في 1 – 2 / نيسان / 1943، قامت قوات ألمانية من وحدات (SS) ووحدات أوكرانية، والشرطة بقتل حوالي 6700 من الأوكرانيين الشماليين، من مدينة كوريوكيفكا، بعد أن قامت وحدة من المقاومة بإبادة حامية المدينة حرروا فيها 97 شخصاً من الرهائن كانوا محكومين بالإعدام. ومذبحة كوريوكيفكا التي أعدم فيها البشر رمياً بالرصاص، وأحرقت بيوت وقرى بأكملها تعد واحدة من أكبر المذابح التي جرت خلال الحرب العالمية الثانية في أوربا.

في 15 / آب / 1943 قام الجيش الألماني بإحراق القرية الأوكرانية يادليفكا بالقرب من العاصمة كيف، وسكانها حوالي 800 نسمة، وكانوا يشكون بوجود مقاومين سوفيت فيها، وفي اليوم السابق كانت قد حصلت ضربات على رتل عربات للجيش الألماني، ومات أكثر من 200 من الأشخاص من جميع الأعمار حرقاً في بيوتهم أو جمعوا في ساحة السوق وأطلقت عليهم النيران. وباقي السكان من النساء والأطفال، سيقوا إلى العمل الإجباري في ألمانيا.

ـ المقاومة في دول البلطيق :
في دول البلطيق، لم يكن فيها سوى القليل من فعاليات المقاومة. بالمقارنة مع روسيا البيضاء وأوكرانيا، هي من ناحية الطبيعية، لا سيما في ليتوانيا، وإيستونيا، بلاد غير صالحة لأعمال وأنشطة المقاومة المسلحة.

ـ المقاومة في روسيا:

بسبب التقدم السريع لقوى الجيش الألماني المدرعة والآلية، تمكنت فيها من تطويق وحدات سوفيتية، واكتساح أخرى، وأيضاً بسبب الافتقار إلى الغذاء والذخائر، وفقدان عام للروح المعنوية، بالنظر لتفوق القوات الألمانية، سقط كثير من مئات الألوف من الجيش السوفيت الأحمر في أسر الألمان. ومن ضباط وجنود ساقين في الجيش الأحمر شكلت قوات ال (SS) بتوجيه من هاينريش هيملر(مسؤول الأمن والشرطة الألمانية وقائد الـ (SS)) في نهاية 1944 ما أطلق عليه جيش التحرير الروسي بقيادة الجنرال السوفيتي المنشق فلاسوف، وكان من أولى مهام هذا التشكيل مكافحة العصابات (حركات المقاومة).(4)

وبعض من قطعات الجيش الأحمر التي حوصرت، أو انسحبت، أو تلك التي استسلمت، تمكن أعداد من الجنود الهرب والالتجاء إلى الغابات، ما لبثوا أن تجمعوا وكونوا مجموعات مقاومة، تمكنت لاحقاً من الاتصال بقيادات الجيش الأحمر، واستطاعوا منها الحصول على توجيهات، ومؤن، وذخائر وأسلحة.

وكانت القيادة الألمانية قد خططت، لاستسلام روسيا وتجزئتها، ونهب ثرواتها الاقتصادية، وعلى أساس قتل اليهود، وأغلقت في العديد من المدن والمناطق المدارس والجامعات، وعرضوا أسرى الحرب إلى التجويع، وأخذ الكثير منهم إلى ألمانيا للعمل الإجباري (السخرة)، ووضع الكثير منهم في معتقلات النازية الشهيرة (KZ) في ألمانيا. (5)

والتعاون الوثيق بين الجيش الأحمر السوفيتي ومنظمات المقاومة تحسنت كثيراً ابتداء من عام 1944، وخاض المقاومان ما يسمى بـ "حرب السكك الحديدية" وبها تمكنوا من إلحاق خسائر كبيرة بمواصلات الجيش الألماني وتموينه، وبذلك تمكنوا من تعطيل القيام بهجمات كبيرة على الجبهة الشرقية. ففي معارك جبهة فولخوف ـ لينينغراد ونوفوغراد، دمر المقاومون في 60,000 موقع الخطوط الحديدية،، وفجروا 200 جسر مواصلات، وأخرجوا 133 قطار عسكري عن خطه، وكان المقاومون أحياناً ينتظمون بقوة فوج مشاة (كتيبة) ويقومون بعمليات مهمة خلف خطوط العدو، ويتجاوزون أحياناً الحدود السوفيتية، بالنسبة للجيش السوفيتي لم يكن التخريب والنسف والتفجير على أهميته، والمعارك والاشتباكات، بل تمثلت في تجذير التناقض الرئيسي وإعلان العداء (بين السلطة الوطنية السوفيتية، وبين سلطة الاحتلال الألماني وعملائها) وكانت المقاومة تلعب دوراً استخبارياً مهماً في نقل المعلومات عن الجيش الألماني، وتنقلات قطعاته، المتقدمة، أو المنسحبة، ومواضعها وعن المطارات والطائرات، والمستودعات، وعقد المواصلات . (6)

وكانت من أهم التاكتيكات هي القيام بالاشتباكات الصغيرة، وتجنب التمسك بجبهة محددة، والقيام بهجمات مفاجئة خاطفة على العدو، والانسحاب الفوري إلى أرض ذات تضاريس معقدة، وعرة لا تسهل للعدو ملاحقتهم، وكانوا يخرجون من معظم هذه المعارك منتصرين، وبذلك كانوا أيضاً يسيطرون جزئياً على أراض، يتجنب العدو التحرك فيها بحرية، وسوف تسهل تحريرها لاحقاً.

وبسبب قوة حركات المقاومة وتأثيرها قامت القيادة العسكرية الألمانية بتأسيس ما أطلقت عليه " قوات مكافحة العصابات". وجهزتها بالأسلحة الثقيلة، وبإجراءات بالغة القسوة، أبيدت قرى كاملة، وأبيد سكانها، كلما بالغت القوات الألمانية في وحشيتها، كانت الكراهية تتصاعد ضد الألمان، وتشتد إرادة المقاومة ضد المحتلين والمتعاونيين معهم.

ـ فنلندة وكاريليا :

في بعض الأحيان حدث أن قاتلت حركة المقاومة بمجموعات قد تصل إلى 5000 مقاتل في هذه المنطقة السوفيتية من فنلندة (كاريليا) ولم تكن قوتهم لتقل عن 1500 ، أو 2000 مقاتل وكانت لهم سمة مميزة، أن عمل المقاومة لم يكن قد تأسس في الأراضي التي احتلها العدو، بل أُرسلت تلك المجاميع من الاتحاد السوفيتي، وكان ميدان عملها هو في الجانب السوفيتي من الجبهة.

(بوستر شهير للمقاومة السوفيتية)

والعملية الوحيدة الكبيرة انتهت بهزيمة، عندما أبيد اللواء الأول للمقاومة في مطلع شهر آب / 1942 بالقرب من بحيرة زيسيارفي (Seesjärvi). المقاومون وزعوا صحيفتهم الدعائية (الحقيقة) باللغة الفنلندية، وباللغة الروسية راية لينين (Leniens Flagge) وأحد أهم قادة المقاومة في فنلندة وكاريليا كان يدعى يوري أندروبوف. (8)

في منطقة كاريليا الشرقية، هاجم المقاومون الفنلنديون مستودعات الإمداد والبنى التحتية، لكن داخل الأراضي الفنلندية (أي داخل الحدود الجديدة لعام 1940) ولكن كان ثلثي هجماتهم ضد المدنيين، قتل فيها 200 شخص، وجرح 50 آخرين، بينهم أطفال وشيوخ. وغالباً ما كان المدنيون يقتلون من المقاومين، لكي لا يتركوا شهوداً على وحشيتهم على قيد الحياة.

وكمثال على ذلك في هجوم المقاومة على مدينة (Lämsänkylä Kuusamo) ليمزنسكسيلا كوزامو بتاريخ 18/ تموز / 1943 ، إذ هاجم المقاومون منزلاً وحيداً وقتلوا جميع من فيه وكانوا 7 مدنيين، بما فيهم الأطفال. أحدهم بعمر 3 سنوات، والثاني 6 شهور.

خصائص حرب المقاومة
عمليات الأنتقام الألمانية ضد المقاومة

بالنسبة للقيادة الألمانية، كانت الحرب ضد الاتحاد السوفيتي " حرباً أخرى ، حرب الرأي العام العالمي " وبالنسبة لهم كان الجنود السوفيت عبارة عن برابرة، (نقل حرفي عن هتلر) لذلك أعطت القيادة الألمانية، بإطلاق النار فوراً على المفوضين السياسيين (المسؤولين الحزبيين في القوات المسلحة السوفيتية) وبنا على هذا التوجيه كان يطلق النار فوراً حال اكتشافهم بين الأسرى.

كما كانت القيادة الألمانية تعتبر المقاومين " عصابات" لذلك حال إلقاء القبض على أي منهم، لم تكن له أية حقوق، كالحماية أو الرعاية كالأسرى.

وعندما أصبحت وحدات المقاومة قوية، أسس الألمان لقتالهم وحدات خاصة بسلاح ثقيل، وبدأت حملة وحشية كانت تباد فيها القرى بما في من سكانها، سواء كانوا مقاومين أو مشكوك بولائهم للمقاومة.

ـ الخسائر والفعاليات :
وفقاً للمعطيات السوفيتية، قُتل بسبب هجمات المقاومين 600,000 من جنود العدو، ونحو 50,000 في الأسر، ودُمرت 1,100 طائرة،، و2,500 قطار. وقد أظهرت البحوث الجديدة، أن بيانات كهذه لا تصمد أمام فحوصات نقدية وأمام مراجعة للمصادر لها. في دراسته حول حرب المقاومة في روسيا البيضاء توصل المؤرخ البولوني بوغدان موسيال (Bogdan Musial) بعد دراسات واسعة النطاق للمصادر توصل إلى نتيجة، أن بين 6000 و 7000 جندي ألماني قد قتل على أيدي المقاومين السوفيت، على الرغم من المعطيات الرسمية السوفيتية أن أكثر من 282,000 مقاوم (رجال ونساء) كانوا منخرطين في النضال.

وتقرّ الدراسات أن المقاومين كانوا يمثلون خطراً أكيداً على التموين الألماني لقطعاتهم المتقدمة في الجبهة الشرقية. وعموماً فإن نتائج فعالياتهم العسكرية قد بولغ بها كثيراً من قبل المؤرخين السوفيت لمرحلة الحرب وكتبوا عنها الأساطير.

وكان نشاط المقاومة الرئيسي يرتكز ليس على النضال ضد المعتدين الألمان فحسب، بل بحرمانهم من الحصول على المواد الغذائية، ولكن ضحايا المقاومة على الأغلب كانوا من المدنيين الغير مشاركين بالمقاومة، والمقاومين أيضاً تسببوا بوقوع ضحايا بين المدنيين المشتبه لكونهم متعاونين مع العدو.

وبالإجمال لم يتمكن المقاومون البلاروسيون (روسيا البيضاء) أبداً، بحسب المؤرخ البولوني موزايل، أن يصبحوا قوة حربية حاسمة، ولتكون في قدرتها أن تكون فعلاً " الجبهة القانية " في ظهر وخلف الجيش

الألماني. واستطراداً لم ينجحوا في منع الإمداد من ألمانيا لقواتها التي تحارب في الجبهة الشرقية، أو لمحاصرتها، أو إلحاق الضرر بقدراتها القتالية. (9)

ـ العلاقة مع حركة المقاومة الأوكرانية:

قاتلت حركة المقاومة السوفيتية وحركة المقاومة الوطنية الأوكرانية غالباً مستقلتين عن بعضهما البعض، بل وأحياناً قاتلتا بعضهما. المواطنون المدنيون كانوا يعانون من الهجمات الليلية ومن عمليات الانتقام للمقاومة الأوكرانية (على سبيل المثال, إغارات نهب، الاغتصاب، الابتزاز) بالضبط كما كان المحتلون الألمان يفعلون. بعض الناس صاروا بين الجبهات، فهربوا من خوفهم من كلا طرفي الحرب (الألمان والمقاومة)، إلى الغابات واختبؤوا هناك.

وأحياناً كانت تجري عمليات انتقامية من المقاومة الأوكرانية في القرى، التي يفترضون أنها تتعاون مع الألمان.

هوامش الفصل الثالث

برونيسلاف فلاديسلافوفيتش كامينسكي (Bronislaw Aladishlawowitsch Kaminski) ربما يستحق اعتباره من أشهر الجزارين في تاريخ البشرية، وأحد الأمثلة القذرة في الخيانة. روسي متعاون مع العدو، قتل عشرات الألوف من بني قومه إرضاءً للألمان، وتطرفاً في العمالة والخيانة. من مواليد 1899، أعدم عام في تموز / 1944.
الفوضويون (Anarchist)حركة ماركسية أسسها الروسي باكونين انشقّت وكوّنت حركة خاصة بها انتشرت في أرجاء كثيرة من العالم، وفي أوربا أيضاً
هذه للأسف واحدة من المشكلات والمتاعب التي تعاني منها المعارضة الوطنية، الخلاف فيما بيتها يصل حد القتال بالسلاح. وهو أمر شائع تقريباً.
(Konzentrtationslager- KZ) سلسلة معتقلات سيئة الصيت في ألمانيا وبعض الدول القريبة كبولونيا والنمسا وبلجيكيا، اعتقل فيها المعارضين النظام النازي من شيوعيين وتقدميين، ولكن أيضاً الغجر والشواذ، وكتّاب وأدباء تقدميين.
ميجر جنرال(عميد) أندريه أنريفيتش فلاسوف، جنرال سوفيتي وقع في أسر الألمان في أوكرانيا 12/ تموز / 1942، ثم قبل أن يتعاون معهم، وقاد قوات كبيرة من المرتدين، وقع في الأسر في أوائل عام 1945، نُقل إلى الاتحاد السوفيتي، وأعدم شنقاً بعد محاكمة بتهمة الخيانة العظمى في 1/ آب / 1845.
الوعي السياسي الذي يؤججه قتال المقاومة مهم جداً في كسب وعي الشعب، فأكثرية الشعب قد لا يدركون بعمق ما الذي يريده العدو، والبعض ينقل معارضته و عداءه للسلطة الوطنية على حساب النضال الوطني. والقتال يصعد من الوعي الوطني بين السلطة الوطنية السوفيتية، وبين سلطة الاحتلال الألماني وعملائها.
المقاومة يطلق عليها البحث دائماً كلمة بارتيزان "Partisan" التي يمكن أن تفهم مقاتل المقاومة، أو مقاتل العصابات، أو الفدائي.
يوري أندروبوف : مدير الاستخبارات السوفيتية لاحقاً، ثم السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي حتى وفاته 1984.
نرجح أن المؤرخ البولوني (Bogdan Musial) يحمل نفَساً واضحاً معاد للاتحاد السوفيتي، بالإضافة إلى أنه غير متخصص بحروب المقاومة، لسبب بسيط جداً: أن المقاومة الشعبية السوفيتية لم يكن دورها هزيمة الجيش الألماني، بل إعاقة وجوده وإزعاجه، وترسيخ الصلة بين القيادة السياسية السوفيتية، والشعب، ودور استخباري، وهو ما نجحت فيه المقاومة السوفيتية بدلالة النتائج النهائية .

الفصل الرابع : مشاركة النساء في المقاومة

زويا أناتوليفانا كوزموديميانسكايا

ترجمة : ضرغام الدباغ

في مطلع صباي وشبابي (بعمر 16 – 17) قرأت رواية ألكسندر فاديف الرائعة (زويا وشورا) وهي قصة فتاة سوفيتية شابة بعمر الزهور وشقيقها شورا الجندي في الجيش السوفيتي، عندما احتل الغزاة الهتلريون بلادها، انضمت إلى المقاومة السرية التي كانت تقاتل العدو خلف خطوط الجبهة (في المناطق المحتلة)، فناضلت وقاتلت أعداء بلادها، ولما ألقي القبض عليها، فعلوا فيها كل شيء، إلا شرفها الوطني فقاومت الغزاة والقيود بأيديها، وحتى اللحظات الأخيرة الموثقة من حياتها، كان الوطن هو تاج الرأس. وشقيقها سقط في إحدى معارك التحرير. (1)

قرأت تلك الرواية بشغف شديد، وتفاعلت مع أحداثها، وكانت من الروايات والأعمال الأدبية التي صاحبت ثقافتي السياسية، الوطنية والقومية وتأثرت بها، وحاولت عبثاً وأنا في ألمانيا أن أعثر على الرواية لكي أعممها على من يقرأ، ولابد من الاعتراف بأسف، أن الناس بدؤوا لا يقرؤون، لقد نجحت الرأسمالية بإفساد عقول الناس بتوافه التسلية وقضاء الساعات بدون جدوى... أمام التلفاز والفيديو والبرامج المسلية التي في معظمها سخيفة لا تثري العقل.

صمّمت أن أجمع ما موجود من مصادر عن هذه الشابة البطلة وأن أقدمها باللغة العربية كمصدر للثقافة الوطنية ... قصة فتاة اسمها زويا ... أعدمها الغزاة ذات صباح شتائي، وألقوا بجثتها على الثلوج والحبل برقبتها لمدة 26 يوماً، وقد ظهر النصف العلوي من جسدها الشريف ... زويا صارت رمزاً مقدساً للمقاومة، وللشعب السوفيتي، ولشعوب أخرى تمر بمرحلة النضال الوطني .... زويا شعلة لا تخبو في تاريخ بلادها وشعبها وفي تاريخ الشعوب المناضلة... كرمز للمقاومة الوطنية ...

المجد والخلود لكل شهيد يفتدي وطنه ..

ضرغام الدباغ .

زويا أناتوليفانا كوزموديميانسكايا: (Soja Anatoljewna Kosmodemjanskaja)

الموسوعة الألمانية

ترجمة : ضرغام الدباغ

ولدت زويا أناتوليفانا كوزموديميانسكايا في 13 / أيلول ـ سبتمبر / 1923 في أوسينو غاي التابعة لتامبو، أعدمت في 29 / تشرين الثاني ـ نوفمبر / 1941 في بيتريشتشيفو التابعة لموسكو.، كانت مواطنة سوفيتية انضمت إلى المقاومة (الفدائيين) في الحرب العالمية الثانية، عندما تعرضت بلادها (الاتحاد السوفيتي) للعدوان والاحتلال الألماني. وهي إحدى بطلات الاتحاد السوفيتي. ومنذ 1942 تحولت إلى رمز من رموز المقاومة السوفيتية ضد الغزو الألماني.

ـ بدء العمل، الاعتقال، الإعدام :
انتمت زويا منذ عام 1938 إلى منظمة الشبيبة الشيوعية الكومسومول.. وفي نهاية شهر تشرين الأول ـ أكتوبر / 1941 تقدمت كطالبة ثانوية في موسكو، وتطوعت بإرادتها للعمل في منظمة المقاومين (الفدائيين).

قبل تطوع زويا، وجرى تعيينها في قوات الفدائيين الرقم 9903، هيئة أركان الجبهة الغربية، وكانت الواجبات الرئيسية لوحدتها تتمثل التسلل خلف خطوط الجبهة، وتخريب المنشآت التي يتخذ منها المحتل الألماني مقرات لإقامته.

في مطلع شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر / 1941 وبعد تدريب قصير، قامت لأول مرة باجتياز الخطوط الألمانية، وكانت مجموعتها تتألف من 11 فدائياً تمكنت بنجاح من القيام بعملية في أنحاء شاشوفسكايا، وعادت المجموعة دون خسائر. وكانت العملية الثانية، مع زميليها فاسيلي كلوبوف، وبوريس كريانوف الذي كان قائد المجموعة. وقامت المجموعة في ليلة 21 / تشرين الثاني ـ نوفمبر باجتياز الخطوط الألمانية، في أرجاء نيرو ـ فورمينسك. وكانت مهمة المجموعة هي إضرام النار في مساكن داخل قرية بيتريشتشيفو بالقرب من فيريجا، التي يتخذ منها المحتلون الألمان مقرات لهم، ووصلت زويا إلى الجزء الجنوبي من القرية، بموجب تقسيم المهمة بينها وبين رفيقها بوريس كريانوف. وقامت بتنفيذ الواجب وأحرقت اسطبل خيول العدو، وخسر الألمان 20 حصاناً.

بعد ذلك قام الألمان بعد ذلك بتنظيم الحراسات من بين سكان القرية، من أجل تفادي هجمات مماثلة. وفي ليلة 27 / تشرين الثاني وخلال محاول للقيام بعملية بحرق مخزن الغلال، أحس بها أحد حراس القرية وأسمع سيمون سيريدوف، الذي جلب الألمان وألقوا القبض عليها، وكان زميلها فاسيلي كلوبوكوف قد ألقي القبض عليه، واعترف على زويا، فقد كان يعتقد أنه بذلك سينجو من الحكم بالموت.

كلوبوكوف بقي لدى الألمان كأسير حرب حتى عام 1945، وتم تحريره من قبل الجيش الأمريكي، الذين قاموا بدورهم بتسليمه للأتحاد السوفيتي في تموز ـ يوليو / 1945 الذين قاموا بإعدامه في نفس العام جزاء خيانته. أما مصير قائد المجموعة فقد ظل مجهولاً، ومن المحتمل أنه قد لاقى إعدامه شنقاً يوم 29 / تشرين الثاني / 1941.

قام الألمان، منتسبو فرقة المشاة 197 بالتحقيق مع زويا، وتعذيبها، ولكنها صمدت ولم يحصلوا منها على أية معلومات، عدا اسمها الحركي (تانيا) التي ترتدي سلسلة بهذه الاسم في رقبتها، وبإدانتها بالقيام مرتين

بالحريق، حكم عليها بالإعدام، وفي يوم 29 / تشرين الثاني ـ نوفمبر / 1941 وفي الساعة 10.30 جرى تنفيذ حكم الإعدام بزويا في ساحة القرية.

ومن أجل ردع الناس، تركت جثة زويا لفترة طويلة مرمية على الأرض، ولم تدفن إلا في أعياد الميلاد (ميلاد السيد المسيح في 24 / كانون الأول ـ ديسمبر) وحتى ذلك الوقت (26 يوم) ظلت الجثة على الأرض، والنصف العلوي من جسدها عارياً في ساحة القرية، وجرى تدنيسها من قبل السكارى.

ـ مراسم الدفن وتشريف البطولة :

في 22 / كانون الثاني ـ يناير / 1942 حرر الجيش الأحمر (السوفيتي) قرية بيتريشتشيفو من أيدي المحتلين الألمان، وبعد أيام حضر الصحفي السوفيتي بيوتر ليدوف إلى القرية. واستطاع من خلال الفلاحين الشيوخ، أن يتعرف على إعدام زويا، وحتى ذلك الوقت لم يكن أهالي القرية يعلمون عنها شيئاً إلا ما أدلت به للمحققين أن اسمها "تانيا"، وحتى الصحفي تحدث في مقالته الأولى في الصحيفة التي نشرت في صحيفة برافدا يوم 27 / كانون الثاني ـ يناير / 1942، كتب عن" تانيا " .

وعندما قرأ ستالين المقال، اهتم بالأمر، وفي 30 كانون الثاني ـ يناير تم إيصال جثة زويا إلى موسكو، وبعد فترة قليلة شقيقها الذي تعرف على زويا من خلال صورتها في الصحيفة واستطاع التعرف عليها، ودُفنت في مقابر نوفوديفيتش في موسكو.

في 16 / شباط ـ فبراير / 1942 صدر مرسوم بتكريم زويا كبطلة للاتحاد السوفيتي (وهو لقب شرفي رفيع) ووضعت صورها في صحف الجبهة، ووجدت صورها عند الجنود الألمان، تظهر لقطات تنفيذ الإعدام، وصورة جثتها فوق الثلوج وحبل المشنقة في رقبتها.

ـ وقفات في مسيرة زويا ...

ـ عام 1943 وضع النحّات الروسي / السوفيتي ماتفاي مانبسير تمثال لها، نال عليها جائزة الدولة من الدرجة الأولى.
ـ في سانت بطرسبيرغ وضعت تماثيل لها، وفي عام 1944 سُميت إحدى محطات مترو موسكو باسم زويا ...
ـ في عام 1944 أنتج المخرج ليو امستدام فلماً باسم (زويا) حول حياتها.
ـ أطلق على أحد الكويكبات اسم زويا.
ـ السيدة ليوبوف كتبت ذكرياتها عن كل من ابنتها زويا، وشقيقها شورا (الذي قتل هو الآخر كجندي في الحرب) وأطلق على كتابها " قصة زويا وشورا ".
ـ في ألمانيا الديمقراطية أطلق اسمها على مدرسة ثانوية في مدن عديدة برلين ودريسدن، وتورنغن، وأخرى في برلين، وأماكن أخرى.
ـ أطلق اسم زويا على معسكر للفتيان الطلائع في منطقة الهارتس.
ـ لواء الدبابات 22 في جيش ألمانيا الديمقراطية يحمل اسم زويا.
ـ المنظمة الأساسية لمنظمة طلائع ارنست تيلمان التي تحمل اسم يوري غاغارين، مدرسة لتعليم الروسية تحمل اسم زويا.
****

(زويا أناتوليفانا كوزموديميانسكايا)

الكاتب : سيرغي تورتشينكو / Sergej Turtschenko
ترجمة : ضرغام الدباغ

ـ الحقيقة حول زويا أناتوليفانا كوزموديميانسكايا :

كان للعمل النضالي الذي قامت به زويا كوزموديميانسكايا، وهي أول امرأة حازت على اللقب الرفيع " بطلة الاتحاد السوفيتي " خلال الحرب العظمى للدفاع عن الوطن (الحرب العالمية الثانية) ما تزال حتى وقتنا المعاصر تحظى بالكثير من الإشادة والتقدير. رغم محاولات الكثيرين من طمس التاريخ البطولي للاتحاد السوفيتي، وقد جرى عن تعمد إخفاء الكثير من الحقائق، وتزيف الأرقام ومحاولة طمس الحقائق، وربما حتى المشانق التي عُلّق عليها الأبطال.

وزويا أناتوليفانا كوزموديميانسكايا هي واحدة من الأبطال الذين يتعرض تاريخهم البطولي للتزييف والتسطيح والتجاهل، ومن خلالهم تاريخ الوطن الذي شيّدت عليه أول دولة اشتراكية في التاريخ.

ـ المهمة السرية :
" لا ينشأ الكذب على صفحة فارغة "
الحقيقة أن زويا كانت قد تطوعت عبر منظمات الشبيبة في موسكو، للذهاب إلى خلف خطوط العدو، لتأدية مهام قتالية وحزبية، وفي إحدى هذه المهمات ألقي القبض عليها في قرية بيترشتشويفو

زويا لم تكن فدائية، بل كانت جندية في الجيش الأحمر (السوفيتي) في اللواء الخاص الذي كان يقوده القائد الشهير كارلوفيتش شبروغيس. وفي حزيران 1941 شكل هذا القائد وحدة خاصة أطلق عليها 9903، مهمتها القيام بمهمات خاصة خلف خطوط جيش العدو، وكان هذا التشكيل قد تم تأسيسه من المتطوعين الشبان والشابات من منظمة شبيبة موسكو وأرجائها. والقادة اختيروا من خرّيجي الأكاديمية العسكرية فرونزة.

خلال المعارك التي كانت تدور بالقرب من موسكو، كانت هذه الوحدات وعددها 50 وحدة تابعة للجبهة الغربية قد أعدت لواجبات الاستطلاع، وبالإجمال كان عددها من أيلول 1941 وحتى شباط 1942
89 وحدة، ومن بينها تلك الوحدات التي كانت مهامها العمل خلف خطوط العدو. وقد أبادت خلال عملها 3,500 من الضباط والجنود الألمان، وتصفية 36 خائن متعاون مع العدو، ودمروا 13 دبابة و14 مصفحة. في تشرين الأول ـ أكتوبر / 1941، تعرّفت على زويا في مجموعة في مدرسة الاستطلاع، ولاحقاً ذهبنا معاً إلى وحدات المهمات الخاصة التي تعمل خلف خطوط العدو. في نوفمبر 1941 أصيبت بجرح، وعنما عدت من المستوصف العسكري، علمت بالخبر المحزن باستشهاد زويا.

ولكن لماذا هذا الصمت الطويل حول الموضوع، أن زويا كانت جندية في الجبهة الأمامية ضمن الجيش الأحمر ؟ توجهت بالسؤال إلى السيدة فيدولينا.

" لأن الوثائق المتعلقة بالمهمة القتالية، الأمر الصادر من أركان القيادة العليا رقم 0428 بتاريخ 17 / تشرين الثاني ـ نوفمبر / 1941 ، ولا سيما الوحدة التي كانت فيها زويا، كانت وثائق سرية لاحقاً صار بإمكاني الإطلاع عليها بعد رفع السرية عنها . الأمر الصادر من ستالين وبتوقيعه. فيما يلي نصّه " يجب أن لا نمنح الجيش الألماني الفرصة والإمكانية أن يقيموا في القرى والبلدات، بل ينبغي أن يقذف بالمحتلين الألمان من كافة النقاط التي يحتلونها إلى البرد في الحقول، اقذفوا بهم خارج البيوت والغرف الدافئة، وأرغموهم على البقاء في العراء الطلق تحت السماء. إن الأمر يشمل كافة النقاط التي خلف خطوط الجيش الألماني بمسافة عمق 40 ـ 60 كم، وتدميرها وبمسافة عن خطوط العمليات الحربية بمسافة 20 ـ 30 كم إلى يسار ويمين الطرق وإحراقها.

بدأت طائرات سلاح الجو على الفور بتدمير المجمعات والقرى في مناطق العمليات والقتال، وبمدفعية الميدان والهاونات، وبواسطة وحدات الاستطلاع ورجال التزلج على الثلوج بواسطة زجاجات حارقة، والقنابل اليدوية. وخلال الانسحاب الذي أرغمت قواتنا عليه، كان على المواطنين السوفيت النزوح بدون استثناء وتدمير كافة أماكنهم وقراهم وتدمير كل ما يمكن أن يستفيد منه العدو ويستخدمه.

واجبات كهذه قام بتنفيذها في مناطق وأرجاء موسكو، وحدات كوحدات القائد شبروغيس، بما فيهم الجندية زويا كوزموديميانسكايا، وربما قيادة البلاد والقوات المسلحة لم تشأ أن تنشر المعلومات حول فعالياتهم، أن المقاتلين السوفيت في منطقة موسكو كانوا يحرقون القرى وما يصلح للسكن، وكانت ملفات غير مرغوب بفتحها، حتى جاءت الأوامر العليا بفتح وثائق كهذه أو ما يشابهها..

بالطبع أمر كهذا يلقي الضوء على غوامض معركة موسكو، ولكن حقيقة الحرب هي قاسية جوهرياً، تفوق تصوراتنا الحالية عنها. وإنه شيء غير معروف كيف كانت ستمضي معركة موسكو، الأكثر دموية في الحرب العالمية الثانية، لو تمكن العدو الفاشي العيش في مقرات بيوت ومقرات مُدفّأة ويملؤون جيوبهم من إنتاج الكولخوزات (المزارع التعاونية). لهذا السبب حاول الكثير من المقاتلين في مجموعة زويا أن يحرقوا ويفجروا مثل هذه البيوت والمقرات، وحيثما يتخذ المحتلون منها مقرات وقيادات الأركان. وليس المرء بحاجة ليؤكد، أن الصراع كان مسألة حياة أو موت، والوالجين في الصراع أمامهم حقيقتين اثنين : الأولى :البقاء على قيد الحياة مهما كان الثمن، والثانية : خيار بطولي يتمثل بـ .. الاستعداد للتضحية بالنفس من أجل النصر. صراع هذه الحقائق هو ما حدث عام 1941، وهو يحدث اليوم أيضاً. وعلى ضوء هذه القاعدة حدثت بطولة زويا.

ماذا حدث في قرية بيتريشتشيفو Petrischtschewo؟

في ليلة 21 / 22 تشرين الثاني / 1941 عبرت زويا خط الجبهة ومعها مجموعتها الخاصة، ومجموعة الاستطلاع المؤلفة من 10 أفراد. وصادفت المجموعة داخل الأراضي المحتلة، في عمق الغابة، مجموعة معادية، قتل أحدهم، وهرب الآخر عائداً من الخوف، ثلاثة فقط، قائد المجموع بوريس كانيانوف، وزويا كوززموديميانسكايا والمنظم الشيوعي الطالب في مدرسة الاستطلاع فاسيلي كلوبوف واصلوا مسيرهم في طريقهم المحدد سلفاً.

في ليلة 27 / 28 تشرين الثاني / 1941، وصلوا إلى قرية بيتشتشيفو حيث كانت مهمتهم تدمير أهداف عسكرية، من بينها اسطبل للخيول كانت تضم أيضاً قاعدة للإرسال اللاسلكي، وتدمير معدات للاستطلاع.

الأكبر سناً بينهم كان بوريس كراينكوف، عرض عليهم المهمة بوضوح، على زويا أن تتجه إلى القسم الجنوبي من القرية، وبما تحمله من قناني حارقة (قنابل مولوتوف) وتقوم بحرق ما تصادفه من بيوت يتخذ منها ضباط العدو وجنوده مقرات لهم. وأن يتجه بوريس كراينكوف إلى وسط القرية حيث يتواجد مقر عسكري ألماني، أما رفيقهم الثالث فاسيلي كلوبوف فعليه أن يتجه إلى شمال القرية. نفذت زويا مهمتها بنجاح، حيث أحرقت منزلين كان يتخذ منها ضباط وجنود الاحتلال الألمان مقرات لهم، كما تمكنت من إحراق سيارة للعدو. ولكنها وفي طريق عودتها إلى الغابة، وحينما ابتعدت عن موقع العملية، لاحظت وجود شخص من أهالي المنطقة واسمه سفيردوف، الذي نادى واستدعى جنود العدو الذين أسرعوا وألقوا القبض عليها. وكمكافأة لسفيردوف، دعاه الجنود الألمان لاحتساء كأس من الفودكا. كما أخبر لاحقاً بعد تحرير القرية سكان القرية.

تعرضت زويا لتحقيق طويل وشرس وتعرضت للتعذيب، ولكنها لم تدلي بأية معلومات، لا عن وحدتها، موقع الوحدة، ولا عن طبيعة المهام التي تقوم بها الوحدة. وبعد وقت قصير تم إلقاء القبض على فاسيلي كلوبوف أيضاً، الذي أدلى لشدة خوفه باعترافات كاملة عن كل شيء يعرفه، أما رفيقهم الثالث بوريس كريانوف، فقد تمكن من الوصول إلى الغابة، والإفلات.

ـ الخائن :

ونتيجة لذلك فقد اعتبر كلوبوف كجاسوس من الفاشية، وبرواية "أسطورية" أنه تمكن من الهرب والعودة إلى معسكر الانطلاق، ولكنهم هناك لم يصدقوا رواياته، وخلال التحقيق أدلى كلوبوف بمعلومات عن بطولة زويا :

مقتبسات من محضر التحقيق بتاريخ 11، 12 / آذار ـ مارس / 1942
سؤال : أوضح لنا الظروف التي اعتقلت فيها ؟

جواب : عندما وصلت إلى البيت المحدد لي، أخرجت القنينة الحارقة وأشعلتها وقذفت بها، ولكنها لم تشتعل وهنا رأيت بالقرب مني اثنين من الحراس الألمان وشعرت بالخوف وبدأت بالركض باتجاه الغابة التي تبعد 300 عن القرية، وعندما وصلت الغابة قذف اثنان من الجنود الألمان بنفسيهما علي، وانتزعا مني المسدس، والطلقات، وحقيبة فيها خمسة قناني حارقة، وغداء الطوارئ، وكذلك لتر من الفودكا.
(يتناول الروس الفودكا في الشتاء طلباً للدفء أكثر من شيء آخر / المترجم)

سؤال : ما هي الإفادة التي أدليت بها للضابط الألماني ؟
جواب : عندما حولوني للضابط، كنت خائفاً، وأخبرته بأننا ثلاثة أفراد في العملية. وقلت الأسماء بوريس كريانوف وزويا كوزموديميانسكايا، والضابط أصدر أمراً للجنود باللغة الألمانية، فذهبوا بسرعة خارج البيت، وعادوا بعد بضعة دقائق ومعهم زويا كوزموديميانسكايا معهم، ولا أعلم شيئاً عن بوريس كريانكوف، فيما إذا كانوا قد اعتقلوه هو الآخر أم لا.

سؤال : هل كنت حاضراً حين استجواب زويا كوزموديميانسكايا .
جواب : نعم، كنت حاضراً، سألها الضابط كيف أشعلت النيران في القرية، فأجابت بأنها لم تحرق القرية. بعد ذلك بدأ الضابط بضربها وطلب منها الاعتراف، ولكنها انكرت كل شيء، وللإجابة خلال وجودها اعترفتُ للضابط أن زويا كانت قد جاءت معي للقرية لتنفيذ الواجب، وكان واجبها الجزء الجنوبي من القرية، وهي قامت بإحراق البيوت. وحتى بعد ذلك أجابت زويا بالنفي على سؤال الضابط. وعندما لاحظوا أنها مصرة على الإنكار والصمت، قام بعض الضباط بخلع ملابسها وقاموا بضربها، لكي يرغموها على الإفادة. ساعتين أو ثلاث يضربونها بعصي مطاطية، ولكن زويا أجابت الضباط " اقتلوني، إنني سوف لن أقول لكم شيئاً " بعدها جرى تعذيبها. بعدها لم أرها مرة أخرى.

من إفادة سميرنوفا بتاريخ 12 / أيار ـ مايو / 1942

" في اليوم التالي، بعد الحريق، كنت عند قريبتي، وهنا جاءت المواطنة سولينا إلي وقالت " لنمضي، سوف أريك من قام بإحراقك. وبعد أن قالت هذه الكلمات نهضنا سوية إلى منزل كوليكوف حيث كان مقر إقامة القيادة الألمانية، وكانت هناك حراسة من الجنود الألمان، فبدأنا أنا وسولينا بشتمهم وعدا الشتائم، رفعت قبضتي (علامة غضب واحتجاج / المترجم) مرتين، وسولينا قامت بضربها بيدها. ولم تسمح لنا فالنتينا كوليك بأكثر من ذلك، ليكملوا التحقيق مع الفدائيين، وقذفوا بنا خارج البيت. وخلال إعدام زويا كوزموديميانسكايا ، عندما جاء بها الألمان إلى المشنقة، أخذت بيدي عصا خشبية، وذهبت إلى الفتاة، وضربتها أمام أنظار كافة الحضور على رجلها، في تلك اللحظة وعندما كانت الفدائية تحت المشنقة، لم أعد أذكر بعد ما قلته ".
(ترى ماذا كانت مشاعر هذه الفتاة الشابة التي تقدم حياتها/ ومثل هذه المخلوقة الهمجية تهينها وتضربها ... المترجم)

ـ الإعدام :
عندما أخرجوها من البناية للساحة تقول كوليكا " علقت برقبتها لوحة كتب عليها " مشعلة حرائق " باللغتين الروسية والألمانية، وقادوها قابضين عليها من ذراعيها إلى المشنقة، لأنها وبسبب التعذيب الذي نالته، لم يكن بوسعها السير لوحدها، وعندما صعدت إلى المشنقة بدأ العديد من الألمان وسكان القريبة بتصويرها.

وهنا هتفت زويا " أيها المواطنون، قفوا .. لا تذهبوا .. لا تنظروا، على المرء أن يساعد الفقراء وأن يناضل، إن موتي هو في سبيل الوطن هي خاتمة حياتي" . ثم قالت " أيها الرفاق، إن النصر سيكون لنا، أيها الجنود الألمان، قبل أن يكون متأخراً، سلموا أنفسكم للأسر. الاتحاد السوفيتي لا يمكن قهره " هذا ما قالته في تلك اللحظة وتم تصوير هذه المشاهد.

ثم أنهم كانوا قد وضعوا بعض الصناديق، وصعدت إلى المشنقة دون أن يصدر إليها الأمر، ونستغرب من أين جاءت لها تلك القوة، صعدت لوحدها على الصناديق، وجاء ألماني لكي يزيح من تحت قدمها، في هذه اللحظة هتفت " كم شخص هنا ستشنقون منا لن تستطيعوا قتلنا جميعاً ... نحن 170 مليون، ولكن رفاقنا سوف يثأرون لي ويحاسبوكم، ثم قالت وحبل المشنقة في رقبتها، وفي تلك اللحظة أرادت أن تقول شيئاً، ولكن جندي ألماني أزاح الصندوق من تحت قدميها، وشُنقت. وكانت تحاول بحركات عشوائية أن تصل بيدها إلى الحبل، ولكن جندي ألماني، كان يضربها على يدها، بعدها هدأ جسدها.

ولشهر كامل (26 يوماً) ظلت جثة الفتاة مرمية على الأرض وسط قرية بيتريشتيشيفو . ولم يسمح الألمان بدفنها إلا يوم 1 / كانون الثاني ـ يناير / 1942.
(هنا أيضاً المعطيات والمعلومات فيها تفاوت وإن كان بسيطاً / المترجم)

ـ كل شيء من تلقاء نفسه :
في مساء كانون الثاني ـ يناير / 1942 وخلال معركة موشياسك، جاء بعض الصحفيين وشاهدوا بعض الناس من سكان القرية وكانت النار تشتعل ببعض الأكواخ في المنطقة، وأخذ مراسل صحيفة البرافدا بيوتر ليدوف يتجاذب الحديث مع مزارع مسن، الذي أخبره، أن الاحتلال فوجئ في قرية بيتريشتشيفو أثناء إعدام الفتاة المسكوفية زويا " بأنها عندما كانوا يهمون بشنقها، ألقت كلمة.. هددتهم فيها جميعاً ...".

وحكاية هذا العجوز هزت صحفي البرافدا بحيث أنه في ذات الليلة قصد قرية بيتريشتشيفو، ولم يهدأ الصحفي حتى تحدث مع جميع سكان القرية، وسماع كافة التفاصيل عن إعدام البطلة جان دارك روسيا، هكذا أطلق عليها واعتبرها فدائية. وسرعان ما عاد بعدها ومعه العامل في قسم التصوير في صحيفة البرافدا، وجرى فتح القبر، وصُوِّرت الفدائية.

والاسم الحقيقي للفتاة التي شنقت، قررته اللجنة التي شكلت في موسكو مطلع شباط ـ فبراير / 1942 في لجنة الشبيبة، وفي هذا الملف الذي دوّن بتاريخ 4 / شباط ثبت ما يلي:
أن مواطني قرية بيتروتشيتشيفو (فيما يلي أسماؤهم) الذين قدموا الصور الفوتوغرافية إلى أركان الجبهة الغربية تؤكد أن، الفتاة التي شنقت هي المنظمة في الشبيبة (الكومسمول) زويا كوزموديميانسكايا .
أن اللجنة تأكدت أن جثة الفتاة المدفونة هي زويا كوزموديميانسكايا، وتأكدت مرة أخرى أن الفتاة المعدومة هي الرفيقة زويا كوزموديميانسكايا.

في 5 / شباط ـ فبراير / 1942 وجهت اللجنة رسالة إلى اللجنة المحلية للكومسمول / موسكو، اقتراحاً بمنح زويا كوزموديميانسكايا لقب " بطلة الاتحاد السوفيتي ". وفي 16 / شباط ـ فبراير / 1942 صدر قرار رئاسة مجلس السوفيت الأعلى. وبهذا تصبح الجندية في الجيش الأحمر (الجيش السوفيتي) زويا كوزموديميانسكايا أول امرأة تنال هذا اللقب في الحرب الوطنية العظمى، تكرمت بها مع النجمة الحمراء " بطلة الاتحاد السوفيتي ".

ملحق :
تمكنت المخابرات السوفيتية، أن تتأكد، أين هم عصابة الجلادين الفاشست، الذين قتلوا زويا كوزموديميانسكايا. بعد هذا بقليل كانت جميع عناصر السرية 332، مع قائدها الملازم الأول رودرر، قد أبيدت بكاملها على يد الجيش السوفيتي في المعارك بالقرب من سمولنسك. في رماد المعارك وجدت في جثة المصور الهاوي الذي كان في الوحدة المذكورة، وجدت خمسة صور للدقائق الأخيرة من حياة البطلة زويا كوزموديميانسكايا، طُبعت ووُزعت على كل الجبهات قي 3 / تسرين الأول - أكتوبر / 1943 والصحف الرئيسية، مما أدى إلى اشتعال غضب جديد للشعب ضد المحتلين الفاشست.

هوامش الفصل الثالث

1. في المتحف الحربي في موسكو، يشاهد الزائر، تفاصيل كثيرة عن نضال المقاومة السوفيتية التي خاضها الشعب دفاعاً عن الوطن، واجترحوا المآثر العظيمة، وقاموا بأعمال نضالية / قتالية مهمة، والمتحف يضم مصغرات عن مقرات المقاومة، وعن وسائل أتصالهم، وأسلحتهم، وصور قادة المقاومة وشهدائها.

المقاومة التشيكوسلوفاكية

1945 – 1939

ترجمة : **ضرغام الدباغ**

برلين 2019

العنوان الأصلي : المقاومة التشيكوسلوفاكية : 1939 – 1945

: Tschechoslowakischer Widerstand 1939–1945

المصدر : الموسوعة الألمانية على الإنترنيت

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

صورة الغلاف : نصب لأحد ضحايا الفاشية من أبطال المقاومة

المراسلات :

Dr. Dergham Al Dabak :
Tel: 0049 - 30 – 66 302 184 / E-Mail: drdurgham@yahoo.de

إهداء

إلى كل من يأبى أن يشاهد العدو يتبختر على أرض وطنه
فينهض ويقاتل بما يتيسر بيده
شعاره
الموت أو الوطن

المحتويات

ملاحظات أولية.

المقاومة الشيوعية.

المقاومة في المحمية : بوهيميا وموارفيا.

حركة المقاومة.

انتفاضة براغ.

انتفاضة سلوفاكيا. فعاليات المعارضة 1939 - 1944.

الانتفاضة الوطنية السلوفاكية.

الانتفاضة في السوديت.

عمليات من الجو.

10. أيقونة المقاومة : يوليوس فوجيك.

المقدمة

جيكوسلوفاكيا ...البلد الجميل الراقي في كل شيء، ولكنه من البلدان التي كُتب عليها أن تبقى هدفاً مغرياً للمتآمرين، شعر راقي مثقف، غير مشاكس لا أطماع لديه في أراضي أحد، ولا أهداف سرية ولا يبيت النوايا السوداء.

كل شيء في تشيكوسلوفاكيا رائع/ فهم يصنعون أفضل الأسلحة، فاسم البندقية المشهورة برنو منها، واسم ل39 طائرة التدريب المشهورة منها، ومدرعة الطوباز ناقلة الجنود المدرعة، والمسدس غراندزيغر، وهم يصنعون أشهر بيرة في العالم والشاحنة المطلوبة عالمياً باترا، وإذا سنحت لك الفرصة أن تفطر صباحاً بإحدى مطاعم براغ فسيقدمون لك أشهى خبز، ومعامل سكودا عريقة في أوربا لصناعة السيارات هي تشيكية، وهم يصنعون أجمل وأنفس أنواع الكريستال والزجاج في العالم لا ينافسهم فيها أحد.

براغ هي وطن الكاتب المبهر فرانز كافكا، وبلد الصحفي العالمي يوليوس فوجيك، ويوزع اتحاد الصحفيين العالميين جائزة فوجيك السنوية، نهر فالتافا الجميل الذي يخترقها وهناك جسر تشالرز الذي شيّد في القرن الرابع عشر بُني بالحجارة وبياض البيض بدل الإسمنت، فيها جامعات راقية، مسارح، ودور موسيقى، ومتاحف.

(الصورة: لوحة رسمها الألماني / الألزاسي فرانز زاندمان نهر فالتافا وجسر تشارلز)
كل شيء جميل في براغ، ويوم تغادرها تفكر متى تعود إليها، ولكن حظ هذا البلد الجميل الوديع أن يكون في مرمى نيران جيرانه، ألمانيا تريد منه الكثير، وكذلك بولونيا، والنمسا، وهنغاريا، ولم يستقر هذا البلد إلا في ظل الاشتراكية، وعندما ذهب النظام الاشتراكي، تمزق هذا البلد إلى دولتين، وربما القادم أسوأ.

تشيكوسلوفاكيا تتألف من قوميتين رئيسيتين: التشيك، وبعض التشيك يود أن يرتبط بأصله بالألمان، والسلوفاك الذين من الأعراق السلافية، وهناك قضية أثيرت في الحرب العالمية الأولى عندما تأسست دولة تشيكوسلوفاكيا للمرة الأولى، اقتطع الحلفاء المنتصرون قطعة من جنوب شرق ألمانيا واسمها " أرض السوديت "(Sudetenland) وضموها لتشيكوسلوفاكيا، التي اعتبرت أراضي بوهيميا وموراڤيا، ضمت إليها سلوفاكيا، فتأسست هذه الدولة التي سوف لن يطول عمرها ليبلغ القرن.

الحزب النازي بزعامة قائده هتلر بلغ الحكم بالانتخابات، وبدأ يخطط لاستعادة ما فقدته ألمانيا، ولينال شأنه شأن الدول الاستعمارية الكبرى ما يستحقه كدولة عظمى، وأول ما تطلع إليه هو ضم النمسا لألمانيا (وهو شخصياً كان نمساوياً) الخطوة الثانية كانت أرض السوديت الألمانية، استطاع أن ينالها سلماً بعد أن ضمن سكوت بريطانيا وفرنسا.

في أواسط السبعينات حصلت على تسجيل صوتي (كاسيت) لخطاب هتلر في البرلمان الألماني وشاهدته لاحقاً في التلفاز. بعد أن ضمن هتلر موافقة بريطانيا وفرنسا، ألقى خطبته النارية وفيها قدم الإنذار النهائي لتشيكوسلوفاكيا، ولا زلت أذكر حرفياً فقرات من هذا الخطاب/ الإنذار النهائي (Ultimatum) (حسب التعبير القانوني/الدبلوماسي وباللغات اللاتينية. هتلر يرعد بصوته" حتى الأول من سبتمبر (أيلول) .. إما السوديت حرة أو ..... (يسكت هتلر، ولكن الصفوف الأولى في البرلمان كانوا من قادة الجيش ماريشالات وجنرلات ينهضون ويهتفون بصوت واحد) ... حرب ... يكرر هتلر ... أو ... يكرر الضباط ... حرب، وهنا يقول هتلر بصوت ناعم ... يا سيد بينش عليك أن تختار". وبينش الذي كان رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا دكتور في الفلسفة والقانون وسياسي محنك، الذي ما أن سمع الإنذار فهم مجريات تفاصيل الحفل المقبل، فأعلن قبوله الإنذار، وذهبت السوديت، وبعدها بوهيميا وموراڤيا على أساس أنها كانت تابعة للنمسا قبل الحرب العالمية الأولى، فابتلعتها معدة هتلر، وهكذا ضاعت تشيكوسلوفاكيا وتفرقت أيدي سبأ ..(1)

لذلك فالقارئ لهذا الكتاب، سيجد أن المقاومة التشيكوسلوفاكية لم تنهض كالمقاومة الفرنسية، أو اليونانية، أو النرويجية أو سواها، ذلك لأن لكل بلد ظروفه الخاصة به نابعة من عناصر وعوامل عديدة، ذاتية وموضوعية، داخلية وخارجية، سياسية واقتصادية وثقافية وتشكيلات وتركيبات تاريخية، وهذا الطابع الخاص منح المقاومة التشيكية أبعادها، كان لها طابعها النضالي المسلح، لكنها كانت سياسية / احتجاجية أكثر مما كانت مسلحة، وحربية، الشعب بصورة عامة رفض الاحتلال الألماني النازي، وقدم التضحيات بسخاء. ولكن الشعب يستحق بذكائه وعمله الدؤوب أكثر مما يناله في الواقع، الأطماع الدولية، ولعبة التوازنات هم أولى ضحاياها .

هوامش

---

1. (نص الإنذار باللغة الألمانية :
bis zum erstens September entwieder Sudetenland ist Frei .... oder ... oder .... Herr Benes Sie müssen wehlen
(

اللوحة : فرانز زاندمان : (Franz Xaver Sandmann -- 1840) براغ .. نهر فالتافا وجسر تشارلز

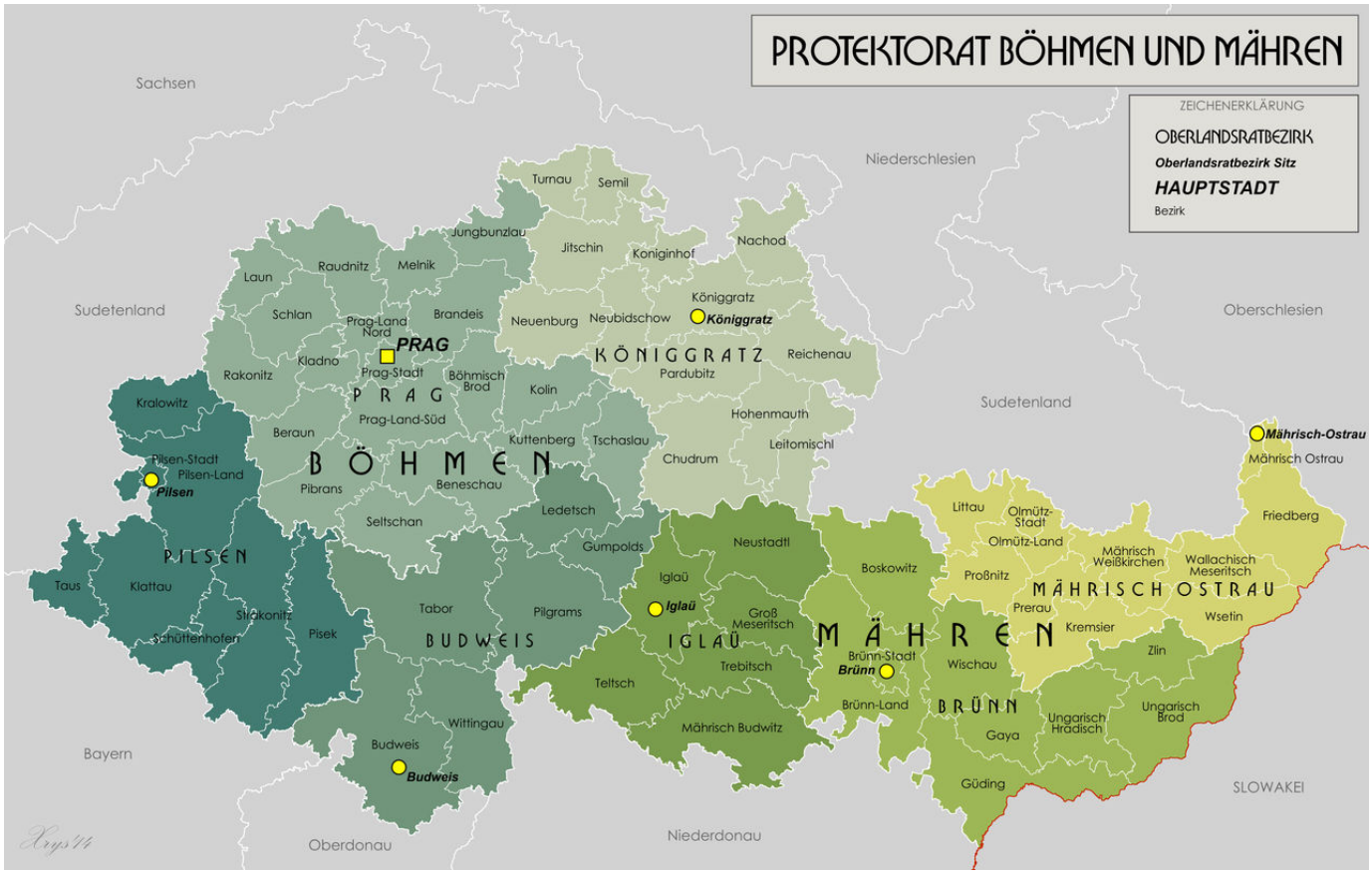

(الخارطة: محمية بوهيميا وموارفيا : الأخضر الغامق على اليسار مقاطعة بوهيميا، والأخضر الفاتح على اليمين مقاطعة موارفيا)

المقاومة التشيكية 1939 ـ 1945

تمتد المقاومة التشيكية ضد سياسة التوسع الألمانية على خلقية أحداث أعوام 1938 ـ 1939، التي حدثت بعد عشرون عاماً بعد تأسيس دولة تشيكوسلوفاكيا من التشيك والسلوفاك في 18 / تشرين الثاني ـ أكتوبر / 1918، ولكنها وجدت نفسها بعد اتفاقية ميونيخ الرباعية في وضع يهدد سلامتها وكيانها، فوجدت نفسها بحاجة للاعتماد على المعاهدات الدولية. ولكن هذه الاتفاقيات كانت غير كافية، فالوفاق الصغير مع رومانيا ويوغسلافيا، لم يعد يفي بالغرض في حالة هجوم من ألمانيا، كاتفاقية التحالف والصداقة مع فرنسا عام 1929، ففرنسا اليوم لم تعد في وضع تتمكن فيه من مواجهة ألمانيا بمفردها. وكانت هناك اتفاقية مع الاتحاد السوفيتي، التي عقدت في 16 / أيار / 1935، ولكنها سوف تدخل حيز التنفيذ، إلا إذا أوفت فرنسا بالتزاماتها. ولم تكن هناك اتفاقيات وتحالفات عسكرية تشيكية ـ بريطانية مباشرة، إلا بوصف بريطانياً حليفاً وثيقاً لفرنسا وفق اتفاقية لوكارنو. (1)

وخلال خطط توسع الديكتاتور الألماني أدولف هتلر، وقد أصبحت أكثر وضوحاً في أزمة السوديت (Sudetenland)، وأيضاً حزب السوديت الألماني وزعيمه كونراد هينلاين، كان يصعّد الضغط، حين قررت بريطانيا وفرنسا، اتباع سياسة التهدئة، باعتبارها سياسة ملائمة للموقف. وفي 29/ أيلول/ 1938، جرى توقيع اتفاقية ميونيخ التي بموجبها ضمّت أراضي السوديت لألمانيا. (2)

وبضغط من حكومتي بريطانيا وفرنسا في النهاية بتاريخ 30 / أيلول/ 1938، قبلت الحكومة التشيكوسلوفاكية، وأن لا داعي للإنذار والتعبئة التي كانت قد أعلنتها، أعقب ذلك الاحتلال العسكري للجيش الألماني لمنطقة السوديت ابتداءً من 1 / تشرين الأول / 1938 وسط احتفالات سكان الإقليم الألمان، والبولونيون من سكان الإقليم تركوا ونزحوا إلى بولونيا، وهنغاريون فرّوا إلى هنغاريا. في 15 / آذار / 1939 أتمّ الجيش الألماني احتلاله لما تبقى من تشيكوسلوفاكيا، وبذلك جرى حل تشيكوسلوفاكيا كدولة، وأعلنت مولدافيا وبوهيميا كمحميات، هي مناطق كانت تابعة سابقاً للنمسا وهنغاريا، وفي 14 / آذار / 1939، ظهرت دولة سلوفاكيا المستقلة.

أولاً : ملاحظات أولية

وعلى النقيض من التحرك ضد الأسرة الملكية هابسبورغ في إمبراطورية النمسا ـ المجر من أجل تأسيس دولتهم التشيكية الخاصة خلال الحرب العالمية الأولى، ذلك التحرك الذي يطلق عليه في اللغة والأدب السياسي التشيكي والسلوفاكي " الانتفاضة الأولى " وباللغة التشيكية (Prvni odboj)، والفرق بينها وبين الانتفاضة التي حدثت بعد عام 1948، ضد النظام الشيوعي التي أطلق عليها في الأدب التشيكي، وسميت" الانتفاضة الثالثة " (durhy adboj) .
الانتفاضة ضد سياسة توسع الرايخ الهتلري، كان لها تداعيتها وقادت لأنشطة دبلوماسية تشيكية في الخارج، ففي لندن حيث كانت الحكومة التشيكوسلوفاكية في المنفى. ونضال المقاومة (Partisan) في الوطن ضد الجيش الألماني، من خلال الجيش التشيكوسلوفاكي في المهجر، في الجبهة الغربية، وكذلك في الجبهة الشرقية. والانتفاضة الثالثة في المناطق التي كانت في السابق تابعة لتشيكوسلوفاكيا. وقام الجيش الألماني بالمقابل إلى القيام بحملات انتقامية، ومجاز ضد السكان الأهليين. (3)

الرئيس التشيكي ادوارد بينش الذي وجد نفسه بعد أحداث آذار / 1939، (احتلال ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا) مع بعض المساعدين، في الولايات المتحدة، حيث قام في البداية بتأسيس ما أطلق عليه " المجلس المؤقت " (Direktorrims) نقل في صيف / 1939 أعمالها وأنشطتها إلى باريس، ومن 17 / تشرين الثاني حيث أسس ما أطلق عليه اسم " اللجنة الوطنية التشيكوسلوفاكية " التي اعترفت بها فرنسا، ولاحقاً بريطانيا، والولايات المتحدة كدولة. وحتى قبل سقوط واحتلال فرنسا، كانت اللجنة الوطنية التشيكوسلوفاكية قد انتقلت تدريجياً إلى لندن كمكاتب وأنشطة، وسرعان ما أطلقت من لندن استعدادها لتشكيل حكومة معترف بها في لندن. (4)

وحكومة بينش اعترف بها بتاريخ 21 / تموز / 1940 كحكومة مؤقتة، وفي 18 / تموز / 1941، اعترف بها كحكومة تشيكوسلوفاكيا في المنفى. واعترف بها من قبل الحلفاء، ومقرها في لندن، ولها نفس المكانة مثل حكومات أخرى، كهولندة والنرويج، واليونان، ساهمت إلى حد بعيد في الحفاظ على الكيان التشيكوسلوفاكي حسب اتفاقية ميونيخ الرباعية (باستثناء الكاربات الأوكرانية).

على الرغم من أن التسلسل الزمني، بالإضافة إلى طبيعة مقاومة النازية التي كانت تختلف في منطقة عن أخرى، كالمنطقة المحمية بوهيميا، وموارفيا، وسلوفاكيا، ولكن بوسع المرء أن يتحدث عن " المقاومة التشيكوسلوفاكية ". وهذا يشمل الأدب والمؤلفات وكذلك المصادر الحكومية الحالية، ولم يكن المرء ليجد انفصالاً. والسبب في ذلك يكمن بصفة خاصة في حقوق القانون الدولي، الذي كان يعتبر المنطقتين في وحدة واحدة، التي مثلت وحدة القسمين (تشيكيا ـ سلوفاكيا) والتواصل في دولة واحدة من عام 1913 وحتى عام 1993. ومثّل الرئيس بينش هذه الوحدة دولياً وعرض " نظرية استمرارية القانون " التي عرضها بتاريخ 26 / حزيران / 1940 من إذاعة لندن. (5)

وكان السياسيون التشيكوسلوفاكيون مؤمنين بقوة القانون واستمراريته، وبشرعية نظامهم، وكانوا يطالبون ويناشدون باستمرار باستخدام كلمة "تشيكوسلوفاكيا"، ومصطلح حكومة تشيكوسلوفاكيا في المنفى" (Goverment of Czechoslovakia in Exile) ومصطلح " الجيش التشيكي في المنفى" (Exile Army) وكذلك تشكل سرب طيران تابع للقوة الجوية التشيكية، سرب القاصفات رقم 311، (No, 311 Czechoslovakia Bomber Squardon)، وكانت الاتفاقية المعقودة مع الحكومة البريطانية تنص عن اتفاقية مع دولة تشيكوسلوفاكيا.

ويعود تدوين تاريخ المقاومة خلال الحرب العالمية الثانية، يبدأها المؤرخون عادة من آذار / 1939، وهذا يعني استكمال احتلال تشيكيا، وتأسيس كيانات محميات بوهيميا وموارفيا، وهو ما يعني بعبارة واقعية، نهاية دولة تشيكوسلوفاكيا ككيان، والزمن السابق لم يكن السبب ويبدو أن المؤرخين فاتهم الإشارة إلى أن منظمات مقاومة كانت قد انتظمت، وحتى كانت هناك مقاومة لا يشار إليها في منطقة السوديت.

ثانياً : المقاومة الشيوعية

في الأدب التشيكي هناك تمييز دقيق وجوهري بين المقاومة البرجوازية ذات التوجه الموالي للغرب، وبين المقاومة الشيوعية. بعبارة أخرى، المجاميع التي كان يقودها أو يهيمن عليها الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، والخلفية ليست قائمة على تاريخ الحزب الشيوعي السلوفاكي في البلاد، بل بسبب العلاقات الواقعية لقيادات الحزب الشيوعي في أعقاب تأييدهم لاتفاقية عدم الاعتداء التي وقعها النظام الهتلري النازي مع الاتحاد السوفيتي في 23 / آب / 1939، ومنذ ذلك الوقت وحتى صيف عام 1941، كان الحزب الشيوعي السلوفاكي وكذلك في كيان المحمية، بوهيميا وموارفيا، وكذلك يتخذ ذات المواقف التي يتخذها الكومنترن (Komintren) التي كانت ترى في بريطانيا وفرنسا وحلفائهما " العدو الأكبر " والتي كانت تجد في الأحداث ما قبل الحرب التشيكية رؤية أخرى لها .(6)

وفي سلوفاكيا، بدا للعيان استعادة مرحلة ما قبل الحرب، وكان هذا يعني استعادة وضع الدولة المتحدة على خلفية أن: الشيوعيين السلوفاكيين كانت لهم اليد الطولى في البلاد، بل هم من رفع شعار " سلوفاكيا السوفيتية "، وفكرة الانضمام للاتحاد السوفيتي (حسب نماذج الدول والكيانات التي كانت في البلطيق صيف عام 1940).

ولم يتغير الخط السياسي للكومنترن وقيادة الحزب السوفيتي إلا بعد أن قامت الجيوش الألمانية بمهاجمة وغزو الاتحاد السوفيتي بتاريخ 22 / حزيران / 1941، تغيرت بعدها توجهات الشيوعيين التشيك والسلوفاك في النضال والمقاومة، وأصبحت الآن الأساس وفي مقدمة العملية الإعلامية والدعائية ضد ألمانيا الهتلرية، وكان هدفها لوقت قريب الثورة الاشتراكية. وهكذا فإن التعاون والتنسيق بين الديمقراطيين والشيوعيين أصبح ممكناً، وكذلك التعاون بين الحكومة التشيكوسلوفاكية في المهجر (لندن)، مع قيادة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في مهجرها بموسكو قد تحسن.

وخلال الحرب، لم يكن الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي (KSC) يمثل سوى الشيوعيين التشيك، لأن الحزب الشيوعي السلوفاكي (KSS) كان قد أصبح منظمة مستقلة منذ عام 1939، ولهم حزبهم الخاص، الذي تأسس تحت اسم الحزب الشيوعي السلوفاكي (KSS).

والحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي (KSC) بوصفه الحزب التشيكوسلوفاكي الوحيد الذي كان يعمل سراً (بصورة غير شرعية) على أراضي المحمية وتناوب على قيادتها أربع قيادات، ومن أشهر شخصياته القيادية: يوليوس فوجيك، ويان تسيكا، وادوراد أوركس.

بعد عام 1948، تعرض دور الشيوعيين في نضال المقاومة ضد ألمانيا الهتلرية، للمبالغة في تقييمه في كتابات المؤرخين في الحقبة الشيوعية، وخاصة بعض الشخصيات كيوليوس فوجيك، باعتباره شخصية قامت بدور تاريخي يستحق التمجيد. (7)

ثالثاً : المقاومة في المحمية

المقاومة في المحميتين بوهيميا وموارفيا شهدت تأسيس عدة منظمات مقاومة، وبعضها كانت فعالة حتى قبل تأسيس نظام المحمية، ومن بينها المنظمة اليسارية المسماة " لجنة نحن سنبقى أوفياء" ، التي انبثقت من منظمة (أكاديمية العمل)، ولجنة دعم الديمقراطية في إسبانيا، وكان لديها أكثر من 2000 عضو في التشيك والسلوفاك قاتلوا في الألوية الأممية، وكذلك منظمة (PVVZ) الجمعية الاجتماعية، الاشتراكية الديمقراطية للنقابات والمثقفين اليساريين. في شهر أيار / 1938، اشترك بعض الذين كانوا قد شكلوا لجنة بذات الاسم والعنوان" لدعم الجمهورية ضد هتلر " تجمعوا وكانت لهم اتصالات غير محددة الطابع فيما بينهم.

(الصورة: الكاتب المناضل يوليوس فوجيك)

وكذلك مجموعة "المركزية السياسية (PU)" التي كانت منظّمة من قبل الرئيس بينش وحكومة لندن، وكانت المنظمة الأم للمقاومة، كانت من بين منظمات المقاومة. والرئيس بينش الذي غادر البلاد إلى الخارج بتاريخ 20 / تشرين الأول، أسس مجموعة من سياسيي الأحزاب الذين التقوا عدة مرات، مرتان منهما اللقاء في آذار / 1938، الذي منه انبثق لاحقاً في تموز / 1939 منظمة المقاومة " المركزية السياسية " واسمها باللغة التشيكية (Polticke ustrdi) ومختصرها كما أعلاه(PU) . ورافقت ذات الظروف في تشرين الثاني / 1938 مبادرة آموست هايدريش من مجموعة المقاومة بارسيفال (Parsifal).

ومن وجهة نظر أخرى، لابد هنا أن نذكر الحزب الشيوعي: كان في 9 / تشرين الأول / 1938 قد علّق أعمال وأنشطة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي في سلوفاكيا.، وفي 20 / تشرين الأول / 1938 في بوهيميا وموارفيا، وفي 27 / كانون الأول / 1938 تم حل الحزب وعمله. وفي غضون ذلك توجهت قيادات الحزب إلى موسكو(وأيضاً إلى لندن)، ودخل الحزب في تشيكوسلوفاكيا مرحلة النضال السري (غير الشرعي).

ولم تكن هناك مقاومة قوية، إلا بعد أن قام الجيش الألماني بغزو البلاد. ومباشرة بعد الاحتلال، نهضت منظمات المقاومة، (Obrana naroda) الدفاع عن الشعب، التي سرعان ما أصبحت أكبر المنظمات، وكانت المنظمة تتألف من ضباط الجيش ووزارة الدفاع والجيش وضباط الأركان العامة، والاستخبارات

العسكرية التشيكوسلوفاكية، هذه الإدارات التي تولت سلطة الاحتلال حلها، ومثلت في حينها كجيش سري، ومنظم عسكرياً، ذات هيكلية عسكرية، لها أهدافها، وفي هذه المنظمة كانت تعمل ضمنها منظمة (الملوك الثلاثة) التي كانت قد تشكلت في مطلع عام 1940، واتفقت مع منظمات أخرى وشكلوا منظمة سقفية (جبهة قوى مقاومة) وأطلقوا عليها " القيادة العامة للمقاومة في الوطن" ومختصرها (UVOD)، التي وحّدت مختلف منظمات المقاومة وتولت التنسيق بينها.

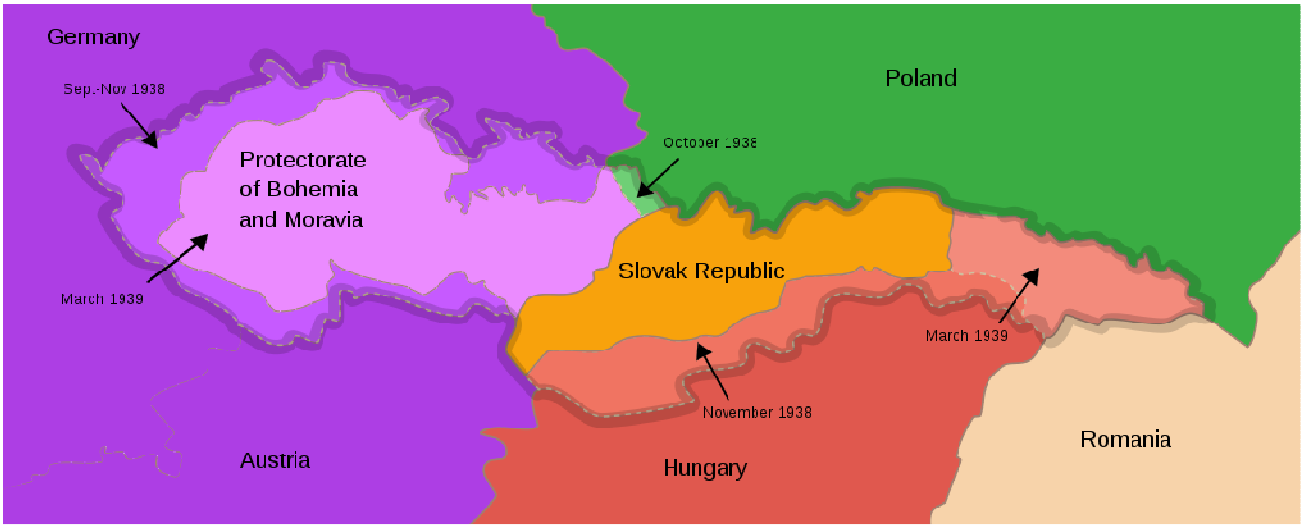

(خارطة توضيحية البنفسجي ألمانيا والفاتح هي أرض السوديت والبنفسجي الأفتح هي المحمية بوهيميا وموارفيا والأصفر هي سلوفاكيا، اقتطعت منها هنغاريا، حليفة ألمانيا)

إلى جانب ذلك، تأسيس منظمات أخرى، كمنظمة (مجلس الثلاثة – Rat tri) ومنظمة لواء الاستخبارات، ومنظمة مجلس قيادة ثورة الصقور، ومنظمة الحركة الوطنية الشبيبة العاملة، ومنظمات أخرى كان لها توجه مناطقي. وفي أيلول / 1941 بعد أن تعرضت بعض المنظمات للضعف إثر حملات الاعتقال من سلطة الاحتلال، كان يجب تشكيل منظمة سقفية جامعة بدلاً عن منظمة (UVOD) تجمع كافة المنظمات، فتأسست "اللجنة المؤقتة للثورة الوطنية" . والمساعي تحقيق قد نجحت جزئياً، بسبب ما كان يحدث في براغ بعد أن استلم السلطة القائد الألماني المطلق الصلاحية راينهارد هايدريش، وإعلانه الأحكام العرفية.(8)

وبعد أن شنت ألمانيا الهتلرية الهجوم على الاتحاد السوفيتي في حزيران / 1941، انضم الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي إلى المقاومة، ودخل الحزب مرحلة النضال السري، وبدأ يصدر جريدته الجديدة سراً, ومنذ 1943 تم تأسيس منظمة مقاومة جديدة التي كانت من حيث برامجها قريب لتصورات الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، لا سيما مجموعة (الطليعة). وفي مطلع 1945 وبعد مفاوضات عديدة، اتحدت بعض منظمات المقاومة، تم تشكيل المجلس الوطني التشيكي بالتعاون مع مجلس نقابات العمال، الذي خطط لانتفاضة وطنية واشتركت في انتفاضة براغ.

وتضمنت أنشطة وفعاليات منظمات المقاومة الكثير من المجالات منها: جمع المعلومات للحكومة في المهجر، التخريب، تنظيم الإضرابات، إصدار وتوزيع للصحف والمجلات السرية تشغيل قنوات الاتصالات و التراسل مع الخارج (سواء مع البلدان الغربية، أو لاحقاً مع الاتحاد السوفيتي، وكان يوجد من بين وسائط عديدة أخرى، جهاز الإرسال سبارطة 1 وسبارطة 2، وليبوشا) استقبال ودعم ما يرسل من الخارج بواسطة الجو، من الغرب أو من الاتحاد السوفيتي، دعم وحماية الملاحقين وعائلاتهم،

الاتصال مع المقاومين، ومع المنظمات التي تجتاز الحدود، والأعمال ذات الطابع النظري حول الاقتصاد وبحث اتجاهات العمل السياسي المستقبلي، في تشيكوسلوفاكيا الحرة المقبلة.

وفي الفترة من آذار / 1939، وحتى أيلول / 1941 فقط، كان هناك 66 صحيفة ومجلة تصدر، ومنها مثلاً: صحيفة الحزب الشيوعي رودي برافو (Rude Pravo) وكراسات دورية (Detektivromane) وهي روايات ولكنها ذات مضمون مناهض للاحتلال.

وبالمقارنة مع مجموعات مقاومة معينة، بقيت المنظمات القديمة وإن كانت قد تضررت بالاعتقالات، ولكنها تمكنت من مواصلة عملها النظري والعملي. في الفترة 1939 حتى 1941 أشغلت منظمة (PVVZ) على إعداد وثيقة برنامج على أساس وثائق اليسار الديمقراطي الاشتراكي لعام 1933، ولم تكن تتناول المقاومة ولكنها كانت تتطلع في نفس الوقت نحو مجتمع مستقبل السياسي والاجتماعي بعد نهاية الحرب.

هذا البرنامج نوقش أيضاً على صفحات الصحافة السرية. وقارنها المؤرخ المعاصر فاسلاف فرابس (Vaclav Vrabec) بإيجابية مع الزمن اللاحق مع البرنامج الذي أقر بتأثير الحزب الشيوعي والمسمى كاشاور (Kaschauer) وفي هذا الإطارلعبت المناقشات حول الألمان دوراً مهماً في دورهم في الاحتلال والقمع، وعمليات الإبعاد، حول المشاعر المعادية للألمان بين السكان، لا سيما بعد العمليات القمعية التي كانت تقوم بها وحدات (SS) الألمانية (المجزرة في ليديسيا، وليزاكي) التي عكست للمواطنين حقيقة نظام المحمية في بوهيميا ومورافيا (في وثيقة حملت عنوان " الجريمة والعقاب) . (9)

كانت منظمات المقاومة في المحمية، تحتفظ بعلاقات وثيقة مع الحكومة التشيكوسلوفاكية في لندن. وبعد أن اعترفت بها الحكومة البريطاني في 21/ تموز / 1940، قامت الحكومة بعدها بوقت قصير بتعيين وزير دفاع وعينت الجنرال (قائد فرقة) سيرغي إنغر. وعينت رئيساً لما سمي بالقسم الثاني، وكان ذلك يعني مديرية الاستخبارات العسكرية، العقيد، (فيما بعد العميد) فرانتيش مورافيتس رئيساً لها. وأصبح هذا القسم يقوم بالاتصالات مع كافة منظمات المقاومة، وإيصال المعلومات، من المحمية إلى لندن وأوضاع البلاد والنظام، ومعنويات المواطنين، وعمليات التخريب، والأنشطة المماثلة. والأهم من كل هذا، المعلومات عن تحرك القطعات وصناعات السلاح. وهذه المعلومات كانت تذهب إما بواسطة اللاسلكي، أو أشخاص يحملون البريد إلى العقيد مورافيتش، مدير مكتب الاستخبارات العسكرية، وهكذا تصل عملياً لید رئيس الحكومة بينش، الذي كان بدوره يوصل المعلومات الهامة إلى الحلفاء، مع الامتنان لها.

(الصورة : الجنرال الويس إلياس)

كان هناك وقت لم تكن فيه علاقات متبادلة مع حكومة المحمية (تعمل برعاية الألمان)، وفي 27 / نيسان/ 1939 عندما عين الجنرال ألويس إلياس، بدأ بتنشيط اتصالاته مع منظمات المقاومة، لا بل كانت له وظيفة هيكلية القيادة في (Obrada naroda) ومن خلالها كان يتصل بمنظمات المقاومة، لا بل وحتى مع حكومة لندن حول الوضع في حكومة المحمية ومشكلاتها مع الألمان. وبعد فترة قصيرة من وصول وكيل الإمبراطورية الألمانية الجديد في المحمية الجنرال رينهارد هايدريش تم اعتقاله ومن ثم إعدامه.

وطوال الزمن، كانت المقاومة التشيكية ملاحقة ومطاردة من قبل سلطات حكومة المحمية (في غالبيتهم من الضباط الألمان)، ولا سيما الغستابو / البوليس السري الألماني (Gestapo). وقد حدثت عدة موجات من الاعتقالات ابتدأت بما أطلق عليها عملية الشبكة، وعملية البرشت الأول، وسيما تلك الاعتقالات التي حدث في ليلة تغير السنة 1940/1939 ولا سيما ضد أعضاء منظمة (PVVZ)، ومنظمة (ON) ومنظمة (PU) وفي ربيع عام 1942 أصابت موجة اعتقالات منظمة (ON) وغيرها، وفي عام 1944 منظمة (PU) وغيرها. وأشد حملات الاعتقالات وأقواها كانت فيما أطلق عليها "عملية أنتروبيد" التي جرت في أعقاب اغتيال حاكم المحمية الجنرال رينهارد هاينريش(Reihard Heydrich) نهاية أيار / 1942 وتواصلت الاعتقالات والتصفيات حتى خريف العام نفسه.

وكان معظم الذين أدينوا من المنتسبين من أعضاء حركات المقاومة التشيكوسلوفاكية حكموا بالإعدام في سجن بلوتسن زي (Plötzensee) في برلين، الذين أدين معظمهم أمام محاكم ألمانية، وكان مجموعهم 677 وبذلك كانوا أكبر ثاني مجموعة من جنسية واحدة حكم عليهم بالإعدام.

رابعاً : حركة المقاومة (المقاتلين) .

كما كانت حركة المقاومة المدنية، منقسمة على ذاتها أساساً في توجه شيوعي (بمؤشر أنها كانت تقاد من موسكو)، وحركات أخرى غير شيوعية، وهي حركات كانت ترتبط مع لندن. ولكن الصعوبات في التعاون والعمل المشترك كانت أيضاً بسبب الظروف الجغرافية، وكانت سلوفاكيا، وأيضاً المحميتان بوهيميا ومورافيا كانت أراضٍ مستوية، والمساحات صغيرة وكثيفة بالسكان كانت سرعات ما تصطدم بها حركة المقاومة المسلحة.

والاستثناء كان في بعض المناطق الجبلية في سلوفاكيا، (مرتفعات تاترا العليا والسفلى). في مناطق المحمية كانت هناك بعض المناطق في مورافيا، التي اتخذت فيها بعض منظمات المقاومة مقراتها في النصف الثاني من عام 1942. ولكن في عام 1944 كانت المقاومة المسلحة قد توصلت إلى بناء وحدات مقاتلة قوية.

وعدا المواطنين من أبناء البلاد، الذين كانوا مضطرين للاختفاء، كان هناك جنود سوفيت هاربين من أسر الألمان، كما كان هناك مظليين مقاتلين، الذين أرسلوا من لندن أو موسكو إلى هناك. المعطيات حول الأعداد الإجمالية للمقاومين المقاتلين ليست دقيقة، ربما بلغت في شهر نيسان / 1945 حوالي 14,000 الف مقاتل، منهم عدد كبير من السجناء الذين أطلق سراحهم،، والنازحين الروس، وأوكرانيين، وروس بيض (بيلوروسيين).

خامساً : انتفاضة براغ

في بداية عام 1945حدثت في بوهيميا وموراڤيا (جيكيا) انتفاضات ضد سلطة الاحتلال الألمانية. كان مركزها والأكثر معروفة في العاصمة براغ، وحدثت الكثير من الاشتباكات والمواجهات، في العديد من الأماكن. الانتفاضة ابتدأت بتاريخ 1 / أيار / 1945، في مدينة بريروف (Prerov)، ولكنها امتدت إلى37 مدينة و240 بلدة، وبراغ أيضاً، وابتداء من 5 / أيار / 1945، ساهم في هذه الانتفاضات حوالي 30,000 مقاوم/ مقاتل في مدينة براغ ونحو 10,000 خارج براغ، من بينهم 14,000 مقاوم / مقاتل، كان قد تم تسليحهم جيداً بواسطة جيش التحرير الروسي، جيش الجنرال السوفيتي المنشق فلاسوف، بقوة تقدر بين عشرة إلى أربعة عشر رجلاً، بعد أن بدل هؤلاء الجانب الذي يعملون له، عقب التغير في الموقف السياسي والعسكري، واندحار النازية ومن معها من المتعاونين أمثال الجنرال فلاسوف، والخسائر ناهزت 2,300 قتيل من المقاومين، و3,700 من المدنيين في براغ، و8,000 شخص من خراج براغ.، وبتحرير براغ يوم 9/ أيار / 1945 انتهت الانتفاضة بلغت الانتفاضة إلى حدود ألمانيا، تواصلت الاشتباكات في بعض المناطق، ولا سيما في المناطق الحدودية مع ألمانيا، ولكن كل شيء انتهى يوم 15 / أيار / 1945. (10) (11)

سادساً : الانتفاضة في سلوفاكيا، فعاليات المعارضة 1939/ 1944

في الدولة المستقلة شكلياً، والتابع واقعياً سلوفاكيا، منذ 1838 وحتى 1945 وكانت تدعى الدولة السلوفاكية، استغرق وقتاً طويلاً حتى ظهرت المقاومة والنضال، ضد انفصال تشيكوسلوفاكيا، إذ أن السكان، كانوا على خلاف الأوضاع في المحمية بوهيميا وموراڤيا يجدون أنفسهم في حال أفضل، ولا سيما الحزب الشيوعي السلوفاكي.

وبعد قيام النظام الاشتراكي في سلوفاكيا تمكنت أول مجاميع المقاومة كمجموعة أورسيني ليترش المؤسسة من السياسيين: جان أورسيني و جوزف ليترش، أو مجموعة فلورا التي تأسست في محيط السياسي فافرو شروبار، وآخرين أسسوا لاحقاً الحزب الديمقراطي.

وكانت حركة المقاومة الأكثر راديكالية في سلوفاكيا هم الشيوعيين. الحزب الشيوعي السلوفاكي، الذي انبثق عن الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي خلال الحرب العالمية الثانية، وربما أكثر حركة سلوفاكية تعرضت للقمع والملاحقة في سلوفاكيا.

وقد تغير موقف الشيوعيين السلوفاكيين حيال استقلال سلوفاكيا عدة مرات، متأثراً بمواقف موسكو وتغير موقفها السياسي. وبناء على ذلك فقد أيد الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي اعتراف الاتحاد السوفيتي بسلوفاكيا في أيلول / 1939 تقسيم تشيكوسلوفاكيا. بعد ذلك اتخذ الشيوعيون السلوفاك موقفاً معادياً للرئيس بينش، (Bends) بل وطالبوا بـ" سلوفاكيا السوفيتية "، وعندما اعترف الاتحاد السوفيتي بالحكومة التشيكوسلوفاكية في المنفى (لندن)، قام الشيوعيون السلوفاك بتصحيح موقفهم حول وحدة تشيكوسلوفاكيا.

ومثّل المزارعون القوة التي تلي قوة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي كقوة معارضة. وكان معظمهم من اللوثرين (بروتستانت) السلوفاك، الذين كانوا يشعرون بالتميز من نظام لوداكين، وكان المزارعون السلوفاك يحافظون على صلاتهم مع ميلان هودزا في باريس وفي عام 1940 هرب جان ليشنر، أحد الأعضاء القياديين في حركة المزارعين، إلى الغرب، وانضم لحركة بينش ومنظمة المهاجرين في لندن. وكانت علاقة منظمة المزارعين بحركة بينش في لندن تشوبها المشاكل، وكانوا يعتقدون أن تمسك حكومة المنفى بالسلطة أمر غير مقبول.

عام 1941 وعام 1942 لم يشهد إلا القليل من فعاليات المقاومة في سلوفاكيا. ولكن الوضع تغير مع مساهمة السلوفاكيين في الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وضد الحلفاء الغربيين. والعلاقات من ألمانيا النازية بصفة عامة، وخاصة في الحرب ضد الاتحاد السوفيتي بنظر الكثير من السلوفاك سياسة غير شعبية، لأنهم كانوا يعتبرون الروس والأوكرانيين كمواطنين بلدهم.

بعد الهزيمة الألمانية في ستالينغراد، كان هناك تحولات كبيرة في للوحدات السلوفاكية، التي قررت إما ينضموا للجيش التشيكوسلوفاكي في الاتحاد السوفيتي، أو مع منظمات المقاومة الروسية أو الأوكرانية. في كانون الأول / 1943 اتفقت الكتلة البرجوازية (الفلاحين بدرجة أساسية) والشيوعيون في إطار ما أطلق عليه (اتفاقية عيد الميلاد) على إنشاء منظمة مقاومة باسم المجلس الوطني السلوفاكي. التي تولى قيادتها ثلاثة شيوعيين: غوستاف هوساك (لاحقاً رئيس دولة) و لايسلاف نوفوميسك، وكارول شميدكي، وثلاثة من الكتلة البرجوازية وهم جان أورسني، وجوزف ليترش، وماتي جوسكو.

وحتى بعد إعادة التوجه لدى الشيوعيين، بعد هجوم وغزو الجيش الألماني للاتحاد السوفيتي في حزيران / 1941(مر ذكر ذلك)، استغرقت فترة طويلة حتى اتحد كلا المعسكرين، البرجوازيين، والشيوعيين بحسب الوجهات السوفيتية، اتحدا ضد نظام تيسو الموالي للألمان(Tiso) وباشرا العمل المشترك. وعند دورة العام 1041 ـ 1942 أخفقت محاولة تشكيل مجلس وطني مركزي للثورة (Uatredni narodne revolicni vybor). وليس قبل كانون الأول / 1943 تمكن ممثلين عن كلا الفريقين من التفاهم، والاتفاق على وثيقة " اتفاقية عيد الميلاد " التي مثلت الأساس لتأسيس المجلس الوطني التشيكوسلوفاكي.

سابعاً : المجلس الوطني التشيكوسلوفاكي

في سلوفاكيا كانت الاستعدادت تمضي قدماً من أجل التحضير لانتفاضة مسلحة على خطين اثنين: الخط الأول كان خط وزير الدفاع التشيكوسلوفاكي، فرديناند تشاتلوش والذي منذ عام 1944 عمل على بناء جيش سلوفاكي شرقي، واغتنم الجيش الأحمر (السوفيتي) الفرصة في الوقت المناسب ليفتح له المجال والطريق والإمكانيات للتحرك، وكان تشارتلوس يحيط رئيس الدولة جوزف تيسو علماً بخططه المقبلة.

والخط الثاني: مثّله الاستعدادات التي كان رئيس هيئة الأركان للقوات البرية جان جوليان يحضر لها. وحسب ما كان كلا الخطين يعملان له، بالتنسيق مع الجيش السوفيتي، وبعد اتخاذ العديد من الإجراءات في إطار التنسيق. ولكن موسكو لم تتفاعل مع الخطط والعروض، ورأت في فعاليات المقاومة المسلحة، استفزازاً للألمان لإفشالها.

الانتفاضة التي ابتدأت يوم 29/ آب / 1944، كانت من المنتسبين للجيش، دون أدنى مساهمة من الشيوعيين، وقدرت في المرحة الأولى لها، حجم المساحة 22.000 كم مربع، يسكنها حوالي 1,7 مليون نسمة،، ولكنها بدأت تتقلص بسرعة بسبب الضغط من الخصم، حتى بلغت في مطلع تشرين الأول / 1944 إلى حوالي 7,000 كم مربع، وحجم سكانها 300,000 نسمة. الوحدات المسلحة للانتفاضة كانوا حوالي 60.000 رجل، بما فيهم الجيش السلوفاكي، ونحو 18,000 بولوني، وعناصر مقاومة متفرقة فردياً، لا تنظيم لهم.

ثامناً : الانتفاضة في السوديت

المقاومة في الجنوب الألماني، الذي جرى ضمه إلى الدولة الألمانية في تشرين الثاني / 1939 كان فيها العديد من منتسبي الحزب النازي، ولكن كان في المنطقة العديد من الشيوعيين ومن نقابات العمال السرية، مثل فالترو، وميرفالد، وقدموا الكثير من التضحيات. وإجمالاً كان هناك 185 حركة مقاومة معروفة في منطقة السوديت، وخسائرهم تجاوزت 1000 ممن أعدموا. وفي قوائم المختصين بهذا الموضوع.

هذا الفصل من تاريخ منطقة السوديت الألمانية، غائب عن الحقائق، وغير معروف، ولم يجري البحث فيه إلا قليلاً.وكما يؤكد الباحث والكاتب من منطقة السوديت ليبولد غرونفالد, أكدها المؤرخون في ألمانيا الديمقراطية، على الرغم من أن حكومة ألمانيا الديمقراطية، استفادت من الآلاف من مواطني السوديت الذين طُردوا من مناطقهم (بعد الحرب) قللت من أهمية المقاومة في السوديت، وبالتالي عن العقاب الجماعي الذي تعرض له سكان المنطقة. وبكتابة عن هذا الموضوع أُلّفت عام 2007 بحثاً من قبل الأكاديمية الحكومية التشيكية للعلوم في براغ بطلب من الحكومة التشيكية شكلت لجنة بحث " الأبطال المنسيون ". (12)

تاسعاً : عمليات من الجوّ

كان الإنزال الأول لهذه المجموعات الخاصة التي قذفت من الجو فوق أراضي المحمية، كان قد خُطّط ونُظّم من حكومة المنفى في لندن، أطلق عليها اسم " عملية بينيامين " في مساء يوم 16 /17 نيسان / 1941.

بعد وصول المبعوث الجديد من برلين حاكماً للمحمية (بوهيميا وموارفيا) رينهارد هايدرش (Reinhard Heidrich) إلى براغ في 27 / أيلول / 1941، اشتدت عمليات مطاردة وقع حركة المقاومة الجيكوسلوفاكية، ونتيجة لهذه الملاحقة المتواصلة تعرضت هيكلية المقاومة إلى الضعف. وإضافة لذلك، فقد تعرضت المجموعة الأعم في حركات المقاومة (اوبرانا نارودا) للضعف لدرجة التفكك. وفي ظل هذه الظروف قررت الحكومة التشيكوسلوفاكية في المنفى (لندن) تكثيف عمليات إرسال وإنزال القوات الخاصة إلى المحمية بهدف تعزيز العمل والقيام بعمليات تخريب كعملية ولفرام، التي كانت ذروتها عملية أنتثروبايد من شهر كانون الأول وما بعدها عمليها اغتيال الجنرال الألماني هايدريش في 27 / أيار / 1942 المثيرة للجدل التي ما تزال تناقش حتى يومنا هذا.

والمجموعة التي جاءت من بريطانيا وقذفت من الجو فوق أراض المحمية كانت تضم 33 شخصاً، ومعهم نحو 91 شخص (القليل منهم في سلوفاكيا) كانت العملية قد خططت لها وزارة الداخلية في لندن، وتم تنفيذها بالتعاون مع القوات الخاصة (Speicial Operations Executive) التي كانت زمن تنفيذ العملية، تمثل السرب الخاص رقم 138 في القوة الجوية الملكية البريطانية (RAF) (No 138 duties Sqauardon) استخدمت في هذه العملية. والقوة الخاصة في هذا الاستخدام هي وحدة تشيكوسلوفاكية (الوحدة التشيكية Czech Section MY) بالتنسيق مع حكومة المنفى في لندن.

وفي مرحلة الإعداد والتدريب لمجموعة الأشخاص الذين سينفذون العملية، ابتدأت منذ صيف عام 1941 بما أطلق عليها " المجموعة الخاصة D " شارك فيها من كان قد وضع نفسه تحت تصرف وزارة الدفاع التشيكوسلوفاكية في حكومة المنفى في لندن.

وكانت العمليات التي يخطط لها من الاتحاد السوفيتي وتنفذ في المحمية كانت غالباً تتم بغير استعداد بشكل كاف. وكانت الدوائر (المراجع) السوفيتية لا تمتلك المعرفة الكافية بالوضع في المحمية، والتكتيكات التي تتبعها القوات الألمانية. لذلك كانت العديد من العمليات تفشل قبل الشروع بها، ويجري عمليات اعتقال،

وبعض هؤلاء الذين يرسلون، كانوا يرسلون عبر الأراضي البولونية، ويقبض عليهم قبل دخولهم أراضي المحمية.

وكمؤشر على عدم كفاية الأجهزة الاستخبارية واستعداداته يمكن اعتبار عملية كاملر التي جرت في تشرين الأول / 1942 مثالاً لها. ففي عملية افتراضية (مصطنعة) لقسم متخصص في الأمن الألماني (Gestapo) مختص بحوزته مفاتيح الشيفرة وبوسعهم تدبير أفخاخ لمنظمات المقاومة وإرسال العملاء ومنهم " أميل كاملر" (قضية اشتهرت بهذا الاسم) الذي بعد هبوطه بالمظلة ألقي القبض عليه (لأنه كان متابعاً)، وتوفي لاحقاً في إحدى معتقلات النازية (معتقل ماتهاوزن).

بعض التحركات التي انطلقت من الاتحاد السوفيتي ونفذت في أراضي المحمية (بوهيميا / مورافيا)، الحقت الأضرار وقادت لخلاف بين حكومة المنفى في لندن، والاتحاد السوفيت، التي كانت تعتبر حليفاً. والعمليات الأولى التي حدثت في صيف عام 1941، لا سيما تلك التي حدثت في منطقة آروش، التي جرت في ست رحلات جوية والتي نظمتها الاستخبارات العسكرية السوفيتية (GRU)، وعملية نظمتها وقادتها البعثة التشيكوسلوفاكية في موسكو، وكذلك العملية التي أطلق عليها (NKWD) ، التي كانت تهدف ليس فقط إلى القيام بعمليات تخريب، وبعضها فشلت.

الحكومة التشيكوسلوفاكية في المنفى أدركت ذلك (الاختراقات الأمنية)، من قبل منظمات المقاومة، وغيرت أسلوب عملها تماماً، إذ أدركت أن جهاز استخباراتها العامل على أرض المحمية مخترق من قبل جهاز استخبارات آخر. ووزارة الداخلية السوفيتية ووزيرها بيريا لم يلتزموا بتعهداتهم بعدم تكرار ذلك.

وكانت النقطة الرئيسية في العمليات، في سلوفاكيا، في تقوية حركات المقاومة. بعض العمليات كانت ناجحة جداً، ومنظمات المقاومة الحاسمة منها كانوا يحملون اسم العملية، كجماعة المقاومة يانوشيك، أو زيزاك، ولاحقاً ستحدث عمليات لها صلاتها بالانتفاضة الوطنية السلوفاكية.

(النصب التذكاري لضحايا عملية تصفية الجنرال الألماني هايدريش)

عاشراً : أيقونة المقاومة ، يوليوس فوجيك

يوليوس فوجيك / Julius Fucik (1903 -1943)
صورة الغلاف للكتاب باللغة الألمانية

" لقد عشنا من أجل الفرح، ومن أجل الفرح مضينا إلى دروب النضال، ومن أجلها سوف نموت، لذلك سوف لن يكون الحزن مرتبطاً بأسمائنا قط ""

هذه كلمات ليوليوس فوجيك، الذي ولد في: 23/ شباط / 1903 في براغ، عاصمة تشيكوسلوفكيا، أحب المسرح والأدب، وكتب للصحف، وناضل في صفوف الحزب الشيوعي في بلاده / مثقف سياسي وناقد فني، ساهم بريبورتاجاته التي كتبها، مساهمة فعالة في تطوير الواقعية الاشتراكية في أعماله: عالم في نهاره ابتدأ التاريخ (صدر عام 1932) وأعماله الكاملة في 12 مجلد منها: النقد الأدبي، ودراسات أخرى، صدرت عام 1952.

في نيسان / أبريل / 1942، اعتقل من قبل الجستابو(البوليس السري الألماني)، وقد عذبه الفاشيون في (بانكراك) سجن براغ، ولكنه ظل صامداً، وتحت حراسة مشددة من جلاديه، نجح في كتابة تقارير من تحت المقصلة.

في يوم 8 / 9 / 1943 قتل يوليوس فوجيك في سجن بلوتسن بواسطة المقصلة، ولكن سرعان ما بلغتنا كلماته الوداعية:

أيها البشر، لقد أحببتكم، كونوا يقظين ...

****

ـ يستحق مصطلح: كن عاقلاً، الملاحظة، فهو يساوي عبارة: كن خائناً ..إنني لست عاقلاً

ـ يتساءلون ماذا يحصل إن تحدثت ..! كلا .. كلا .. لا تخافوا شيئاً، إنني سوف لن أتكلم، ثقوا بي ..

ـ النهاية حتماً ليست بعيدة، والأمر كله لا يعدو كونه حلماً، إنه حلم من أحلام الحمى المزعجة، الضربات تتوالى، ثم رشّوني بالماء .. استفاقة، ثم عودة إلى الضرب، ثم مرة أخرى وأخرى ... تكلم .. تكلم ... وأنا ما زلت لا أستطيع الموت، أمي، أبي، لما جعلتموني بهذه القوة ..؟

ـ " نعم لدي بالتأكيد قلب " قلت ذلك، وفجأة أحسست بالفخر، وبأنني ما زالت أمتلك القوة لأدافع عن قلبي.

ـ لقد عشت الحياة، ومن أجل جمال الحياة مارست النضال، لقد أحببتكم، وكنت سعيداً عندما تبادلت الحب معكم، وقد عانيت عندما لم تفهموني، أنتم الذين أسأت إليكم، سامحوني، للذين أسعدتهم، لا تنسوا أبداً: وصيتي لكم أن لا تربطوا بين اسمي والحزن، إنها وصيتي لكم: يا والدي ويا والدتي وشقيقاتي، ولك غوستي، لكم رفاقي، لكم جميعاً الذين أحببتكم، عندما اعتقدتم أن البكاء يغسل تراب الحزن. لقد عشت من أجل الفرح، وإني أموت من أجله أيضاً لا تبكوا .. سيكون ذلك خطأ .. هل تريدون أن تحضر ملائكة الذنوب فوق قبري ...!

ـ إن نضال البشرية وطريقه إلى أهدافه لم ولن يكون له نهاية أبداً، ولكن لا تستغرقوا في النوم أكثر ... لا تناموا أكثر .....

ـ ذلك إننا حتى لو كنا نمضي إلى الموت، ولكننا سنبقى مخلصين.

ـ إنك تغامر به من أجل بناء جسر بين سجناء اليوم والأحرار غداً، إنهم يناضلون .. إنهم يناضلون ويضحّون بلا خوف ولا وجل في ساحتهم التي من أجلها جنّدوا أنفسهم بكل ما يملكون، وبكافة الوسائل التي بحوزتهم، إنهم بسطاء تماماً ويثيرون العجب، وبلا لهجة منبرية، بحيث أنك لا تتبين حتى النضال من أجل الحياة أو الموت، إنهم في جانب الأصدقاء، وإنهم في الجانب الذي يمكن فيه أن يسقطوا فيه أو ينتصروا.

ـ إن منظر الإنسان وضميره عندما لم يعد نقياً، هو مفزع أكثر من رؤية جسد يتألم من العذاب، وإذا كان بالنسبة لك الموت الذي مر من أمامك جعل رؤيتك حادة، وإذا كان ضميرك قد تطهر من خلال النضال، فإنك سوف لن تشعر ببساطة من ذا الذي قد دخل في حالة اضطراب. ومن هو الذي قد اعترف وأفشى الأسرار، أو ربما حتى قد فكّر في ذلك بأحاسيسه، ولربما أن ذلك ليس سيئاً جداً إذا حصل ذلك بعد أن استخدم آخر ما لديه من ـ ـ ـ طاقة نضالية.... أيها الضعيف المنهار، كأن هناك حياة أخرى تعيشها إن استطعت أن تبيع حياة أحد الرفاق ..!

ـ كانت حادثة تعبّر عن قلة حذر وسوء حظ.

ـ الرفيق بارتون فتّش وبحث عن اتصال لخليته مع الأعلى، وصديقه الرفيق جينليك الذي لم يراع أنظمة العمل السري،

ـ لم تكن الأيام الأولى في معتقل بيتشيك بالايس سهلة عليّ، ولكن كانت هذه اللطمة الأكثر قسوة التي تلقيتها هنا، كنت أتوقع وأنتظر الموت، ولكن ليس الخيانة، وإنني إذ أصدر هذا الحكم مخففاً، ذلك لأنني أزن وأستحضر في رأسي وفكري ما لم يقله ميريك، ولم استطع أن أجد كلمات أخرى عدا: خيانة، إنها ليست مجرد تأرجح أو اهتزاز، وليست مجرد ضعف، إنها ليست انهيار من تعذيب حتى الموت، أو اعترافات انتزعت من خلال حمى، ليس هناك ما يعذر موقفه.

ـ كانوا يجلبوني يومياً تقريباً إلى الأربعمائة(سجن اسمه هكذا)، وفي كل يوم أكتشف تفاصيل جديدة، لقد كان أمراً محزناً ومثيراً للاشمئزاز في نفس الوقت، نعم هذا كان رجلاً عندما كان لديه عمود فقري، هو لم يتجنب الرصاص عندما كان يناضل في الجبهة الإسبانية، ولم يخن عندما عاش تجربة الاعتقال في فرنسا، ولكنه يقف الآن ممتقع الوجه أمام أحد رجال الجستابو الذي يمسك بيده هراوة، يحاول أن يتماسك، ولكن كم كانت شجاعته سطحية، بحيث ضربات معدودة فقط أدت به إلى الانهيار، سطحياً مثل قناعته، كان قوياً في الحال الاعتيادي، عندما يكون محاطاً بالتعاطف، كان قوياً لأن قناعاته كانت تحركه، ولكنه الآن معزول عنها، وحيد، يهاجمه الأعداء، ترى هل فقد قواه نهائياً، لقد فقد كل شيء لأنه ابتدأ يفكر بنفسه، وأن ينقذ جلده، لذلك ضحى برفاقه، لقد سقط في الخوف، والجبن قاده إلى الخيانة.

ـ إنه لم يقل لنفسه: أن من الأفضل أن يموت عندما وجدت عنده تلك المواد ..!

ـ مؤكداً دعمت التحقيق، واقنعت التحقيق بأنهم قد توصلوا لكل شيء، لذلك بقيت على قيد الحياة، ومعنا أيضاً بعض عناصر منظمتنا، ولكنه لم يكن ليسلم أي منظمة لو أنه أبدى صموداً في موقفه، كنا سنذوق الموت أنا وهو، ولكن سائر الرفاق كانوا سيبقون على قيد الحياة ولواصلوا العمل في الطريق الذي سقطنا من أجله.

ـ إن الجبان قد يفقد أكثر من حياته، لقد ضاع، فر من جيش المجد، وألحق بنفسه عار الخيانة والقذارة. وحتى من أجل الحياة ...! الخائن لم يعد على قيد الحياة، لأنه وضع نفسه خارج المجموع، لقد حاول فيما بعد أن يفعل شيئاً جيداً، ولكنه لم يفلح أبداً في محو ما فعله في السجن من فضاعات كما لم يحدث أبداً.
ـ سجين ووحيد، هذان تصوران يمضيان سوياً، ولكن ذلك خطأ كبير، فالسجين ليس وحيداً، فالسجن هو مجمع كبير، وحتى أشد الزنزانات عزلة التي لا يمكن أن ينفذ منها أحد، إلا إذا شاء عزل نفسه بنفسه، فالأخوة بين المضطهدين هو شيء سائد كالقانون الذي عقدوه بأنفسهم بصلابة، إنها تزحف عبر الجدران،

ـ الزنزانات لها عيون، إنها تنظر إليك عندما تمضي إلى الإعدام، وأنت تعلم أن عليك أن تمضي رافعاً هامتك لأنك مناضل ولا يجوز أن تمضي بأقدام متثاقلة مترددة، إنها أخوية دموية، ولكنك تدخلها طواعية، وبدون المساعدة الأخوية، فسوف لن يكون بوسعك تحمل هذا المصير.

ـ لدرجة تقارب الموت، ولا تبقى سوى الكلمات التي أدليت في الإفادة: المخلص سيبقى صامداً، والخائن سيخون، الضعفاء سيصابون بالحيرة، والأبطال يناضلون. في داخل الإنسان تستقر غالباً عوامل القوة والضعف، الشجاعة، الخوف، التماسك، الاهتزاز، النقاء، القذارة، وإلى جانب بعضهم البعض، ولكن هنا، لا يمكن إلا لأحدهم البقاء، أو عندما يحاول امرأً، ويا للعجب، أن يرقص بينهما، فإنه سيكون عجيباً، كالذي يريد أن يرقص بريشة صفراء على قبعته، وبيده عصا ملونة في مسيرة جنائزية.

ـ كان هؤلاء يدركون ويشعرون بالجمعية في الأربعمائة، ويحاولون أن يتقربوا منهم .. لماذا ..؟ لأنهم يقدرون بشكل صائب قوانا، ولكنهم لا ينتمون إلينا قط، وهناك فئات أخرى من الذين ليس لديهم فكرة عن هذه الجمعية. وبتقديري أنهم قتلة، قتلة ذوو طبيعة بشرية، يتكلمون التشيكية وبأيديهم الهراوة والحديد

ـ عائلة من الأبطال اغتيلت بأكملها، فحاولوا على الأقل أن تبحثوا عن واحد باق منهم، أحبوه كما تحبون إخوانكم وأخواتكم من آبائكم، كونوا فخورين به كما تفخرون برجل عظيم عاش للمستقبل، كل من عاش بإخلاص للمستقبل وسقط من أجل الأشياء الجميلة ومن أجلكم، هو عملاق قدَّ من الصخر، كل من أراد أن يبني من تراب الماضي سداً ضد طوفان الثورة، إنما هو مخلوق مصنوع من خشب رديء، ولربما تحتشد الرتب على كتفيه اليوم، ولكن حتى هذه المخلوقات الخشبية، علينا أن نتخيلهم، ونستحضرهم في أذهاننا

في تفاهتهم وانحطاط أحاسيسهم، وفي وحشيتهم، في كونهم مهزلة، إن ذلك هو مادة للعرض والعروض المقبلة.

ـ بوسعكم أن تنتزعوا منا الحياة، أليس كذلك جوستي ..؟ ولكن ليس شرفنا وحبنا ...!
ـ الرفاق الذين سيبقون أحياء بعد هذه المعركة، والذين سيأتون إلينا، إنني أشد على أياديهم من أجلي وجوستي، فإننا قد نفذنا الواجب.

ـ إنها مواد دعائية تكمن خلفها ضمائر وضيعة لكي تتمكن من عبور هذه المرحلة بأي وسيلة، وأن تبقى طافية فوق الماء. فهم حيال المتهمين ليسوا بموقف سيء ولا جيد، لا يضحك ولا يقطب جبينه، إنه يعمل ولكن بحماس خفيف.

ـ لقد كانت مجرد خادمة تعمل في البيوت، لم يكن لديها تعليم دراسي، ولم تكن تعلم أنه يوماً ما سيقال:

ـ " أيها المار من هنا ....عندما تذهب إلى أسبرطة، أعلن هناك: أنك رأيتنا راقدين هنا كما يأمرنا به القانون ....."

ـ فهناك رفاق يعملون في العمل السري منذ خمس سنوات ولم يكتشفه الجستابو، إن ذلك ممكن لأننا تعلمنا الكثير، وذلك ممكن لأن العدو قوي ووحشي، ولكنه لا يستطيع أكثر من التهديم.

ـ لم يكن ذلك ضرورياً من أجل أن تهدأ روحه، ولكن الأمر انتهى دائماً هكذا بحزن، ولكن عندما لا يكون بوسع المرء أن يتحدث عنه بغير ذلك، فإن ذلك يكون مزعجاً أيضاً، إذ ما هو الجمال ..؟ وما هي الحياة بالمقارنة مع مجد البطولة ...!!

ـ أن حياة الأفراد غير مهمة بعدما تمت مصادرة بلد بأكمله وحياة شعبه.

ـ " إن هذا سوف لن يفيدكم بشيء، سيسقط الكثيرون منا، ولكنه سوف يقضى عليكم ".

ـ وأي صداقة تشبه تلك الصداقات التي تنعقد أواصرها في الجبهات، في الخطر الطويل الأمد، حيث يمكن أن تكون حياتك اليوم بين يديّ، وفي الغد تكون حياتي بين يديك.

ـ عن الذين يبذلون هذه المساعي الصغيرة وحب الظهور، لكي يلتقي معهم في منطقة حساسة، ترى كم هو صغير ضمير الإنسان عندما ينوء تحت حمل جسده، ويعاني الجسد من هذا الحمل كلما كان ضميره كبيراً .

ـ المجد ينادي الدماء بنشوة، والوحشية تقدم لها الجماجم.

ـ " إنك تشيد تماثيل "، قال الوالد الذهن إلى بعض أوصاف هؤلاء، نعم إنني أريد أن لا ينسى الرفاق نضال المخلصين الصامدين في الخارج كما هنا، وهؤلاء الذين سقطوا صرعى، ولكني أريد أيضاً أن يعرف، أن الذين صمدوا وساعدوا الآخرين ليسوا قلة، وإنهم فعلوا ذلك تحت ظروف صعبة. في غروب ممرات سجن بانكريك، أن يتواجد أشكال ونماذج مثل كولينسكي ومثل هذا الحارس التشيكي فعلوا ذلك علناً، ليس من أجل إحراز مجد، ولكن أن يضربوا الأمثلة للآخرين، إذ أن الالتزام الإنساني لا ينتهي بهذا النضال، وأن المرء إنساناً فإن ذلك يتطلب أيضاً، أن يكون لك قلب بطل، طالما أن البشر ليسوا بشراً.

ـ امض بشجاعة في هذا الدرب، أو دع الخوف يتملكك وتنح عن الطريق، إنك لن تقدر على ذلك في كل الأحوال، والفساد لا يتسلل إلا من خلال الخوف فقط، بوسعك أن تخسر كل شيء، كما هو الأمر في كل عمل غير شرعي (سري).

ـ عندما تخلق الإدارة ظروفاً جديدة، يتطلب الأمر إذن ابتكار أساليب جديدة، وأن يجد هذه الأساليب بسرعة وثقة

ـ أردت أن أرسم لكم صوراً، ولكن للأسف لم يتبق إلا ساعات قليلة، أقل مما يكفي لإنشاد أغنية قصيرة.

ـ السرية حيال الاحتلال، بل أن يتكامل وإخراج الشعب من السرية أيضاً، واستعادة الاتصال مع الذين قطع الارتباط معهم، وأن يلتحموا بالشعب كله، والتعامل مع كل من قرر النضال من أجل الحرية من خلال الهجمات مباشرة، حتى مع أولئك الذين ما زالوا مترددين ولم يحسموا أمرهم بعد.
****
ـ خمسة مجلدات سميكة، بخط يوليوس فوجيك توجد اليوم، والكتاب الذي هو بين أيديكم قد ترجم إلى 89 لغة، والكاتب (فوجيك) قد كرم بعد موته بجائزة السلام العالمي، والرواية التي تحمل عنوان " جيل بيتر " التي كان يعمل بها ولم يستطع إنهاءها كتب فوجيك في كلمة المقدمة لروايته: " أصبح المولودين مثل رسائل القناني التي توصل الأخبار، الأخبار التي أمامكم، لأناس كانوا موجودين، الذين ناضلوا من أجل السعادة، ولما أصبح ذلك ضرورياً ... مضوا إلى الموت ..

فكروا بذلك، إذا كنتم تبحثون عن طريق.

الزا زيهاريا

كتاب فوجيك هي كلمات الثورة، هذه مقتطفات من كتابه الأشهر " مذكرات تحت المشنقة " هذه المقتطفات لا تغني عن قراءة الكتاب الذي ترجم للعربية أكثر من مرة، منها ترجمتي، التي أعتقد أني ترجمتها في حالة وجدانية خاصة. فوجيك هو أحد رموز المقاومة التنشيكوسلوفاكية، فكراً ونضالاً بين الناس، من هنا الأهمية التي دعتني أن ألحق هذه الصفحات بكتابي.
شكراً للجميع
ضرغام الدباغ

هوامش

اتفاقية ميونيخ الرباعية وأطرافها: ألمانيا ومثّلها هتلر ـ بريطانيا ومثّلها رئيس وزرائها تشمبرلين ـ فرنسا ومثّلها رئيس وزرائها ديلاديه ـ إيطاليا ومثّلها موسولويني. عقدت بتاريخ 30 / أيلول / 1938 جرى الاعتراف بألمانيا ومصالحها كقوة عظمى، لها الحق في أراضٍ في تشيكوسلوفاكيا. انظر صورة موقعي الاتفاقية.

السوديت، منطقة في غرب تشيكوسلوفاكيا تقطنها أغلبية ألمانية، وتطالب بها ألمانيا، انظر الخريطة أسفل الهامش.

كانت بريطانيا ولاحقاً الولايات المتحدة ممثلة للجبهة الغربية، والاتحاد السوفيتي ممثلاً للجبهة الشرقية، وانضمت إليه حركات من البلدان المحتلة من ألمانيا النازية.

كانت لندن خلال هذه الأحداث المتلاحقة في أوربا وتساقط الحكومات الشرعية تحت مطارق الجيش الألماني، قد أصبحت مقراً لعدد من الحكومات الشرعية منها أولاً تشيكوسلوفاكيا، ثم بولونيا، ثم فرنسا، وهولندة والنرويج، واليونان، وغيرهم.

استناداً إلى أن الاحتلال عمل غير شرعي، لا يكافأ القائم به، والحكومة التي أسقطها الاحتلال شرعية قانوناً، ووفق قاعدة فقهية عامة " ما بني على الباطل فهو باطل " فالحكومات التي يسعى الاحتلال لتنصيبها (بصرف النظر عن الأسلوب) هي غير شرعية لأنها قامت على أساس باطل.

الكومنترن (Komintren) : القيادة العالمية للحركة الشيوعية الدولية.

يوليوس فوجيك (Julius Fucik) أديب وصحفي تشيكوسلوفاكي، له أعمال كثيرة، كان عضواً في قيادة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، اعتقل وتعرض للتعذيب الشديد، وحكمت عليه محكمة ألمانية بالإعدام، بقطع الرأس بواسطة الفأس، لديه كتاب مشهور (تحت ظلال المشنقة) ترجم أكثر من مرة إلى اللغة العربية، وقد قمت بترجمته بنفسي / المترجم

راينهارد هايدريش جنرال ألماني في قوات (SS)عين حاكماً لمحمية بوهيميا ـ مورافيا، وعاصمتها براغ، اتبع إجراءات قمع وتصفية، اغتالته المقاومة السرية التشيكوسلوفاكية داخل العاصمة خلال تنقله بالسيارة في أيار / 1942 انتقمت له السلطات الألمانية شر انتقام في قمع تواصل طويلاً بعد اغتياله الذي مثّل مرحلة في تاريخ حركة المقاومة الوطنية التشيكوسلوفاكية حزيران / 1942

محمية بوهيميا ومورافيا: هي محمية ألمانية ذات أغلبية تشيكية، ألمانيا احتلت منطقة السوديت وهي ذات غالبية ألمانية، ثم احتلت لاحقاً كل القسم التشيكي، والسلوفاكي، وأطلقت على الأقسام التشيكية دولة تحت الحماية، يحكمها حاكم ألماني ومن ضمنها العاصمة براغ، وهي تابعة للسيادة الألمانية. استمرت الدولة تحت الحماية منذ آذار / 1939 وحتى سقوط ألمانيا أيار عام 1945، حيث قامت دولة تشيكوسلوفاكيا على أرض جمهورية سلوفاكيا، ومحمية بوهيميا ومورافيا.

جدير بالإشارة أن النظام الهتلري بدأت عملية انهياره منذ 28/ نيسان، وفي 30 نيسان، انتحر هتلر، وابتدأت المفاوضات الرسمية للاستسلام، والانتفاضة التشيكوسلوفاكية هي ضد نظام الحماية الذي فرضته ألمانيا على تشيكوسلوفاكيا (Protektorst System)، ضد نظام ساقط كتحصيل حاصل.

مقاوم ـ مقاتل: يستخدم المؤلف هنا كلمة مقاوم لكل من يناهض الاحتلال وسلطاته، سواء بالتظاهر، أو المشاركة في الصحافة السرية، أو الإضرابات، وللمقاتل كلمة (Partisan) وفي اللغة العربية أقرب كلمة لها هي الفدائي، أي المقاوم الذي يحمل السلاح.

الحديث عن إقليم السوديت الألماني، هو موضوع يلاحظ أنه تتجنب الأطراف العديدة البحث فيه لأنه ينطوي على حساسية أرض تم الاستيلاء عليها. ولكننا نرجح، أن هذا الموضوع سيُبحث من جديد، والكلمة الأخيرة فيه لم تقال أو تكتب بعد.

(من اليمين إلى اليسار: شيانو وزير خارجية إيطاليا، موسوليني، هتلر ديلاديه، تشمبرلين)

(الخريطة نصف القوس الأصفر هي أراضي السوديت)

المقاومة اليونانية للاحتلال الألماني
1941 – 1944

ضرغام الدباغ

برلين : 2017

فهرس

مقدمة 03

أولاً : العلاقات الدولية بين الحربين.....05

ثانياً : المقدمات السياسية.....14

ثالثاً : بدء العمليات الحربية في اليونان.....24

رابعاً : بدء العمليات الحربية في جزيرة كريت..... 29

خامساً : مقاومة الشعب اليوناني للاحتلال.....37

مقدمة

في إطار المقاومة نطلّ على القرّاء بكتاب جديد (تأليفاً) هي مساهمة جديدة في نشر ثقافة المقاومة، أدب المقاومة وتاريخها، وكل ما يحيط بها من دراسات وبحوث. وأدب المقاومة معروف في أوربا على نطاق واسع، وتهتم به الجامعات وتخصص له فروع للدراسات العليا، وهو ميدان رحب واسع وعريض، في أوربا معروف بدقة، ويمكنك أن تصل إلى هدفك، إن كنت راغباً في الاستزادة بسهولة ويسر، وسرعة، ساهم الكومبيوتر والإنترنت في المزيد من ذلك، وإذا كان الباحث ملماً بعمل الكومبيوتر، ولا أظنه غير ذلك، إذ يمكن القول بكل ثقة ولا درجة من المبالغة، أن الجاهل بالكومبيوتر هو أمّي... فالكومبيوتر سيسهّل لك العمل بحثاً وعملاً وكتابة، ونتائجاً.

المقاومة هي رد فعل غريزي لكل شعب يتعرض لعدوان خارجي، وبهذا المعنى فالشعوب ليست بحاجة إلى محرض أو مشجع، فهي كالبدن الذي يهب لمقاومة الفايروسات الدخيلة، ودون طلب من صاحبه، بذلك يمكن وصفه تماماً برد الفعل الغريزي المناعي للتدخل الخارجي والعدوان والاحتلال.

المقاومون لا يمتلكون الأسلحة الفتاكة التي يمتلكها المعتدي، وقد لا يمتلكون تلك الأعداد الكبيرة لجيوش المعتدي، وبداهة لا يمتلكون التنظيم الدقيق لجيوش العدوان والاحتلال التي بها تمكنوا من قهر إرادة البلاد واحتلوها.. إذن على ماذا يعوّل المقاوم ...؟

المقاومة تعوّل على الشعب وحده، الشعب هو البحر الذي تسبح به المقاومة، هي تتحدث مع ابن البلاد بلغته، بل بلهجته المحلية، ويمتلك ذات الخصائص البدنية، والمعطيات الثقافية، والاجتماعية. سيحاول الأجنبي المحتل أن يقحم لهجة جديدة وتقاليد وثقافة ليقهر بها الوحدة الوطنية، ليدمر النسيج الذي لا سبيل لخرقه، ولكن هذه محاولات تفتقر إلى الأصالة، وتبدو زائفة واضحة للعيان، والأجنبي سيحاول كل جهده أن يجد من يتعاون معه، وسيوفق في مساعيه بدرجة ما بصعوبة أو بسهولة، فهناك دائماً في أي مجتمع ما يسمى قاع المجتمع، وحثالته، والطامحين عبر التزلف سواء للحكم المحلي الوطني، أو للأجنبي أن ينال ما لم يكن يحلم بالوصول إليه، أو من استطاع الاحتلال التغرير بهم، تحت أي ذريعة، ولكن في جميع الأحوال، الأجنبي يبقى أجنبي، والمتعاون في مرتبة وضيعة، يحاول التخلص والتملص منها.

المقاومة ربما تتلقى الدعم من القوى الشعبية أولاً، ومن مصادر المال والسلاح الوطنية، ولكن المصدر الرئيسي للسلاح هو جيش العدو نفسه، وهو مصدر خارج الضغوط السياسية التي تتعرض لها المقاومة من الداعمين الخارجيين، لذلك فإن جيش العدو بما يتركه من السلاح في أرض المعارك، والعدو قد يكون مصدراً للكثير من المستلزمات، لذلك على المقاومة أن تركّز على العدو بكل جوانب قدراته ومن تلك المالية.

المقاومة تجد نفسها في ظروف ليست متشابهة في كافة البلدان، بل تتفاوت أحياناً تفاوتاً مدهشاً، ولكن القاسم المشترك الأعظم التي يجمعها هي أنها تمثل إرادة الشعب.، وهذا تخويل كبير جداً وشرف لا يدانيه شرف، ينبغي أن تكون المقاومة كياناً وأفراداً مناضلين على قدر هذا الشرف والمسؤولية السياسية والوطنية حياله. وأي نقصان في هذه الإرادة والتخويل، هو خلل خطير، بل والثقة بالمقاومة هو أخطر من العدو وقدراته، ينبغي على المقاومة ككيان سياسي وعسكري وطني الحفاظ على هذه العلاقة القائمة على الثقة المطلقة بالشعب، وثقة الشعب بالمقاومة قيادة وأفراداً وهي المهمة رقم واحد بالنسبة لها.

المقاومة عمل ثقافي وآيديولوجي إلى جانب النشاط العسكري، ورغم أن فهم التناقض بين الاحتلال والمقاومة والتحرير ليست عملية معقدة، بل هي سهلة بدرجة ما، ولكن للمحتلين وأذنابهم أساليبهم في خداع الناس وإرهابهم، والقمع الذي يصل لدرجة عشوائية، وهنا ينبغي للمقاومة أن يكون نشاطها الثقافي

بين الجماهير، وليس بالضرورة أن يكون البرنامج الثقافي معقداً وصعب الهضم، وينبغي أن يكون بعلم المقاومة أن جماهيرهم بالدرجة الأولى هم الكادحين الفقراء الذي لا يملكون سوى وطنهم، وإذا ضاع الوطن سيكونون هباءً منثوراً، فيفقدون حتى شرف الانتماء للوطن، لذلك يستحسن أن تكون البرامج الثقافية بسيطة تخاطب عقول الفلاحين في الأرياف، والكادحين في المدن، إلى جانب مخاطبة الطلاب والمناضلين والمثقفين الثوريين، لا بد من إيصال وعي الجماهير لدرجة إدراك أن التناقض بين الاحتلال والشعب هو تناقض رئيسي وأن هذا التناقض هو حاد بدرجة لا يمكن جمعه في نظام واحد، وفي برنامج سياسي واحد ... كل الخطوط المقبولة والمحتملة تسقط وتنهار مع الاحتلال، وليس هناك احتلال رمادي واحتلال أبيض، الاحتلال أسود في جميع الحالات ومعادٍ للشعب، كل الشعب لأنه يدمر الوطن، كل الوطن بكل ما ينطوي عليه من معطيات مادية ومعنوية.

المقاومة والثورة لا تريد من كل فرد المساهمة بالقتال، فهذه درجة قصوى للعملية النضالية، وذروة نضالية، ولكن المقاومة تبدأ بالامتناع عن مساعدتهم أو التعاون معهم في أبسط الأشياء، أو عن السلام أو تحية أفراد العدو أو الرد على تحيتهم. وهذه بمقدور أي فرد القيام بها. بداية لا تكن مع الاحتلال، اشجب ووجه الإدانة الصريحة للاحتلال، ولمن يتعاون مع العدو، وفكّر كيف تزيحه عن بلادك. (*)

المقاومة والدفاع عن الوطن واجب كل مواطن بصرف النظر عن عمره وجنسه، إنها دعوة للخدمة العامة الإلزامية، والامتناع عنها كالهارب من الجندية في زمن الحرب. وهذا ليست بوصف أدبي، بل هو قانوني يلزم العمل به، ومن هنا أطلق ديغول النداء (قبل عملية التحرير بأيام) لكل الفرنسيين ... إن عدم الالتحاق بالمقاومة والتعاون معها هو هروب من الخدمة العسكرية الإلزامية.

كل سياسي معرّض لأن يخطئ، حتى السياسي المخضرم، والاعتذار بهذه الطريقة أو تلك ربما تخفف من وطأة الخطأ وتبعاته، إلا خطيئة واحدة لا حل معها ولا اعتذار ... طلاق نهائي أبدي مع الوطن لا فتوى ولا رجعة ... هي خطيئة التعاون مع الأجنبي ... وقاكم الله بلاءها ومصيبتها ..

المقاومة هي شرف عظيم ... وسام الأوسمة على صدر المواطن ... ولا عذر البتة لمن يتخلى عن وطنه

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام

(*)
حضرتُ مؤتمراً دولياً في زيورخ / سويسرا، سألني وأنا على المنصة مواطن سويسري (سكان زيورخ يتحدثون الألمانية)، قال لي ولكني أعلم أن هناك مواطنون من بلادكم ساعدوا الأمريكان في تدمير العراق .. قلت له نعم هذا موضوع معقّد يطول شرحه، لو سمحت أن أجيبك فور انتهاء المؤتمر أو الندوة، فوافق، وفعلاً كان ينتظرني أسفل المسرح أو المنصة التي كنا نجلس عليها أربعة أشخاص.

قلت له ببساطة، أكيد ليس لديك الوقت لتسمعني لساعات، إذن : كل بيت فيه مزبلة (علبة نفايات) بلادنا وبلادكم وكل بلدان العالم ... قال صحيح ... قلت له أمريكا جاءت، وأخرجت من في المزبلة ووضعته فوق الطاولة ... أردت إضافة بضعة كلمات ...
السويسري رفع إبهامه الأيمن .. قائلاً ... واضح جداً ... كل شيء الآن واضح لي .. أشكرك.

أولاً : العلاقات الدولية بين الحربين

الحرب العالمية الثانية صراع بشري هائل، ينطوي على معان كثيرة، ومغاز سياسية واستراتيجية تستحق الوقوف عندها طويلاً ودراستها بعمق والمتمعن بأحداثها. الحروب ليست صراع أسلحة في المقام الأول، فالبشر هم من يستخدمون السلاح وفقاً لمصالحهم.

الحروب تدور منذ فجر الخليقة، البشر يتصارعون (12.000 حرب وصراع مسلح)، على مناطق الصيد على مناطق النفوذ، على مصادر المياه، الأرض تضيق بسكانها فيهاجرون، ولأسباب عديدة، بيد أن الاقتصاد هو المحرك الأول لسائر المحركات الأخرى، وجذرها الحيوي الذي يفرز ظواهر وتوجهات، وتصيغ سياسات، تتفق وتختلف، البشر يحاولون التفاهم، ويبتكرون الأساليب الصلح والاحتكام والتحكيم، وقبول المشورة والنصيحة، ووساطة الحكماء وصولاً إلى الدبلوماسية إن بوسائلها البدائية أو المتقدمة الراقية والتي تزداد رقياً عبر العصور، هذه المساعي معروفة عبر التاريخ، ولكن حين تبلغ تناقضات الأطراف حداً ويتحول لتناقض رئيسي، لا يعد معه قبول الوسائل السلمية، تنشب الحروب.

التشكيلات السياسية في أوربا خاضعة للتغيرات، وبداهة التحالفات والائتلافات، والأمم الأوربية متداخلة ما تزال غير واضحة الأبعاد، تشكلت فيها عبر القرون قوى سياسية استطاعت أن تحافظ على مصالحها، وكياناتها، ومن تلك بريطانيا وفرنسا كدول عظمى، وإسبانيا وإيطاليا بالدرجة الثانية، وقبلت هولندة والدنمارك بالدور الثانوي، فيما أخذت سويسرا والسويد سبيل الحياد نهجاً. بقيت ألمانيا التي تشير المؤشرات إلى معطيات الدولة العظمى، من حيث المساحة والسكان، والنمو الاقتصادي، والثراء الثقافي والحضاري، بينما في الواقع العملي لا تلعب إلا دوراً ثانوياً وليس قيادياً ..... لماذا .. وكان الوجود الاستعماري يشمل 67% من مساحة اليابسة في الكرة الأرضية، ما لبث أن اتسع إلى 85% عام 1914.(1)

1. مكدوف، هاري: الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، ص39-44 بيروت 1981

وكانت الثورة الصناعية ومعطياتها في ألمانيا وأيطاليا قد تأخرت، بسبب تأخر الوحدة الوطنية والقومية، وعندما اكتملت هذه الشروط كانت الدول الاستعمارية قد قطعت أشواطاً ليس فقط في عالم الصناعة فحسب، بل في تأسيس الدولة العلمانية الديمقراطية الحديثة، وتستخدم أسلحة حديثة، نجحت في الاستيلاء على مستعمرات في أرجاء شاسعة من العالم في قارات الأمريكيتين وأستراليا، وآسيا وأفريقيا

وبهذا المعنى، فإن الحرب العالمية الأولى كانت نتيجة طبيعية للتنافس الاستعماري الذي خلق تناقضاً تناحرياً بين الدول الصناعية الاستعمارية يفوق قدرة نظام العلاقات الدولية آنذاك على استيعابه وحل معضلاته الأساسية، وفشلت المجهودات الدبلوماسية في التوفيق بين مصالح الأطراف المتنافرة تنافراً شديداً، ذلك أن كل كتلة من الكتل الدولية المتناحرة اعتقدت أن خرقاً خطيراً قد حدث، أو أنه على وشك الحدوث لاستراتيجية أمنها القومي المتمثل بمصالحها السياسية والاقتصادية والعسكرية، محلياً في القارة الأوربية ودولياً في المناطق المختلفة من العالم سواء في مستعمراتها أو في مناطق نفوذها وهيمنتها، أو في مجال السيطرة على البحار والممرات المائية الدولية.

ومفردات العلاقات الدولية نفسها لم تكن إلا انعكاساً لسيادة مبدأ القوة الذي مارسته الدول الأوربية الاستعمارية، ففي قارتي آسيا وأفريقيا لم تكن فيهما إلا دولة مستقلة واحدة وهي اليابان، والقارتين الأمريكيتين لم تكن تضمن إلا عدداً ضئيلاً من الدول المستقلة التي لم يكن استقلالها في واقع الحال سوى استقلال شكلي، حيث كانت ترزح تحت نفوذ وهيمنة الدول الاستعمارية، ولم تكن الدبلوماسية سوى مهنة أرستقراطية تمارسها الدول الكبرى من أجل تقاسم النفوذ والهيمنة.

(الصورة : خريطة الطموح الألماني في المجال الحيوي)

وألمانيا وإيطاليا بلدان كبيران ووفق المعطيات تستحقان أن تكونا من البلدان المهمة، وقد نمت أفكار في هذا الاتجاه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، ففي إيطاليا تأسس الحزب الفاشي(استلم السلطة 1922)، وفي ألمانيا الحزب النازي(استلم السلطة 1933)، وللحزبين أهداف جيو استراتيجية تتعدى الحدود المعترف بها دولياً، فالحرب العالمية الأولى ونتائجها قادت نظرياً وواقعياً إلى الحرب العالمية الثانية.

الحروب الحديثة هي بفعل تناقضات الاقتصاد السياسي للرأسمالية، وصراعات بين أقطاب صناعية / رأسمالية بهدف التوسع وإعادة توزيع العالم. وكانت الثورة الصناعية قد آتت أكلها حتى بات التوسع الاستعماري قاعدة في العلاقات الدولية.

وكانت الثورة الصناعية قد توصلت إلى إنجازات باهرة في مجال المواصلات، وبذلك أمكن اختصار زمن الرحلات البحرية بواسطة السفن ذات المحركات التي تعتمد على قوة البخار، وفي البر باستخدام القطارات. وكان لهذا العامل أثره الفعال سواء بنقل الجيوش أو تصدير المنتجات الصناعية وشحن المواد الخام، وبذلك تضاءلت أهمية بعد المسافات، كما لم تعد البحار والمحيطات تمثل عائقاً أمام إرادة ورغبة الدول التي تمتلك الوسائط والقوى لتحقيق مصالحها، وشدّد ذلك في عملية تطور مفهوم الأمن القومي والصراعات ومدياتها، فبعد أن كانت الدول تبني القلاع وتحيط نفسها بالأسوار حماية لها من احتمالات العدوان الخارجي، أخذت تتطلع إلى خارج حدودها لتأمين متطلبات مصادر أعمالها وإنتاجها فالآلة تستهلك المواد الخام من مصادرها البعيدة بكميات متزايدة وهي تنتج كميات خيالية من الصناعات أكثر بكثير مما تستوعبه أو تحتمله السوق المحلية، وكان لا بد من تأمين مصادر المواد الخام والأسواق كوسيلة لتأمين الدول الصناعية نفسها.(2)

وبرغم أن العامل الاقتصادي لم يكن في أي من المراحل التي مرت بها البشرية ثانوياً، إلا أن الثورة الهائلة في المجالات الفكرية والعلمية وفي مقدمتها منجزات الثورة الصناعية، أدت إلى تطور الحياة

البشرية بما يشكل قفزات واسعة، وأدى كذلك إلى تشعب مصالح الدول الصناعية والاستعمارية، ثم أدى كل ذلك إلى منح الأمن القومي أبعاداً جديدة تتعدى الاهتمامات التي تغلب عليها الاتجاهات العسكرية والتي كانت تسيطر على الفكر الاستراتيجي رغم أنها (الجيوش والعقائد العسكرية) لما تزل إحدى أدوات الأمن القومي الرئيسية، إلا أن التطلعات الخارجية للفعاليات الاقتصادية بدأت تطرح نفسها كعنصر مهم في حياة الشعوب، وخلقت مجموعة واسعة من التفاعلات على مسرح التعامل في الصعيد الدولي.

وفي ظل هذه المعطيات والتطورات، تواصلت النزعة نحو التوسع من أجل الأهداف المرسومة له، بل ودخل عنصر آخر إلى الميدان بحكم انتشار الصناعة في الدول الأوربية رغم أن بريطانيا كانت السبّاقة في هذا المجال، وكانت النزعة نحو التوسع دؤوبة كالضغوط من أجل الحصول على أكبر فائدة ممكنة من الفرص، لكن التوسع نشأ وسط منافسة حادة بين القوى الكبرى التي كانت مهتمة بتوزيع القوة في القارة الأوربية نفسها إلى جانب اهتمامها بملكية مناطق ما وراء البحار.

(الخريطة : ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية يضاف إليها النمسا اللون الأزرق)

وهكذا انتقلت قضايا القوة القومية والثروة والقوة المسلحة أكثر فأكثر إلى مسرح العالم مع انتشار التجارة والمكتسبات الإقليمية لتشمل أجزاء واسعة من الكرة الأرضية، بل أن المستعمرات نفسها كثيراً ما مثلت

الروافد للقوة العسكرية ومصادر للمؤن العسكرية والقوة البشرية العسكرية وقواعد للأساطيل العسكرية والتجارية.(3)

ومن التطورات التي لا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إليها، أن التنافس بين الدول الأوربية في استثمار معطيات الثورة الصناعية قاد بالنتيجة إلى تنافس في التوسع الاستعماري في آسيا وأفريقيا والقارتين الأمريكيتين، بل مثّل محركه الأساس.

وبعد ذلك التاريخ بدأت إسبانيا تفقد مستعمراتها في مناطق نفوذها التقليدية في أميركا اللاتينية لعدم قدرتها على مواكبة التطور الصناعي الذي مثّل العنصر الحاسم في نمو الدول الاستعمارية، ومنذ عام 1925 لم يعد لها مستعمرات في أمريكا الجنوبية، وقبلها بقليل كانت الإمبراطورية العثمانية قد تعرضت لتقلص تدريجي مستمر نتيجة تخلفها التكنولوجي والسياسي والاجتماعي كنتائج متبادلة التأثير، حتى فقدت كافة ممتلكاتها في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وبهذا المعنى، فقد كان التطور التكنيكي يمثّل التحدي الأعظم الذي واجه الدول، والذي أدى إلى الاستعمار والتوسع، وأيضاً إلى ضعف إمبراطوريات ودول استعمارية عجزت عن مواكبة التطور الفعلي، أو عجزت عن كبح جماح قوى استعمارية أقوى منها، وهكذا انطفأ مجد أو تقلص حجم إمبراطوريات استعمارية مثل: الدولة العثمانية، إسبانيا، البرتغال، هولندة، ألمانيا..الخ , وكان الوجود الاستعماري يشمل 67% من مساحة اليابسة في الكرة الأرضية، ما لبث أن اتسع إلى 85% عام 1914.(4)

وتشير الإحصائيات أيضاً، أن بضعة دول قد تحكمت بالعالم بفعل تطورها الاقتصادي والسياسي، وفي مراجعة مصادر تلك المرحلة نستنتج أن مستقبل وأمن الشعوب والأمم المغلوبة لم يكن وارداً في حسابات الاستراتيجية الاستعمارية التي وجهت كافة مساعيها إلى التوسع والحصول على المزيد من المكاسب، في وقت غدا فيه التنافس لكسب الأراضي من مظاهر القوة ومن ضرورات المصالح الحيوية الاستراتيجية للدول الاستعمارية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا، التي توسعت في القارة الأفريقية، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى لم يكن في القارة الأفريقية أية دولة مستقلة.

وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت المؤشرات السياسية تشير، أن الحملة الاستعمارية قد بلغت أوجها، كما كانت الدول الأوربية قد أنجزت تدعيم كياناتها السياسية وقد أفرزت في غضون ذلك خارطة سياسية جديدة في أوربا بفعل الصراعات والحروب، كما ظهرت إلى الوجود دولتان جديدتان كقوى مهمة كنتيجة لتضافر عوامل عديدة أبرزها الوحدة القومية وهما ألمانيا وإيطاليا.(5)

ولما لم يعد هناك ما يمكن التنافس والتزاحم عليه، إذ كان قد تم الاستيلاء على 85% من مساحة اليابسة في الكرة الأرضية، أخذت الدول الاستعمارية تخطط لسلب الامتيازات والممتلكات الاستعمارية بعضها البعض، وتفتش عن الذرائع حتى الواهية منها، وبذلك كان الموقف الدولي عشية الحرب العالمية الأولى قد غدا شديد التوتر.

فالإمبراطورية العثمانية في ظل التنافس الاستعماري المحموم، كانت هدفاً لضم ممتلكاتها ثروات مغرية، إذ كانت الدلائل تشير أن بعضها غنية بالنفط الذي كان قد بدأت أهميته تتعاظم لمصدر للطاقة، بالإضافة إلى موارد خام أخرى ضرورية للصناعة، كما أن المكانة السياسية والاقتصادية والعسكرية التي بدأت ألمانيا تحرزها وتتبوءها، وتتطلع للحصول على المزيد من المستعمرات، وكانت قد حصلت فعلاً على البعض منها في أفريقيا، كانت قد بدأت تثير القلق في أوساط الزعامة الاستعمارية:بريطانيا، فرنسا.

وما لبثت أن تلبدت أجواء السياسة الأوربية بغيوم صراع عنيف من أجل الدفاع عن مصالح اعتبرها كل طرف من الأطراف المتنافسة ضرورية وحيوية لديمومة إمبراطوريته الاستعمارية وحمايتها ودعمها، وبذلك فإن السباب الجوهرية للحرب العالمية الأولى هي استعمارية من أجل إعادة تقسيم العالم ومناطق النفوذ والهيمنة.(6- 7)

وبهذا المعنى، فإن الحرب العالمية الأولى كانت نتيجة طبيعية للتنافس الاستعماري الذي خلق تناقضاً تناحرياً بين الدول الصناعية الاستعمارية يفوق قدرة نظام العلاقات الدولية آنذاك على استيعابه وحل معضلاته الأساسية، وفشلت المجهودات الدبلوماسية في التوفيق بين مصالح الأطراف المتنافرة تنافراً شديداً، ذلك أن كل كتلة من الكتل الدولية المتناحرة اعتقدت أن خرقاً خطيراً قد حدث، أو أنه على وشك الحدوث لاستراتيجية أمنها القومي المتمثل بمصالحها السياسية والاقتصادية والعسكرية، محلياً في القارة الأوربية ودولياً في المناطق المختلفة من العالم سواء في مستعمراتها أو في مناطق نفوذها وهيمنتها، أو في مجال السيطرة على البحار والممرات المائية الدولية.

ومفردات العلاقات الدولية نفسها لم تكن إلا انعكاساً لسيادة مبدأ القوة الذي مارسته الدول الأوربية الاستعمارية، ففي قارتي آسيا وأفريقيا لم تكن فيهما إلا دولة مستقلة واحدة وهي اليابان، والقارتين الأمريكيتين لم تكن تضمان إلا عدداً ضئيلاً من الدول المستقلة التي لم يكن استقلالها في واقع الحال سوى استقلال شكلي، حيث كانت ترزح تحت نفوذ وهيمنة الدول الاستعمارية، ولم تكن الدبلوماسية سوى مهنة أرستقراطية تمارسها الدول الكبرى من أجل تقاسم النفوذ والهيمنة.

وقد اندلعت الحرب العالمية الأولى في ذروة تقدم الصناعة التي لم تقتصر على إنتاج البضائع للتجارة العالمية فحسب، بل وقدمت ما اعتبر في وقته إنجازاً تكنيكياً باهراً، حيث استخدمت الجيوش الطائرات الحربية لأول مرة في قتال واسع النطاق كسلاح ذو قدرة على المناورة بالإضافة إلى السرعة، وأنزلت الغواصات إلى البحر وشكّلت تهديداً فعلياً للسفن الحربية والتجارية على السواء، فيما اعتبرت الدبابة في البر سلاحاً ماضياً يقتحم الخطوط الدفاعية ويدمرها، وبدأت تختفي صور الجنود يقتلون على الأسلاك الشائكة.

أدخلت هذه المعطيات تعديلات جوهرية على العقائد العسكرية الاستراتيجية وعلى مبادئ الأمن القومي بالمؤثرات الرئيسية التالية:

ـ استخدام واسع النطاق لمعطيات الصناعة الحديثة في البر والبحر والجو.
ـ إمكانية إصابة الأهداف براً وبحراً وجواً ومن مسافات بعيدة.
ـ تضاعف حجم التدمير الذي تحدثه الأسلحة والمتفجرات والمقذوفات.
ـ الدور الهام الذي لعبته المستعمرات في تزويد الجيوش بالرجال والمواد الخام، وكذلك دور القواعد العسكرية في تنقلات الجيوش والقوى البحرية والجوية.

وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، ظلت الدروس السياسية والعسكرية والاستراتيجية وقضايا الأمن القومي والمصالح الحيوية موضع دراسة ومناقشة في الأوساط التي تعني بقضايا الفكر الاستراتيجي والسياسة الدولية والتكنيك الحربي ولكن بردود أفعال مختلفة. فكان الإنكليز على سبيل المثال أول من أدخل الدبابات في القتال، ولكن الألمان استفادوا واستوعبوا تكتيكات قتال المدرعات بصورة أفضل، ثم صنعوا دبابات أفضل، واستخدموها ببراعة في الحرب العالمية الثانية. كما أن الجيوش الفرنسية كانت أكثر عدة وعتاداً في الحربين العالميتين الأولى والثانية من الجيش الألماني، ولكن الخبراء والمؤرخين يجمعون على أن الألمان استخدموا قواتهم بصورة أفضل، واعتبروا أن السبب الرئيسي في هزيمة

الفرنسيين أمام الألمان في الحرب الثانية هو في عدم استيعابهم للدروس التكتيكية والاستراتيجية للحرب العالمية الأولى، فاستمروا متشبثين بحرب الخنادق الحصينة.

ولكن الجيوش الألمانية كانت قد استوعبت بدقة خصائص ومزايا الحرب الآلية وطبقوها بدقة ونجاح مستخدمين تكتيكات الحرب الخاطفة التي تعتمد بدرجة رئيسية على:

الكثافة النارية.
التعاون بين الصنوف.
الحركة والمناورة السريعة.

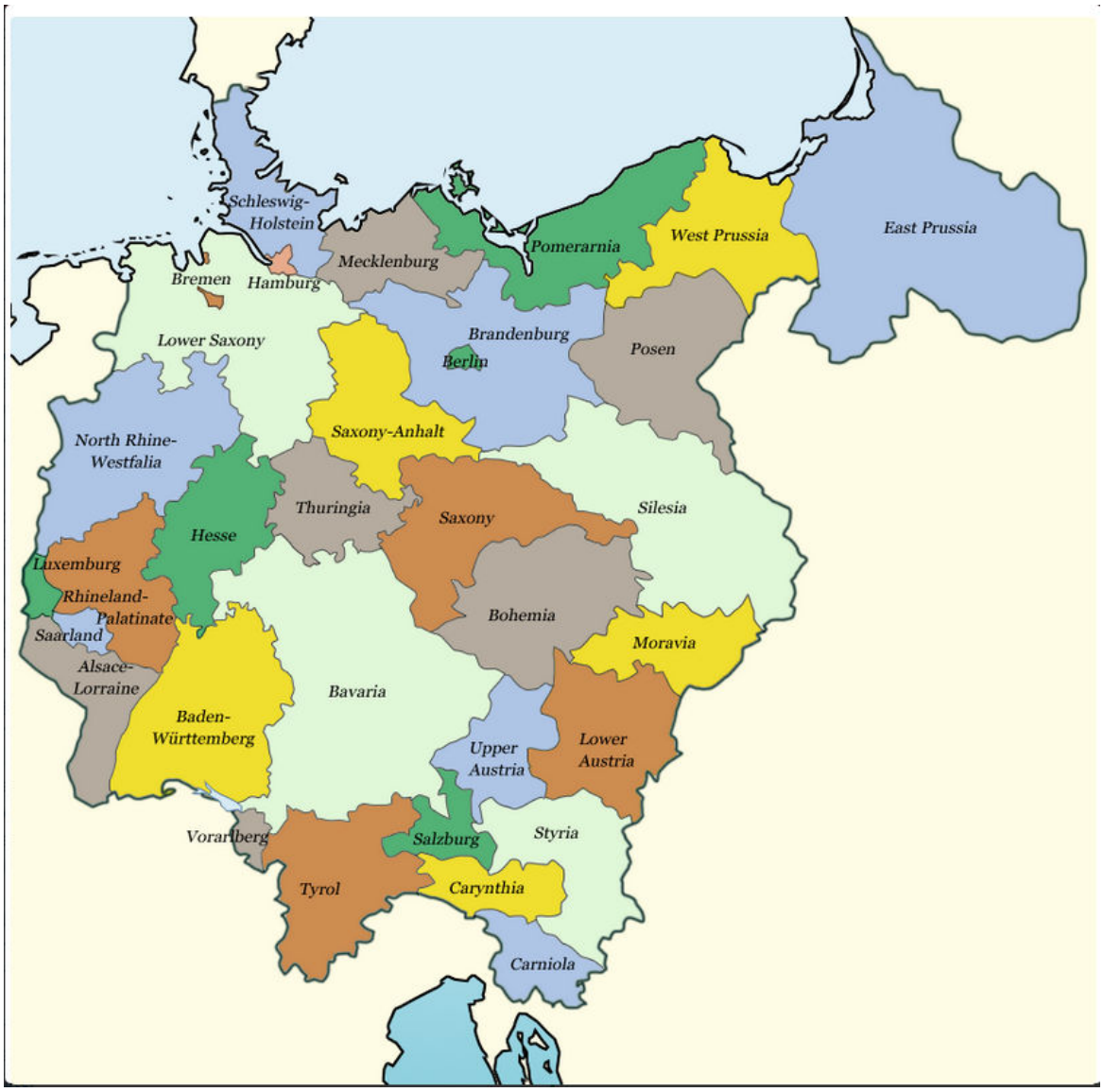

(الخريطة: ألمانيا بعد ضم النمسا وتشيكوسلوفاكيا)

وكانت الصناعة الألمانية الممتازة قد جهّزت القوات المسلحة بأفضل المعدات، وتولى استراتيجيون بارعون وقادة عسكريون ميدانيون دراسة نقاط ضعف خصومهم ووضعوا خططهم الهجومية بموجبها ودرسوا نقاط قوة الفرنسيين (الصمود في الدفاع) فتجنبوا تكرار مأساة حرب الخنادق في فردان والسوم.

وكانت الحرب العالمية الأولى قد أطلقت العنان للأبحاث والمناقشات، وإقحام متزايد لإنجازات الصناعة وبشكل واسع النطاق في الصراع المسلح، وكان ذلك يعني أيضاً، رصد الميزانيات الهائلة لإنتاج المزيد والمحسن من المعدات الحربية على حساب الاستثمارات في الاقتصاد الوطني وتحسين شروط الحياة للمواطنين، وهكذا فإن حزمة هائلة من الأفكار والآراء تمثل الدروس المستفادة في معارك الحرب العالمية الأولى ومدلولاتها على صعيد الأمن القومي والاستراتيجية العليا، كانت قد طرحت على بساط البحث.

وكانت الحرب العالمية الثانية بدورها زاخرة بالمتغيرات الهامة التي أثّرت على الفكر الاستراتيجي بخاصة تلك التي كانت نتيجة مباشرة للتطور الكبير في الصناعة، حيث ألغت الكثير من المفاهيم القديمة وأدخلت تعديلات جوهرية على أخرى، كما أبرزت عناصر لم تكن معروفة قبل ذلك. وبداية يجب أن ندرك أبعاد ونوايا التوسع الألماني الإيطالي اللذان لم يكن تحالفهما صدفة (كانتا قد تقاتلا في الحرب العالمية الأولى في جبهتين مختلفتين)، فالدولتان وجدتا كافة مقومات الدول العظمى متوفرة، وعزمتا على تحقيق مآربهما ونواياهما بالتحايل والدبلوماسية الخادعة، والابتزاز حيناً، وأخيراً بالقوة المسلحة.

إيطاليا تحت الزعامة الفاشية، كانت مأخوذة بالحلم الروماني القديم، أن يكون البحر المتوسط بحيرة إيطالية، وباشرت مد نفوذها السياسي والاقتصادي والثقافي، وأخيراً العسكري حتى أطلقت على بلدان شمال أفريقيا (شمال أفريقيا الإيطالي)، ومصر وحتى أثيوبيا والصومال(القرن الأفريقي)، مع محاولات فاشلة في اليمن.

وكانت إيطاليا ترى أن اليونان برمته ينبغي أن يقتطع ويضم إلى إيطاليا بدءاً من الجزر، وانتهاءً بالمناطق الحدودية المقاربة لألبانيا التي كانت الأطماع الإيطالية قد استوعبتها ولكن بصعوبات، وكذلك دار الأمر في يوغسلافيا واليونان حيث هبّت ألمانيا لنجدة حليفها، من جهة، وتأمين مصالحها الحيوية في شرق أوربا وصولاً إلى سواحل البحر المتوسط من جهتين :

ـ من جهة تريستا الميناء الإيطالي / النمساوي (وفق خارطة ما قبل الحرب العالمية الأولى).
ـ من جهة بحر إيجة والسكك الحديدية توفر الإمكانية لنقل القطعات والسلع في آن واحد, في مسافة ليست بعيدة (2000 ـ 2500 كم).

ورغم تعثر خطوات إيطاليا في الميادين، إلا أنهم حتى بداية الأربعينات كانوا قد حققوا مكاسب مهمة في استراتيجية تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة إيطالية :
الشواطئ الخاضعة للسيطرة الإيطالية
كنتيجة مباشرة للحملات العسكرية لقوات المحور، نجحت إيطاليا في بسط سيطرتها على السواحل التالية المطلة على البحر الأبيض المتوسط في الفترة ما بين عامي 1941 و1943:
فرنسا : ريفييرا ـ منتون بين مونت كارلو والحدود الإيطالية من يونيو لعام 1940 وحتى سبتمبر لعام 1943 ومن دلتا نهر الرون حتى الرفيرا الفرنسية من نوفمبر لعام 1942 وحتى سبتمبر لعام 1943.
كورسيكا :من نوفمبر لعام 1942 وحتى سبتمبر لعام 1943.
يوغسلافيا :غالبية سواحل دالماسيا ومملكة الجبل الأسود من إبريل لعام 1941 وحتى سبتمبر لعام 1943.
ألبانيا : من عام 1939 وحتى سبتمبر لعام 1943.
اليونان : كل السواحل القارية الممتدة بين ابيروس وثيساليا والغالبية العظمى من جزر بحر إيجة علاوة على كريت الشرقية في الفترة ما بين إبريل لعام 1941 وحتى سبتمبر لعام 1943.
دوديكا نيسيا : وهي جزر تحت السيادة الإيطالية منذ عام 1912 وحتى سبتمبر لعام 1943.
تونس: من نوفمبر لعام 1942 وحتى مايو لعام 1943.

ليبيا : يطلق عليها شمال أفريقيا الإيطالي وكانت خاضعة للسيادة الإيطالية منذ عام 1911 وحتى عام 1943.
مصر : الساحل الشمالي الغربي لمصر حتى العلمين في الفترة ما بين يونيو لعام 1940 وحتى نوفمبر لعام 1942.
جبل طارق ومالطا:

جبل طارق : مثلت دور قاعدة بريطانية منذ أوائل القرن الثامن عشر، ولعبت دوراً محورياً في الاستراتيجية العسكرية البريطانية، فبالإضافة لموقعه الفريد مثّل جبل طارق ميناءً حصيناً أعطى الفرصة لسفن قوات الحلفاء للعمل داخل مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، كما كان جبل طارق مركزاً للقوة (H) بقيادة الفريق البحري جيمس سمرفيبل وهي الفرقة التي أوكلت إليها مهمة ضمان التفوق العسكري البحري البريطاني في المتوسط وحماية خطوط المواصلات، قوافل السفن القادمة من أو الذاهبة صوب جزيرة مالطا المحاصرة.
مالطا : من ناحية أخرى، جعل موقع مالطا الجغرافي من الجزيرة هدفاً أساسياً للعمليات العسكرية الإيطالية وذلك بسبب قربها الشديد من السواحل الإيطالية في أوربا، أو مناطق عملها في شمال أفريقيا، ومع بداية الحرب تأكد البريطانيون أن سقوط مالطا في يد قوات المحور أمراً محسوماً، مما دفع البريطانيون لعدم التضحية بأي من مواردها لتأمين الجزيرة ضد هجوم قوات المحور المتوقع في أي وقت على الرغم من الموقع الاستراتيجي للجزيرة ودورها الهام على الطريق الملاحي بين أوربا وشمال أفريقيا، ولم تكن بالجزيرة قوة للدفاع عنها سوى ستة طائرات متقادمة طراز غلوستر غلادياتور مزدوجة الأجنحة بريطانية الصنع، واستمر عدم مبالاة القيادة البريطانية بالجزيرة حتى الضربة الجوية الأولى التي قامت بها قوات المحور، في ذلك الوقت فقط بدا للقوات البريطانية إمكانية الدفاع عن الجزيرة التي تعرضت لقصف شديد من قبل سلاح الجو الملكي الإيطالي (ريغيا أورونو تيكا) كما وقعت الجزيرة تحت حصار بحري شامل، مما دفع السكان لتقنين الاستهلاك حفاظاً على ما بقى من المؤن.
ومع بداية يوليو من العام نفسه، تم دعم طائرات غلوستر غلادياتور المرابضة على الجزيرة باثنتي عشرة طائرة أخرى من طراز هوكر هريكان، وفي تلك الأثناء زادت قوات المحور من إحكام حصارها للجزيرة مدعومة بسلاح الجو الألماني، وزادت خسائر قوات الحلفاء بصورة كبيرة، كانت أبرز هذه الخسائر قد تمثلت في غرق 113 سفينة محملة بالمؤن والعتاد للجزيرة قادمة من بريطانيا في قافلة مكونة من 115 سفينة. ومع مطلع عام 1942، انتهز البريطانيون حالة التراخي التي حلت بقوات المحور المحاصرة للجزيرة وتمكنت من نقل 61 طائرة من طراز سوبر مارين سبتفاير، مما حسن الأوضاع الدفاعية للجزيرة بشكل كبير، وإن استمر النقص الحاد في المؤن والذخيرة.
وزادت قدرة قوات الحلفاء على إيصال المؤن المطلوبة لمالطا تدريجياً على الرغم من تعرض السفن الناقلة لتلك المؤن لإصابات مباشرة خلال الطريق يستحيل معها مغادرتها الجزيرة مرة أخرى، وبنجاح الحلفاء في الدفاع عن الجزيرة والإبقاء على صمودها وعدم سقوطها في يد قوات المحور، أصبح للحلفاء اليد العليا في السيطرة على المتوسط، وأصبحت الجزيرة محطة انطلاق للغواصات البريطانية التي أغرقت العديد من سفن قوات المحور فيما بعد، والتي على أثرها عانى رومل من نقص حاد في إمدادات الوقود خلال حملته في شمال أفريقيا. (8)

هوامش الفصل الأول

1. مكدوف، هاري: الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، ص39-44 بيروت 1981
2. هويدي، أمين: الأمن العربي في مواجهة الأمن الإسرائيلي، ص46
3. مكدوف، هاري: الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، ص30-31، بيروت 1981
4. مكدوف، هاري، نفي المصدر، ص39-44
5. البطريق، عبد الحميد: التيارات السياسية المعاصرة، ص67
6. شنايدر، لويس: العالم في القرن العشرين، ص11 وانظر أيضاً
7. مجموعة مؤلفين: الموسوعة العسكرية، ج1، ص619
8. الموسوعة الألمانية

ثانياً : المقدمات السياسية

(خارطة اليونان : اللون الأزرق اليونان، والمناطق الأخرى أضيفت لها بعد الحروب البلقانية، اللون الأصفر أخذته تركيا وفق معاهدة سيفر ولوزان)

كانت سياسة التوسع الألمانية (Expansionspolitic) تهدف إلى إزالة آثار الحرب العالمية الأولى التي كرستها اتفاقية فرساي (حزيران / 1919) وإعادة تقسيم للعالم ، مثلها مثل كافة الحروب الاستعمارية، وإقامة إمبراطورية في أوربا ترتكز على تحقيق سياسة التوسع شرقاً، تحققت فيها مستلزمات الدولة العظمى :
(مواد خام، أيدي عاملة رخيصة، أسواق تصريف، نقاط استراتيجية للوثوب إلى أهداف توسع جديدة)،

ففي المرحلة التي تلت الحرب العالمية الأولى بنتائجها السياسية المعروفة التي كانت أبرزها: تصفية ممتلكات الإمبراطورية العثمانية التي تقاسمها الحلفاء المنتصرون. إلا أن التسوية مع الإمبراطورية الألمانية كانت مجحفة ليس فقط بسبب تصفية ممتلكاتها الاستعمارية وأحلامها في التوسع والاستيلاء على المزيد منها فحسب، بل بسبب الأطماع الفرنسية في التوسع داخل ألمانيا نفسها لتستولي على قلب المنطقة الصناعية الألمانية (الروهر – Ruher)، حيث مكامن ثرواتها الطبيعية (الفحم الحجري والبني ومحطات توليد الطاقة) الذي يمثل شريان الحياة الاقتصادية الرئيسي في ألمانيا ونعني بها منطقة الروهر.

وقد أدى ذلك بادئ ذي بدء إلى أزمة اقتصادية مريرة في ألمانيا عرفت بفترة التضخم، وبدا أن كل شيء على وشك الانهيار التام لألمانيا ككيان سياسي، وكان النظام الملكي القيصري قد انتهى، ودخلت البلاد في

فوضى سياسية، حتى استقرت نسبياً بعد تأسيس جمهورية فايمار 1920/1919، ولم تكن عملية العبور إلى مرحلة ما بعد الحرب سهلة، إذ كانت مشحونة بالمخاطر على كيان الدولة ومقوماتها الأساسية.

ولم يكن الامتهان الفرنسي للسيادة الألمانية التي احتلتها فرنسا وبسطت سلطة الدولة الفرنسية فيها بحجة إيفاء تعويضات الحرب الطائلة لينتهي عند هذا الحد، بل مثلت معاهدة فرساي وملاحقها ومنها الاستيلاء على الروهر ودفع بألمانيا إلى حافة الهاوية، كما سلبت منها منطقة الألزاس، ومناطق في الشرق (في تشيكوسلوفاكيا وبولونيا) من جملة الأسباب الحقيقية لاندلاع الحرب العالمية الثانية، ومثل قرار استعادة الروهر الذي اتخذته القيادة الألمانية القوة والعزم والتصميم لتصفية آثار مقررات مؤتمر فرساي، ولكنه مثّل بنفس الوقت أولى الخطوات على طريق تدهور الموقف السياسي في أوربا الذي أدى بعد ذلك بوقت ليس طويل إلى الحرب العالمية الثانية.

والسيطرة على البلقان وشرق أوربا كانت فقرة مهمة في هذه الاستراتيجية. أخذت هذه الاستراتيجية سبيلها إلى التنفيذ، ابتدأت بعملية الوحدة مع النمسا (Anschloss)، باعتراف دولي، ثم باحتلال نصف تشيكوسلوفاكيا(السوديت) أكملتها باحتلال تشيكوسلوفاكيا بأسرها مما أنهى واقعياً وعملياً دولة تشيكوسلوفاكيا، من خلال الاتـفاق الرباعي : ألمانيا ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا (مؤتمر ميونيخ ـ 30 / أيلول / 1938) التي أقرت أن ألمانيا دولة يحق لها أن تبلغ درجة الدول العظمى، في تصور باهت أنهم سيلجمون الطموح القوي لدى ألمانيا، من جهة، يتجنبون فيها المواجهة، ويحافظون على قواهم ومصالحهم، من جهة أخرى، لكن إسراف هتلر والقيادة الألمانية في الابتزاز، بلغ حدّاً لا يمكن قبوله وتحمله، بعد دخول ألمانيا إلى بولونيا في 1/ أيلول / 1939..

سياسة التهدئة والاحتواء وبناء الثقة انهارت إذن بدخول الألمان إلى بولونيا واحتلالها، وكانت بريطانيا وفرنسا الدولتان والقوتان العظميان الضامنتان لاستقلال وسلامة كيان بولونيا، وهكذا دارت عجلة الحرب العالمية الثانية. وكانت إيطاليا تطمح لأن تلعب دوراً مهماً كدولة عظمى وتحقق الطموح الفاشي بتحويل البحر المتوسط إلى بحيرة إيطالية تعزز بعد احتلالهم ليبيا، فدخلوا يوغسلافيا وألبانيا، كان على هذا الأفق العريض، بيد أن خطواتهم في الميادين كانت متعثرة هناك، وابتهل الألمان الفرصة في إكمال المهمة، وفي خططهم الهيمنة التامة على البلقان وشرق أوربا، الأمر الذي سيتيح لهم مواصلة مساعيهم في البحر المتوسط، وربما إلى شمال أفريقيا وقناة السويس، والمشرق العربي.

ومع اندلاع الحرب ودخول الجيش الألماني إلى البلقان يوغسلافيا وألبانيا لإسناد العمليات الإيطالية المتعثرة هناك، تعاونت حكومات بلغاريا ورومانيا والمجر مع المحور(ألمانيا ـ إيطاليا)، وهكذا تمت السيطرة على شرق أوربا ضمن توجه استراتيجي ألماني لم يكن جديداً، بل كان قد بدأ يتبلور ويكتسب أبعاداً سياسية / وإيديولوجية جديدة من خلال نزعة التوسع التي أطلقها العالم الجغرافي / الاستراتيجي كارل هاوس هوفر (Karl Haushofer) الذي ابتدع نظرية الأمن الألمانية المجال الحيوي (Lebensraum)، الذي غدا فيما بعد المحور الأساس لاستراتيجة الأمن القومي الألماني، ثم شاع استخدامه دولياً، حرفياً أو بإدخال تعديلات بسيطة، وفحواها أن ألمانيا أمة صناعية ناهضة، هي بحاجة إلى المستلزمات الرئيسية لتكون أمة عظمى، وهي المواد الخام والأيدي العاملة والأسواق، ثم اتخاذها في مرحلة لاحقة نقاط وثوب لتوسعات جديدة. ثم انبثقت منها نظرية سياسية / عسكرية استراتيجية من خلال نظرية الزحف نحو الشرق (Drangen nach Osten) وبعد وصول الحزب النازي للسلطة عبر الانتخابات عام 1933، بدأت هذه السياسة تتخذ خطوات عملية، بقيادة ساسة مغامرين، وقادة عسكريين عباقرة حرب واستراتيجية. وعندما أنجز الجيش الألماني مهمة احتلال يوغسلافيا في 17 / نيسان / 1941، وهي الصفحة التي بدت الأسهل في جبهة البلقان، كانت مهمة احتلال اليونان هي المقبلة والتي كانت أكثر صعوبة بكثير من احتلال يوغسلافيا.

(الخارطة : الروهر قلب ألمانيا الصناعي)

ونال مصطلح المجال الحيوي الكثير من الاهتمام، من قبل العلماء والاستراتيجيين الألمان وغيرهم، وكان هاوسهوفر يقصد بذلك حتمية التوسع الألماني شرقاً وذلك من أجل الوصول إلى سهوب أوكرانيا وشرق أوربا الزراعي واستخدام الأيدي العاملة الشرقية في الصناعة الألمانية، والأمر ينطوي أيضاً على افتراض أن دول شرق أوربا تضم أقليات ألمانية، وأن التوسع الألماني في تلك الأرجاء سيجد من يتعاون معه ويسانده في بولونيا، جيكوسلوفاكيا، رومانيا، وهنغاريا، وأوكرانيا، والقفقاس، القرم، جمهوريات البلطيق ليتوانيا ولاتفيا واستونيا بالإضافة إلى الوجود الألماني الرسمي في بروسيا الشرقية وشمال بولونيا.(1)

وقد مارست الحكومة الألمانية (بعد وصول هتلر إلى الحكم 1933) هذه الآراء بخطوات عملية، فقبل كل شيء استعادت منطقة الروهر بمظاهرة عسكرية صامتة، وسط ذهول فرنسي عجز عن إبداء ردة فعل مواجهة، واستطاع النظام الجديد (النازي) من حل معضلاته الاقتصادية (التضخم) وبذلك استعاد واستكمل الاقتصاد الألماني عافيته، وضاعفت الصناعة من نشاطها وجودة إنتاجها المعهودتين للتجارة وللآلة الحربية على السواء، وبدا أن الظرف قد غدا مناسباً من أجل البدء بتحقيق " المجال الحيوي الألماني " ضمن الإطارات التي وفّرت القيادة الألمانية مستلزماتها في الحماية العسكرية والتغطية السياسية والدبلوماسية في:

إتمام عملية الوحدة مع النمسا باتباع أساليب المؤامرة حيناً، والتهديد حيناً آخر، والقوة والإكراه، ويرافق ذلك استعراض شديد للقوة العسكرية.
ضمّ أراضي السوديت التي تقطنها غالبية ألمانية واقتطاعها من حدود دولة تشيكوسلوفاكيا بالتهديد وبالمرونة مع فرنسا وبريطانيا، بتغطية دبلوماسية ناجحة في مؤتمر ميونيخ المشهور بين قادة دول: ألمانيا وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا.(2)
اعتبرت القيادة الألمانية أن الممر الذي يربط الأراضي البولونية وكذلك استمرار مدينة دانزنغ تحت الحماية الدولية أمراً ماسّاً بسيادتها الوطنية، ويخل بهيبتها ونفوذها، فطالبت بضم الممر الذي يربط ألمانيا بمدينة دانزنغ، بيد أن ذلك كان سيحرم بولونيا من إطلالتها على بحر البلطيق، لذلك عارضته بقوة وببسالة، لا سيما وأن تجربة تفتت جيكوسلوفاكيا ككيان كان لما يزل ماثلاً.

وحين نفذت ألمانيا تهديداتها باحتلال الممر بالقوة واصطدمت ببولونيا، تحركت أخيراً بريطانيا وفرنسا الضامنتين لسيادة بولونيا بعد أن أدركتا أن الاستراتيجية الألمانية إنما تهدف فعلاً إلى خلق قوة عالمية سياسية واقتصادية وعسكرية وذلك ما سيعرّض نفوذها ومصالحها إن عاجلاً أو آجلاً إلى الخطر المباشر.

وهكذا نشبت الحرب العالمية الثانية بفعل تضارب المصالح الوطنية العليا، (حسب تقديرات القيادات السياسية آنذاك) بما يهدد ركائز أمنها القومي القائم أساساً على صيانة الإمبراطوريات الاستعمارية وتوسيعها، وبما أن ألمانيا الهتلرية مثلت طرفاً شرهاً لا يمكن احتماله، فالحرب بهذا المعنى كانت استباقاً لتوسع وتعاظم نفوذ ألمانيا وحليفتها الأوربية إيطاليا، والحليف الآسيوي، اليابان الذي كان ساعياً بدوره إلى التوسع وعلى حساب المصالح الأمريكية والبريطانية، إجهاضاً لمحور قبل أن تتكامل خطوطه فتصعب مقاومته.

وفي سياق استعراض حسابات الاستراتيجيين وخبراء الأمن القومي، وسنذكر ذلك كأمثولات وتمارين لقضايا الأمن القومي:

أولاً : بالنسبة لألمانيا : فقد كان التوسع نحو الشرق يؤمّن لها:
ضم النمسا والسوديت والممر البولوني سيؤدي إلى وجود دولة قوية في أوربا تضم حوالي 100 مليون نسمة.
ضم الصناعة النمساوية والتشيكية إلى محصلة الإنتاج الصناعي الألماني.
خلق منطقة نفوذ قوية في دول البلقان ستعود على ألمانيا بأعم الفوائد في مجال:
جعلها أسواق مغلقة للمنتجات الصناعية الألمانية.
كسب مواقع استراتيجية على البحر الأسود(رومانيا) وعلى البحر المتوسط(يوغسلافيا).
مد الآلة الصناعية بالمواد الخام الأولى:الفحم الحجري البولوني، والنفط الروماني..إلخ
سد حاجة ألمانيا التي تعتبر بلداً صناعياً بالدرجة الأولى من المنتجات الزراعية.

وبالفعل، سرعان ما أثمرت قبل نشوب الحرب في أيلول ـ سبتمبر/1939، فقامت حكومات حليفة لها في بلدان شرق أوربا، هنغاريا، رومانيا، بلغاريا، يوغسلافيا، عدا حليفتها الأساسية في القارة(إيطاليا) وطرحت هذه المعطيات ألمانيا طرفاً دولياً مهماً ومنافساً للبلدان العظمى في أوربا وغيرها، في حين أنها كانت لفترة وجيزة خلت دولة تحت المراقبة ومعاقبة من قبل الحلفاء كواحدة من نتائج الحرب العالمية الأولى.

ثانياً : بالنسبة لبريطانيا :
بدت الظاهرة الألمانية مقلقة لأكثر من سبب:
إن التوسّع في القارة الأوربية ولا سيما في البلقان التي لم تخلُ من اهتمامات الاستراتيجيين الإنكليز سيعرّض نفوذ وهيبة بريطانيا للتدهور.
إن التوسّع السياسي على الأرض يرافقه الإنتاج الصناعي النشيط والمشهور بجودته وغزارته، لا بد أن يرافقه توسّع تجاري واقتصادي عام وسيكون ذلك على حساب التجارة البريطانية.
إن سياسة التوسّع الألمانية والتي كانت تجري تحت شعار " المجال الحيوي " تثير في بريطانيا ذات المخاوف التي كانت في سبيلها إلى التحقق قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى تحت شعار " الزحف نحو الشرق " Drangen nach Osten التي كانت ألمانيا تعتمد فيها على حليفتها الإمبراطورية العثمانية في التوغل شرقاً حتى الخليج العربي وطرد النفوذ البريطاني من تلك الأرجاء التي كان بدء اكتشاف واستخراج النفط يبشّر بمكانتها الاستراتيجية.
ومن المعروف أن تركيا كانت قد أعلنت الحياد في الحرب العالمية الثانية، وإن كانت تتعاطف مع ألمانيا ليس فقط للأسباب التاريخية المعروفة، بل وتطميناً لمخاوف أمنها القومي، وذلك من احتمالات تفوّق

سوفيتي (بنتائج الحرب)، وهو ما حصل حقاً فيما بعد، وتجديد السوفيت لمطالبهم القديمة بمقاطعتي قارص وأردهان التركيتين، بالإضافة إلى مخاوف من فرض عناصر جديدة (شروط) على المضائق البوسفور والدردنيل، تقلص من حدود السيادة التركية عليهما، وكان أي انتصار ألماني جديد بعد عام 1943 سيدفع بتركيا إلى المحور، الأمر الذي سيفتح أبواب الشرق الأوسط على مصراعيه أمام قوى التوسع الألماني، وكان الشرق الأوسط حتى ذلك الوقت ملعباً للفعاليات البريطانية تهيمن على معظم أقطاره وتستحوذ على ثرواته الطبيعية وفي مقدمتها النفط.(3)

كان لتحالف ألمانيا مع إيطاليا ذات الأطماع الاستعمارية في القارة الأفريقية، وليس في ليبيا فقط، بل التوسع شرقاً لبلوغ مصر والسودان، ومن الاتصال بالوجود الإيطالي في منطقة القرن الأفريقي، (أثيوبيا) فذلك كان يعني السيطرة على قناة السويس التي تمثل عصب الملاحة التجارية والحربية لبريطانيا إلى مستعمراتها في القارة الأفريقية وإلى شبه القارة الهندية وإلى الملايو في آسيا، وتشكيل كماشة وحصار الوجود البريطاني الذي سيغدو ضعيفاً (نسبياً) في المشرق العربي، ثم غدا أكثر ضعفاً (لاحقاً) بعد انضمام الوجود الفرنسي في المشرق العربي(سوريا /لبنان) إلى حكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان، وكذلك الوجود الفرنسي في المغرب العربي (تونس، المغرب، الجزائر) بالإضافة إلى نشاط فعاليات حركة التحرر الوطنية والقومية النشيطة في مصر والعراق وفلسطين الهادفة إلى طرد الوجود البريطاني، وقد ثبت لاحقاً أن لهذه المخاوف ما يبررها، إذ كاد الفيلق الألماني وقوات المحور بقيادة الماريشال رومل أن يحقق هذه الاستراتيجية وكاد يبلغ قناة السويس.
بالإضافة إلى المخاوف البريطانية في القارة الأوربية وأفريقيا آنفة الذكر، فإن احتمالاً ينذر بالخطر يتمثل بالقوة اليابانية في آسيا التي لم تكن تخفي أطماعها بالوصول إلى مستعمرتين رئيسيتين لبريطانيا تمثلان المستودع البشري والاقتصادي لها، وهما أستراليا والهند، وكان للتحالف الألماني الإيطالي ـ الياباني ما يمنح هذه المخاوف أبعاداً جدية.

مثّلت هذه المعطيات بالإضافة إلى عناصر ثانوية تتمثل بمصداقية التحالفات البريطانية في أوربا، تحالفها مع فرنسا، ضمان وجود واستقلال بولونيا، مثّلت عناصر موقف استراتيجي ينذر باحتمال خرق خطير لأمن الإمبراطورية لابد من استباقه، ووضع حد لتدهور الموقف ولإيقاف عجلة الأحداث التي تدور في غير صالحها.

ثالثاً : بالنسبة لفرنسا :
لا بدّ من ذكر حقيقة مثّلت مؤشراً أساسياً في موقف فرنسا السياسي/العسكري وذلك بضعف القيادات السياسية والعسكرية والتناقضات التي كانت تسود صفوفها من جهة، وضآلة استيعاب الأوساط الاستراتيجية تأثيرات الثورة العلمية التكنيكية على قضايا الأمن القومي والدفاع الوطني من جهة أخرى.

وقد أدى كل ذلك إلى تخلخل مواقفها وتميزها بالتردد وافتقاد الحزم المطلوب، واتسمت بالسلبية والتراجع إزاء زخم الموقف السياسي والعسكري الألماني. وكان ضعف العناصر المعنوية عاملاً هاماً في هذا التراجع، فالفرنسيون كانوا قد خبروا أكثر من غيرهم الحروب وعواقبها، بصفة خاصة حروبهم مع الألمان الذين سبق لهم أن احتلوا عاصمتهم مرة قبل ذلك وحاصروها مرة أخرى، بالإضافة إلى خسائرهم الهائلة بالأرواح في الحرب العالمية الأولى التي شكّلت إحدى العوامل النفسية، بالإضافة إلى ترددهم وتهيبهم من خوض غمار حرب جديدة ستكون أشد هولاً وتدميراً.

وكانت فرنسا تعمل بتنسيق سياسي وعسكري مع بريطانيا التي كانت تدفع الفرنسيين إلى مواقف الصلابة والصمود لا سيما في الأيام التي سبقت إعلان الحرب، ليس بغرض كسب فرنسا إلى جانبها في الصراع المسلح، بل وبسبب أن فرنسا تمثّل الموقع الأكثر تأهيلاً ومعقولاً كرأس جسر عبر بحر المانش لأية

فعاليات عسكرية حالية أو مستقبلية في القارة الأوربية، لذلك فالإنكليز لم يكونوا يدخرون وسيلة لشد عزائم الفرنسيين، أما مفردات الموقف السياسي والاستراتيجي الفرنسي، كانت في أهمها:

الحفاظ على التوازن في القارة الأوربية، وبذل أقصى المساعي السياسية والدبلوماسية للحد من التوسع الألماني، فقد تجرعت فرنسا بصعوبة مرارة التوسع الألماني :

* في انتزاعها منطقة الروهر من فرنسا نفسها باستعراض للقوة.
* ضم السوديت التشيكية إلى ألمانيا.
* ضم النمسا في عملية الوحدة (الأينشلوس) Einschluss .

2. في عموم التطورات السياسية والأحداث المتدهورة باتجاه حرب عالمية، كان من العسير أن تبقى فرنسا خارج تحالفاته، ففي ذلك خسران مبين لمكانتها وهيبتها كدولة عظمى ولمصالحها العالمية، سواء في مستعمراتها الأفريقية التي يهددها الخطر الألماني ـ الإيطالي، أو في مستعمراتها الآسيوية التي يهددها الخطر الياباني.

3. كان لموقع فرنسا الجغرافي في القارة الأوربية وكدولة ذات حدود مشتركة مع ألمانيا، يفرض عليها موقفاً تختلف فيه عن بريطانيا التي يفصلها بحر الشمال(المانش)عن البرّ الأوربي، ولا يمكنها أن تراقب التهام ألمانيا لدول وأراضٍ في الشرق، وتوسيع نفوذها السياسي شمالاً في فنلندة والنرويج، وتعد ذلك أمراً لا يعنيها، وتراقب تضاعفَ عدد وعتاد الجيش الألماني (وتلك كانت مخالفة صريحة لاتفاقية فرساي) ليصبح قوة لا تقهر في أوربا، وأن تعتبر أن ذلك لا يهددها. وباختصار فقد كان موقف الحياد مستحيلاً في ظروف ومواقف كهذه.

4. على الرغم من مطالبة وأطماع إيطاليا بجزء من الجنوب الفرنسي لم يكن ليمثل مشكلة جدية ذي بال، إلا أن تحالفها مع ألمانيا سيجعل من هذه الأطماع أمراً قابلاً للتحقيق، وهو ما حدث لاحقاً.

وهكذا، فإن فرنسا دخلت الحرب شبه مكرهة وبدون حماس، وتلك من جملة العوامل التي تفسر الانهيار الفرنسي السريع لفرنسا واستسلامها.

رابعاً : بالنسبة للاتحاد السوفيتي :

كانت الدولة السوفيتية حديثة العهد ولا يتجاوز عمر تجربتها العشرين عاماً إلا بقليل، وتلك كانت حافلة بالأحداث كرست لها قيادة الدولة جل اهتماماتها، وقبل كل شيء، فقد استغرق تثبيت سلطة الدولة ضد قوى التدخل من الخارج زمناً لم يكن قصيراً، ثم تحقيق المستلزمات الأولى لبرامج الدولة في مجالات الصناعة والزراعة، ثم حملات التطهير الداخلية التي لم تخلُ من تأثيراتها السلبية على استعداد الدولة لمجابهة القوى الخارجية.

وبرغم أن المشكلات الداخلية في بناء الدولة والمجتمع كانت تتطلب بذل جهود كبيرة، إلا أنها واجهت أيضاً مشكلات خارجية تمثّلت بالأطماع التوسعية لليابان التي ابتدأت التحرش بالحدود السوفيتية في منطقة "خالخين غول "1939 حيث اشتبك الجيش السوفيتي مع الجيش الياباني في صراع استمر 4 شهور، وكذلك الحرب المحدودة مع فنلندة، كما بُذلت الجهود الكبيرة في الميدان السياسي الخارجي لمراقبة الأحداث في أوربا التي كانت تقود بصورة حتمية إلى الحرب وإلى صراع دولي واسع وقريب.

إلا أن القيادة السوفيتية حاولت ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً تجنّب خوض الحرب، إذ كان الموقف العسكري والاستراتيجي يشير في مفرداته، أن الاتحاد السوفيتي سيواجه لمفرده زخم الهجمات الألمانية العنيفة بالنظر لهشاشة الموقف العسكري والسياسي في أوربا، وأن السكون في الجبهة الغربية سيكون طويلاً. وفي المراحل اللاحقة، أيقنت القيادة السوفيتية أنها ستتصادم لا محالة بالتوسع الألماني باتجاه القمح الأوكراني وحقول النفط في باكو من أجل تسيير ماكينتها الحربية، إلا أنها تابعت كسب الوقت لتهيئة جيوشها للعدوان المرتقب رغم اتفاقية التعاون المعقودة بين الدولتين.

بيد أن القيادة الألمانية لم تنتظر طويلاً، فارتكبت غلطتها الاستراتيجية الثالثة بإعلان الحرب على الاتحاد السوفيتي متجاوزين بذلك أولى مبادئ المفكّر الاستراتيجي الألماني كلاوس فيتز بعدم خوض الحرب على جبهتين(4)

وقد عوّلت القيادة السوفيتية في سلامة أمنها القومي على:
مساحة البلاد الشاسعة: وتتيح هذه فرص وإمكانيات ممتازة لا سيما إذا أحسن استخدام هذه الميزة:
في إجراء المناورات الواسعة بالقطعات خلال القتال.
إنهاك العدو بجبهة وعمق واسعين.
توزيع مراكز الإنتاج الصناعي بما يضمن سلامة المنشآت من التدمير أو الاحتلال، وبالفعل قامت القيادة السوفيتية، وتلك واحدة من مآثرها، بنقل الصناعات فور نشوب الحرب إلى ما وراء سلسلة جبال الأورال في أعماق القسم الآسيوي من روسيا.(5)
القدرة على امتصاص زخم الهجمات، واستيعاب بعض الهزائم.
أتاحت مساحة البلاد الواسعة إمكانية متابعة الإنتاج الزراعي في خدمة اقتصاد الحرب.
السكان: أتاح ارتفاع عدد سكان الاتحاد السوفيتي زج أعداد هائلة من المقاتلين في الصراع المسلح سواء في القوات المسلحة أو في القطاعات الرافدة للمجهود الحربي، وبدرجة أساسية في الصناعات الحربية وكذلك في الإنتاج الزراعي والصناعي واستيعاب الخسائر العالية في الأرواح دون أن يؤثر ذلك على جاهزية جيوشها القتالية.
التعبئة القصوى للطاقات: استخدمت القيادة السوفيتية مساحة البلاد الشاسعة والارتفاع في عدد السكان بصورة ممتازة من خلال عمل دؤوب ومنظّم وبانضباط عالٍ، أمكن من خلاله إنجاز حجم هائل من الإنتاج الحربي للقوات المسلحة، كما أنجز العلماء تطوير مهم في أداء وكفاءة بعض الأسلحة، بما في ذلك فقرات أساسية مثل: الدبابات ت34 ومدفعية الميدان، وراجمات الصواريخ، كما قامت الفصائل المنظمة في المناطق التي احتلها الألمان، وفي الأعماق خلف خطوط الجبهة، بنشاطات فعالة ضد منشآته وخطوط مواصلاته البعيدة.
استنزاف الجيش الألماني: كانت القيادة الألمانية قد صمّمت خططها الحربية ضد الاتحاد السوفيتي على أساس الحرب الصاعقة Blitz Krieg وذلك بتوجيه ضربة قاضية للجيش السوفيتي، مع تدمير واسع النطاق يلحقه الطيران الألماني بالخطوط والمعسكرات الخلفية والمصانع ومحطات الطاقة والمواصلات، والمخزون الاستراتيجي للغذاء، أي تدمير البنى الأساسية بما يحول دون إمكانية مواصلة الصمود والحرب.

وكانت الجيوش الألمانية قد اشتهرت بتطبيق خطط الحرب الصاعقة (Bliz Krieg) وبرعت بها على الجبهة الغربية، التي تعتمد بدرجة رئيسية على:
قوات الطيران التي تنزل أفدح الخسائر بالبنى الارتكازية Infrastrktur التي يصعب عادة إعادة تشييدها بسرعة، وتكلف أموالاً وجهوداً كبيرة.
ضغط بالنيران على كافة الجبهات، من أسلحة حديثة تتمتع بكثافة نارية شديدة.
قطعات آلية (دروع/ مشاة مدرع) واستخدام كثيف للآليات التي تتيح إجراء خروق في الجبهة في وقت قصير وفي مناطق متعددة، والقيام بمناورات واسعة بالقطعات.
تعاون وثيق بين الصنوف، بقيادة الأركان الألمانية التي اشتهرت بكفاءتها.

وكان الألمان يعولون على نجاح خططهم، وإحراز نصر سريع على الجبهة الشرقية، ليتفرغوا بقواهم وجهدهم الحربي لمواجهة التطورات والاحتمالات على الجبهة الغربية، وقد حقق الجيش الألماني فعلاً نجاحات باهرة على الجبهة الشرقية، إذ احتلت أو أطبقت في وقت قصير على مدن سوفيتية مهمة.

أما السوفيت فكانوا يعولون على قدرة الشعب الروسي المشهود لها عبر التاريخ بالصبر على الشدائد وتحمل المشاق والكوارث، فتمكنوا وبعد وقت قصير (نسبياً) من تعبئة قواهم والصمود، ثم استيعاب زخم الهجمات الضارية للجيوش الألمانية واحتوائها، ثم بدأ تقهقر الجيوش الألمانية إلى الخلف تتعقبهم الجيوش السوفيتية منزلة بهم أفدح الخسائر، ويتفق الكثير من المؤرخين أن الوقفة الدفاعية الباسلة أمام ستالينغراد وموسكو ولينينغراد، هي التي طحنت أفضل القوى الألمانية، وحسمت الحرب العالمية الثانية.

وإذا كانت ردود الأفعال السوفيتية قبيل الحرب قد اتسمت بالسلبية (نسبياً) إذ أنها اعتبرت ما يدور في القارة الأوربية هو عبارة عن تنافس بين مستعمرين وإمبرياليين جدد وقدامى، وليس من مصلحتها في شيء أن تزج بنفسها في أتون صراع يدور بين أعدائها "الطبقيين"، إلا أن ردود أفعالها اللاحقة وسعة أفق دوائرها الاستراتيجية اتسمت بالدقة وشمولية الموقف الحالي والتنبؤ بالأحداث اللاحقة والتطورات السياسية حتى لمرحلة ما بعد الحرب، واستثمرت معطيات الموقف السياسي والعسكري والمنجزات التي تم تحقيقها على الأرض، وأن تحقق لنفسها مرتبة قيادية في العالم تساهم في صنع أحداثه ومستقبله.

خامساً : بالنسبة للولايات المتحدة:
كانت الولايات المتحدة قد عقدت العزم على الابتعاد قدر الإمكان عن أوربا ومشكلاتها، فالولايات المتحدة كانت تهتم بدرجة رئيسية بأميركا اللاتينية ودول الكاريبي والمحيط الهادئ وتسير قدماً في برنامجها الذي يهدف إلى تطوير استثماراتها، ويضمن لها موقعها البعيد قدراً كبيراً من الأمن والسلام.

وكانت قد راجت في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى فكرة الانعزال (Isolation)، و " لن نبعث بشبابنا إلى أوربا مرة أخرى" وبالفعل فقد بدا في بداية الحرب للأمريكيين أنها فرصة مناسبة للاستثمار والربح فحسب، إذ صدر قانون الإعارة والتأجير الذي درّ عليها أرباحاً طائلة(قدمت الولايات المتحدة البوارج الحربية والسفن، ومعدات كثيرة لبريطانيا تحت هذا القانون)، ومن جهة أخرى، فأنها لم تكن منزعجة من النجاحات الألمانية على الجبهة السوفيتية، إذ عبّر السياسي الأمريكي ترومان: "إذا طحن الألمان السوفيت فهذا جيد، وإذا طحن السوفيت الألمان فهذا جيد أيضاً".

إلا أن هذا الموقف السلبي تطور، ليس بفعل تطور الأحداث في القارة الأوربية فحسب، حيث غدا واضحاً مصير ألمانيا في الحرب، بل بفعل تدهور الأوضاع في المحيط الباسفيكي"الهادئ"، واصطدام مصالحها العليا بالتوسع الياباني الذي بات يهدد مصالحها بصورة مباشرة في استيلاء اليابان على جزر استراتيجية مهمة، وأظهرت أطماعها في جزر الفلبين، لذلك فإن التناقضات بدأت تتحول إلى تناقض تناحري، كان لا بد في نتيجته الحتمية أن يقود إلى الصراع المسلح، وكانت أبرز المؤشرات في استراتيجية أمنها القومي:

1. لا بدّ من تحقيق السيطرة والهيمنة على الباسفيك، وإجلاء أي قوة تهدد المصالح الأمريكية الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

سيتيح بُعد الأراضي الأمريكية "الوطن الأمريكي" عن ساحات القتال إلى إنتاج صناعي وزراعي غزير للحرب وللتجارة على السواء، وفي الواقع لم تنزل أية قذيفة على الأراضي الأمريكية طيلة زمن الحرب.
تحقيق هيمنة اقتصادية على العالم الرأسمالي وذلك عبر:
سحب الولايات المتحدة معظم أرصدة بريطانيا من الذهب واحتياطيها من العملات مقابل تقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية.
حقّق التقدم العلمي والتكنولوجي والإنتاجية العالية غزارة في الإنتاج الحربي والتجاري على السواء بواسطة قانون الإعارة والتأجير.
تصدير نمط جديد من الإمبريالية لن تكون مختلفة جوهرياً عن الأنماط الاستعمارية المعروفة في نهب ثروات البلدان النامية، حيث تتم عصرنة Modernisation للأساليب الاستعمارية التي لاقت شجباً واسع النطاق.

ولسنوات (استغرقت حتى أعوام الخمسينات) كانت الولايات المتحدة قد أنجزت الكثير في هذا المجال، فالدول الرأسمالية لم تعد أكثر من توابع في النظام الرأسمالي العالمي الذي يقوده وتسيطر عليه الولايات المتحدة الأمريكية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، كما أنها غدت الحلقة المركزية في الأحلاف العسكرية التي شملت العالم بأسره في إطار ما يسمى "بالعالم الحر" وبمواجهة الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي، وقمع حركات التحرر الوطنية التي تسعى إلى تعزيز استقلالها السياسي والاقتصادي. وقد طبعت هذه المؤشرات الاتجاهات الرئيسية في السياسة الدولية.

وتشير الدروس المستفادة من الأمثولات التي استعرضناها، ما للتطورات السياسية: الأحلاف والمحاور والتكتلات من أهمية على تطور مفهوم الأمن القومي، ذلك التطور الذي كان مترابطاً بصورة وثيقة بـ:
ـ تطور الأنماط السياسية والقانونية المنظمة للمجتمعات(تطور مفهوم الدولة).
ـ شكل وحجم الإنتاج الاقتصادي.
ـ التطوّر العلمي والتكنيكي.

ويجمع المؤرخون أن القرن العشرين مثّل قفزة هائلة في تاريخ البشرية على كافة الأصعدة، وأن الحرب العالمية الأولى وبرغم مساهمة كأطراف دولية عديدة فيها، إلى أنها كانت محدودة في زمنها وخسائرها، وفي النتائج التي تمخّضت عنها قياساً إلى الحرب العالمية الثانية التي أفرزت واقعاً سياسياً دولياً جديداً يتمثّل بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية للعالم الرأسمالي سياسياً واقتصادياً وعسكرياً مقابل قيادة الاتحاد السوفيتي للمعسكر الاشتراكي، كما أدى تحرّر عدد كبير من البلدان والشعوب المستعمرة، وغدا من العسير تحديد عناصر الأمن القومي لدولة ما في العالم دون أن يرتبط ذلك بالأوضاع السياسية والاقتصادية على الصعيد العالمي.(6)

هوامش الفصل الثاني

(1) رياض، د. محمد: الأصول العامة في الجغرافية السياسية والجيوبوليتيكا، ص90
(2) أدى قبول تشيكوسلوفاكيا الإنذار النهائي الألماني Ultimatum بنصيحة فرنسية بريطانية، تم بموجبها سلخ إقليم السوديت الذي ضُمّ إلى ألمانيا، أدى إلى تفسخ الدولة التشيكية بعد ذلك بوقت قصير. المؤلف
(3). يمثّل الموقف التركي في المحافظة على أمنها القومي إبان الحرب العالمية الثانية، إحدى أمثولات العمل السياسي الحذر، على أن تركيا أعلنت الحرب على المحور قبل نهاية الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور. المؤلف
(4). كانت الغلطة الاستراتيجية الأولى بسماحها لبريطانيا الانسحاب من دنكرك، معتقدة أن ذلك يحفظ كرامة الجيش البريطاني ويسهّل سبيل مفاوضات سياسية لاحقة، والغلطة الثانية كانت بعدم مهاجمة الجزيرة البريطانية واحتلالها في وقت كانت فيه الجيوش البريطانية ضعيفة لجهة العتاد العسكري ومنهكة ولا قبل لها بصد الإنزال الألماني. المؤلف
(5). من الواضح أن عملاً كهذا لن يكون اليوم مجدياً بتلك الدرجة كما كان في ظروف الحرب العالمية الثانية، ذلك أن الصواريخ والطائرات الحديثة باستطاعتها الوصول إلى مسافات بعيدة جداً، وفي ذلك دليل جديد على أهمية التكنولوجيا وتأثيرها على قضايا الأمن القومي. المؤلف
(6) الدباغ، د. ضرغام : قضايا الأمن القومي والقرار السياسي، بغداد 1985

ثالثاً : بدء العمليات الحربية في اليونان

ابتدأ الهجوم على اليونان وكان حصيلة تحالف سياسي / عسكري، ألماني ـ إيطالي ـ بلغاري، في 6 / نيسان / 1941 بقصف كثيف للخط الدفاعي اليوناني القوي ميتاكساس (Metaxas) في شمال البلاد. وفي مذكرة رسمية ذكرت الحكومة الألمانية أن أسباب الهجوم ، هو بسبب القرار الذي اتخذ بإرسال عشرات الآلاف من الجنود مجهزين في قوة استطلاع بريطانية على البر اليوناني الرئيسي في بداية شهر آذار / 1941، ومن مخاطر تشكل جبهة جديدة في جنوب أوربا. (1).

(1) هناك مئات الجزر اليونانية تعد أراضي سيادة يونانية، والمقصود البر الرئيسي الذي يضم العاصمة، ويتصل بسائر أوربا براً.

(الخريطة : لاحظ موقع مدينة سالونيكي وأمامها الخط الدفاعي على حدود بلغاريا، والسهم الجنوبي باللون الأحمر يشير للهجوم الجنوبي)

عبرت قطعات الفيلق الجيش الألماني 12 الذي يقوده الفيلد مارشال فيلهام ليست، الحدود البلغارية ـ الألمانية إلى اليونان، بتاريخ 6/ نيسان /1941، وهنا خدمتهم التسهيلات الجيدة في ميناء بيرايوس (Piraus) التي رغم أنها كانت قد تضررت بالقصف الجوي الألماني في 7/ نيسان، حيث استهدفت سفينة بريطانية كانت محملة بالذخائر، وفي 9 / نيسان اقتحمت قوة ألمانية بدعم جوي قوي، الدفاعات الجوية القوية، في ميتاكساس (Metaxas) بالقرب من منطقة فورتروبل، في وادي ستريموناس، وفي اليوم نفسه وصلت وحدات مدرعة ألمانية إلى ثيسالونيكي، واحتلت المدينة، وأحكمت الحصار على الجيش اليوناني الثاني، الذي تحتم عليه الاستسلام.

وفي نفس الوقت، تقدمت قوات ألمانية للاستيلاء على فاردارسكا بانوفينا،(اليوم في مقدونيا)، على امتداد وادي فاردار ومناطق فلورينا بيتولا باتجاه اليونان، والتقوا في ذلك مع الجناح الغربي مع وحدات بريطانية (مختلطة من دول الكومنولث)، بقيادة الجنرال هنري ويلسون، عند خط اليكامونس. وفي 11 / نيسان / 1941 استولت الوحدات الألمانية على ممر كليدي جنوب شرق فلورينا، وبعدها يوم 14 / نيسان كوتساني. وفي 16 / نيسان، أبلغ الجنرال البريطاني ويلسون قراره للقائد العام للقوات اليونانية انسحابه من مواقعه، وتأسيس خط دفاعي جديد في ترموبيلي، وسهّل ذلك لمزيد من توغل القوات الألمانية، إلى الداخل اليوناني.

(الفريق طيار شتودنت قائد الحملة الألمانية على اليونان)

في 16 / نيسان اصطدمت قوات ألمانية، بقوات الجيش اليوناني الأول المنسحبة من ممر كاتارا التي أصبحت محاصرة من الألمان من جهة الشرق والغرب، وتحفها سلاسل الجبال. فساء الموقف العسكري بدرجة كبيرة. في 18 / نيسان انتحر في أثينا رئيس الوزراء اليوناني الكسندروس كوريزيس، وتشكلت حكومة جديدة، فيما حدثت خلافات بين القادة العسكريين، انتهت باستسلام الجيش اليوناني. وانسحب الملك اليوناني حيث أبحر الملك جورج الثاني مع حكومته إلى جزيرة كريت.

بتاريخ 21 / نيسان أمر القائد العام لقوات الحلفاء في البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط أرشيبالد ويفل الأمر بإخلاء قوات الحلفاء إلى جزيرة كريت ومصر،في عملية أطلق عليها (Demon) وحتى 30 / نيسان، أمكن إخلاء حوالي 50,000 جندي تاركين أسلحتهم أو معدات ثقيلة، بواسطة البحرية البريطانية، عبر موانئ أتيكا، وبيلوبونيس. في 24 / نيسان تخلت قوات الحلفاء عن مواقعها في نرموبيلي ، وفي اليوم التالي 27/ نيسان دخلت الفرقة المدرعة الخامسة الألمانية إلى العاصمة أثينا. وبذلك انتهت الحملة في البر اليوناني، في 29 / نيسان، بالاستيلاء على مدن جنوبية، كما احتلت جماعات مشاة ألمانية ومحمولة جواً العديد من الجزر الكبيرة ذات الأهمية، بما في ذلك ليمنوس، وليسبوس، وخيوس، وأحتلت القوات الإيطالية جزراً يونانية أخرى .

بلغت خسائر الحلفاء على البر اليوناني 12,000 أسير حرب، وجميع المعدات والأسلحة الثقيلة، وخسائر الألمان على الأرض اليونانية بلغت 2.559 قتيل، و 5.820 جريح، و 3.169 مفقود.

وكريت كقاعدة عسكرية لبريطانيا كانت تعني قدرتها على الوصول إلى بحر إيجة، وقصف حقول النفط في رومانيا (كيلا يستفيد منها الألمان)، لذلك اتجهت أنظار القيادة العسكرية الألمانية فوراً إلى كريت، لتنفيذ عملية سيتولى السلاح الجوي القسم الأكبر منها.

حتى الاستسلام النهائي، كان لدى الجيش الألماني نحو 210.000 جندي يوناني، ثم اتسع الرقم ليبلغ 430.000 رجل، يمثل مجموع الجيش اليوناني، أطلق سراحهم جميعاً بعد فترة وجيزة، استطاع بعضهم الفرار ليلتحق بتشكيل عسكري يوناني في مصر يضم 20,000 رجل قاتلوا في العلمين وفي إيطاليا 1944.

كانت القوى الأساسية للجيش اليوناني تتألف من فرق تضم وحدات مشاة، بعضها آلية. وبسبب افتقارها للأسلحة الثقيلة، وما يلزم من الدعم الجوي، اعتبرت القيادة العليا للقوات المسلحة الألمانية الجيش اليوناني خصماً متخلفاً وضعيفاً، وكان الأمر كثيراً للدهشة ومفاجأة للجيش الألماني 12 الذي كان بقيادة الفيلد ماريشال (المشير) فيلهام لايست (1880 – 1971) الذي واجه مقاومة يونانية مريرة في خطوط ميتاكساس الدفاعية.

(الصورة : جنود ألمان في الأكروبوليس / أثينا)

ولم يكن بالإمكان تجاوز عقدة سالونيكي، إلا بعد نجاح الهجوم من جنوب يوغسلافيا، وبذلك أصبحت مدينة سالونيكي خلف الخطوط الدفاعية ميتاكساس. وفي 9 نيسان، تم احتلالها (سالونيكي). وقد استسلمت كافة القطعات اليونانية المقاتلة شرقي نهر أكسيوس (Axios) والبالغ عددها نحو (60,000) جندي وضابط.

وبقطعات آلية ألمانية مدربة أفضل تدريب وقادة عسكريون ممتازين، كان ممكناً قيادة حرب آلية متحركة وسريعة، تقدمت فيها القطعات الألمانية التي توغلت عبر الحدود الصربية (يوغسلافيا) والأولمب، وتقدمت بسرعة كبيرة وبلغت حتى أواسط البونان، وفي 20 نيسان بغت حتى مدينة لاميا (Lamia) مباشرة أمام الموقع التاريخي الشهير، (Thermopylen)، خلف مواقع كان الجيش البريطاني قد انسحب إليها. وبعد يوم واحد استسلمت 16 فرقة من الجيش اليوناني كانت تمسك خط الحدود اليونانية / الألبانية، وبذلك انهارت المقاومة اليونانية (2) .

وحتى تاريخ 30 / نيسان احتل الجيش الألماني والوحدات الإيطالية كامل الأراضي اليونانية (الأرض الأوربية، عدا الجزر)، والجزر المهمة في البحر الأبيض المتوسط، عدا جزيرة كريت (Kreta)، وكان (50,000) جندي بريطاني قد تمكنوا في غضون ذلك من الإخلاء إليها (إلى كريت) من اليونان، وإلى قاعدة الجيش البريطاني في مصر خلال عملية إخلاء أطلق عليها اسم ديمون (Demon)، بواسطة

السفن، ولكن سقط (12,000). جندي بريطاني في أيدي الجيش الألماني كأسرى حرب، فيما أطلق الألمان سراح حوالي (223,000) جندي يوناني.

(الصورة : أسرى الجيش البريطاني "هنود" في اليونان)

أتمّ الجيش الألماني احتلال اليونان وأنجزه بصفة تامة في شهر أيار 1941، وابتدأ نظام الاحتلال الذي بدأ باستسلام الجنرال جورجيوس تسولاكولو في 22 / نيسان / 1941 وانتهت بانسحاب القوات المسلحة الألمانية وغيرها من أثينا في 12 أكتوبر 1944. وبالنسبة للنظام الذي نصبه الاحتلال الألماني في اليونان، قامت مجموعات وحركات مقاومة والسنوات اللاحقة، مقاومة كانت فاعلة وألحقت بالألمان الكثير من الخسائر. وبانسحاب البريطانيين من اليونان، وبعدها احتلال كريت نفسها بواسطة عملية جوية (إنزال مظلي) التي أطلق عليها اسم عملياتي ميركور (Merkur) في بداية شهر حزيران / 1941 ، كانت الأهداف الاستراتيجية لعمليات البلقان قد تم إنجازها. (3) (4)

هوامش الفصل الثالث

هناك مئات الجزر اليونانية تعد أراضي سيادة يونانية، والمقصود البر الرئيسي الذي يضم العاصمة، ويتصل بسائر أوربا براً.
موقع ترموبيلي (Thermopylen) الشهير حيث دارت معركة تاريخية بين اليونانيين والفرس، واستطاع اليونانيون أن يلحقوا هزيمة منكرة بالفرس وجيشهم الجرار، بكوكبة من المقاتلين الأشداء لا يزيد عددهم عن 300 مقاتل.

3 . Deutsche Besatzung Griechenlands im Krieg Ohne Plan, aber mit Antike
08.06.2016 Constantin Fellner

4. Deutsches Historisches Museum, Berlin, 19 . Mai. 2015

رابعاً : احتلال كريت (1)

(الصورة : إركاب الجنود وتحميل العتاد للإنزال في كريت)

بعد أن أتم الألمان احتلال اليونان وأنجزوه بصفة تامة في شهر أيار 1941، وكانوا قبلها قد سيطروا على البلقان وشرق أوربا، وكانت كريت ضمن مخطط التوسع لعدة أسباب سياسية / عسكرية. وكريت جزيرة تابعة من حيث السيادة الوطنية لليونان، وبعد أن أكمل الألمان احتلال اليونان، كان هدفهم الاستراتيجي تأمين الحافات الجنوبية الشرقية لأوربا، ومن أجل أي تفكير في أهداف استراتيجية بصدد شمال أفريقيا، هناك ثلاث نقاط ارتكاز (عدا مضيق جبل طارق) كان البريطانيون يعتمدون عليها في بسط سيطرتهم على حوض البحر الأبيض المتوسط، أو على الأقل الجنوبي منه وهذه النقاط هي :

1 ـ مضيق جبل طارق: مضيق جبل طارق هي مستعمرة بريطانية تضم ميناء جيد ومطار في ظهره إسبانيا وكانت على الحياد، وإن كانت أميل إلى المحور، وجنوبها مراكش وهي مستعمرة فرنسية, فسيطرة بريطانيا عليها مضمونة إلى حد بعيد.

2 ـ جزيرة مالطة: كانت فيها قوات بريطانية، وقاعدة جوية نشيطة، موقعها استراتيجي هام للملاحة البحرية والجوية في منطقة وسط البحر المتوسط (بين صقلية الإيطالية وجبل طارق.).

3ـ جزيرة قبرص: تحت الإدارة البريطانية فيها قواعد بحرية وجوية مهمة، وهي مشرفة على الملاحة البحرية والجوية في شرق المتوسط. شمالاً وجنوباً.

4 ـ جزيرة كريت: وهي الأهم والأقرب منالاً، وفاتحة كل الخطط الأخرى، وتمثّل كريت بأهميتها:

أن كريت هي جزء من أراضي السيادة اليونانية.

لموقعها الجيواستراتيجي(Geostrategic importans) المطل على منافذ بحر إيجة، الموصل إلى مضائق الدردنيل والبحر الأسود، ولبعدها (ضمن المديات الاستراتيجية ـ 600 كم) عن السواحل المصرية والليبية، وتبدو كقاعدة عسكرية ثابتة، أو كحاملة طائرات.(2)
في التفكير لتوسيع إطار العمليات العسكرية سواء في شمال أفريقيا (كانت القوات الإيطالية هناك) من أجل بلوغ قناة السويس وكانت من الخطط الإيطالية.
ضرورة كريت في إطار إسناد أي عملية حالياً أو في المستقبل في الشرق الأوسط، فلسطين والعراق، وهناك مؤشرات في هذا المجال.

(الصورة : الإنزال الألماني في كريت)

كان القائد البريطاني المحلي في كريت الجنرال(الفريق) فرايبرغ (Bernard Fryberg) يتوقع حدوث الهجوم الألماني، ولطالما ناشد قيادته بتعزيزات قدراته الدفاعية بوجه هجوم ألماني وشيك لا يستبعده، وخاصة بسبب افتقاره إلى المعدات الدفاعية (طائرات، وسائط الدفاع الجوي)، بيد أن قيادته لم تصغي لهذه التحذيرات، ربما استبعدت أن يقوم الألمان بإنزال جوي وبحري، رغم أنه الألمان كانوا في بداية الحرب قد قاموا بإنزال مظلي ناجح أدى أغراضه، وبالطائرات الشراعية على القاعدة البلجيكية الحصينة أيبين إيمايل (Eben Emael)، وكان على القيادة البريطانية أن لا تستبعد ذلك، ولكن ربما ظروف الدفاع عن الجزيرة البريطانية في تلك المرحلة الصعبة، لم يكن بوسعها تلبية طلب القائد المحلي. لم يضيع الألمان الوقت الثمين سدى، وفي استغلال لارتباك الخصم، فباشروا الهجوم بلا تأخير، مما يؤكد أن احتلال كريت لم يكن تحصيل حاصل ونتيجة لمعركة، بل صفحة من صفحات البلقان وما جاورها ..!

بدء العمليات الحربية :

الموقف العسكري وخطة الإنزال الألمانية :
أوعز المشير هيرمان غورنغ قائد سلاح الطيران، إلى (Oberkommando der Luftwaffe) قيادة القوة الجوية الألمانية بتكليف الأسطول الجوي الرابع بالتخطيط وتنفيذ عملية الإنزال في كريت. كلف الفريق الطيار ألكسندر لور الفيلق الجوي (11) بقيادة اللواء الطيار كورت شتودنت وحدات الإنزال والمظليين لتنفيذ الواجب. ومجموعة الأسراب القاصفة والمقاتلة (8) بقيادة اللواء الطيار ولفرام فون ريشتهوفن(لاحقاً المشير) لتولي حماية الهابطين ودعم عملهم بعد الهبوط. وعدا ذلك، كان على الجيش 12 في اليونان، والفرقة الجبلية الخامسة أن تكون على أهبة الاستعداد للتدخل تحت إمرة الفيلق الجوي 11،

وكذلك أن تكون الفرقة الجبلية السادسة في واجب الاحتياط، ولأن البحرية الألمانية ليس لديها وحدات بحرية مهمة في البحر المتوسط، طلب من البحرية الإيطالية أن تقوم بالمساعدة.

كانت خطة القائد لور تتمثل بالاستيلاء أولاً على عاصمة الجزيرة تشانيا والمطار الأكبر في الجزيرة ماليم، بواسطة جنود الإنزال (يهبطون بطائرات عادية أو شراعية) والجنود الهابطين بالمظلات، ثم التقدم نحو الشرق. والقائد شتودنت كان يرى ضرورة مهاجمة كافة الأهداف الهامة من الجو، ثم يتم احتلالها من الجنود الهابطين، ثم تتولى قوات الجيش من المشاة احتلال الجزيرة بأكملها. ولكن فرقة ريشتهوفن الجوية لم تكن تمتلك العدد الكافي لنقل القوة الكبيرة بالطائرات، لذلك تقرر التصرف على ضوء هذه الحقيقة، وبالنظر لأن القوة البحرية البريطانية كانت قوية وفعالة، اتفق على نقل القوات جواً إلى الجزيرة، ولكن الطائرات بدأت رحلات الاستكشاف وجمع المعلومات مبكراً. وبالفعل قامت البحرية الإيطالية بتقديم بعض صفحات حملة كريت بحرياً، بعد تأمين ميناء الإنزال في الجزيرة. ولكن حتى البحرية البريطانية صار تحركها محفوف بالمخاطر وقلّصت إمدادها لقواتها من 27.000 طن من المواد المهمة، إلى حوالي 3000 طن فقط.

والتخطيط لهجوم سريع وحاسم عبر المظليين وجنود القوات الخاصة المدربين تدريباً عالياً على استخدام الأسلحة الخفيفة ولكن بكفاءة عالية وسرعة حركة، وروح قتالية عالية. وكان بوسع الألمان زج 15.000 من جنود المظلات، في الفرقة الجوية السابعة، الذين كانت أولى مهامهم الاستيلاء على مطار، معززين بحوالي 14.000 من الفرقة الخامسة الجبلية، و700 من راكبي الدراجات النارية، التابعين للفرقة المدرعة الخامسة، تعزيزات أخرى ستلتحق عن طريق البحر، وكانت القوة مدعومة من 46 طائرة ألمانية، و16 طائرة إيطالية.

ومن أجل نقل هذه القوات إلى جزيرة كريت، كانت مسؤولية اللواء رودولف كونراد الذي كان قد أعدّ عشر مجموعات من الطائرات المقاتلة، بالإضافة إلى 550 طائرة نقل من طراز يونكرز 52 و60 طائرة نقل شراعية. ومن أجل تأمين خطة العملية كان هناك 280 طائرة قاذفة،، و180 طائرة مقاتلة، و40 طائرة استطلاع. وفي البحر كان هناك القوات البحرية مع سربين من البواخر وسفن دعم، وكانت البحرية الإيطالية بقيادة العقيد بحري بيكوري جيرالدي مشاركة بمدمرتين و12 قاذفة طوربيد، وعدة غواصات، وزوارق سريعة وكاسحات ألغام.

وكانت الاستخبارات العسكرية الألمانية تقلّل من أهمية أعداد الجيش المعادي (الحلفاء) ، وكان تقديرها أن على الجزيرة نحو 15.000 جندي بريطاني كحد أقصى، وعدد قليل من الجنود اليونانيين، وسكان الجزيرة غير معادين للألمان، والكثير منهم معادين للملكية، التي كانت على خلاف مع الحكومة السابقة، ولكن استطلاع الجيش 12 قدرت عدد القوات أكثر من الاستخبارات العسكرية، ولكنها قللت أيضاً من الرقم الحقيقي.

بعد المصادقة على خطة ميركور لاحتلال كريت، رأت قيادة الجيش الألماني استخدام أكثر لقوات الإنزال، وخلال التحضيرات للحملة على روسيا. ولهذا كان على الفرقة الجوية السابعة، مع قوات الجيش في الشمال، في الوسط والجنوب وتجري المناورة بالقطعات خلال سير العمليات.

وصلت العملية إلى ذروتها قبل الانزال نفسه، يوم 19 أيار، ما جعل القيادة البريطانية هناك تستعد للأسوأ، فاتخذت قرارها بأن ترسل الطائرات الإنكليزية الست التي كانت لا تزال مرابطة في كريت، إلى مصر، خوفاً من أن تدمر بدورها، كما حدث لنحو ثلاثين طائرة كانت مرابطة في اليونان دمرتها القوات الألمانية قبل أن يفكر الإنكليز باستخدامها.

وفي الخامس عشر من أيار / 1941 (بعد أيام فحسب من استكمالهم احتلال اليونان) بدأت القاصفات الألمانية تتولى قصف المناطق والمواقع المهمة في الجزيرة، وخاصة المواقع القليلة لمدافع ضد الجو(28 مدفع)، تأكد الألمان من إسكاتها، وبعدها بدأت أسراب طائرات نقل الجنود (500 طائرة من طراز يونكرز Junkers 52) بدأت تقذف بالجنود والعتاد وكما يلي :

مظلات وردية وليلكي للضباط.
مظلات سوداء للجنود وضباط الصف.
مظلات صفراء لرجال الإسعاف ووحدات الميدان الطبية.
مظلات بيضاء للذخيرة والعتاد.

كان ذلك يحدث بسرعة اشتهر بها الألمان بما يسمى الحرب الصاعقة (Blitzkrieg) إذ كانت المظلات الألمانية تنزل كالمطر الغزير فوق الجزيرة.

وفوق أرض كريت، وراح الجنود الألمان الهابطون المدربون بدرجة ممتازة يشكلون وفق تكتيكات حديثة غير مألوفة، وحدات صغيرة : ثمانية جنود لكل موقع ثقيل، ثلاثة جنود لكل رشاش خفيف، إضافة إلى القناصة الذين راحوا ينتشرون في أرجاء الجزيرة ويحدثون الموت والفوضى فيها.

الجزيرة كانت تضم وحدات مختلفة إضافة إلى قوات يونانية (11,451جندي يوناني بالإضافة لبعض المقاتلين المدنيين):
7000 جندي أسترالي
6,700 جندي نيوزيلندي.
15,000– 20,000 جندي بريطاني تقريباً.
المجموع على الجزيرة بريطانيا وحلفاءها 42,640 جندي ومسلح

وتعتبر عملية الإنزال في كريت من أنجح عمليات إنزال الجنود من الجو وقعت المعركة خلال الحرب العالمية الثانية، بدأت يوم 20 / أيار / 1941 العملية التي أطلق عليها (ميركور)، والجزيرة كانت بأيدي قوات يونانية وبريطانية ونيوزيلندية وأسترالية. سقطت في النهاية بيد الألمان.

فبعد التمهيد الجوي، تم الاستيلاء على مطار "مالام " الذي بدأ الألمان باستخدامه لإنزال النجدات المطلوبة ورغم أن القوات الإنكليزية كانت محرومة من الحماية الجوية أمام القاذفات الألمانية إلا أنها نجحت بإيقاع خسائر مهمة بين المهاجمين الهابطين بالمظلات والطائرات الشراعية. وفي الوقت نفسه توجهت نحو الجزيرة ثلاثة قوافل من السفن الألمانية عبر الدوريات البحرية الإنكليزية التي أرغمت إحداها على التراجع وأغرقت القافلتين الأخريين مع الخمسة آلاف جندي الذين كانت القافلتان تنقلانهم إلى الجزيرة. وفي كل حال استطاع النازيون أن ينقلوا نجدات متتابعة دون توقف إلى الجزيرة المحاصرة عبر مطار "مالام" الذي تم احتلاله كما مرّ ذكر ذلك .

بعد ظهر اليوم نفسه، وأمام تهاوي دفاعات الحلفاء، أنزل الألمان موجة ثانية من المظليين أكبر من الأولى. وعلى رغم الخسائر الضخمة التي منوا بها بالأرواح، تمكن الألمان عند نهاية ذلك النهار الأسود بالنسبة إلى الإنكليز من الاستيلاء على مطار ماليميه، وكان ذلك البداية الحقيقية لغزو كريت. ذلك الغزو الذي كان فاتحة حقيقية لبداية الغزو الألماني لشمال أفريقيا.

وبدأ التفوق الألماني يلعب دوره. واضطر الإنكليز للتراجع نحو شواطىء سباكيا في الجهة الجنوبية

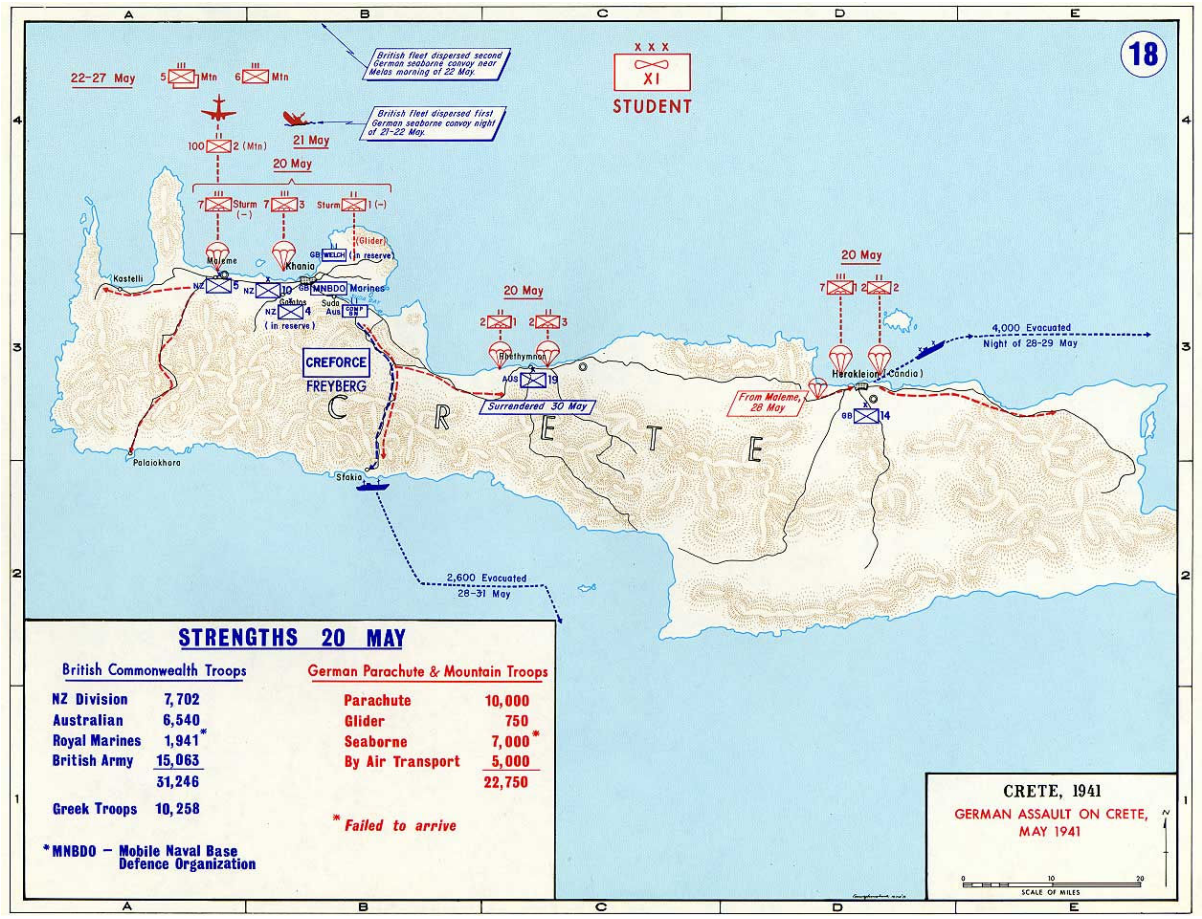

(خارطة الإنزال في كريت: الألماني اللون الأحمر، والحلفاء باللون الأزرق)

الغربية استعدادًا لمواجهة دنكرك ثالثة. وبين 28 ، أيار و1/ حزيران نجح الأسطول البحري الإنكليزي في ترحيل 1650 جندي ، تاركاً وراءه على أرض جزيرة كريت 3,500 قتيل وجريح و17,500 أسير. كما فقد الأسطول 2000 رجل وثلاثة سفن جوالة وطرادين وهو في طريقه إلى قناة السويس على بعد 600 كلم بسبب حرمانه من التغطية الجوية. كما استطاع الطيران الألماني أن ينزل الأضرار بدارعة واحدة وسفينتين جوالتين وثلاثة طرادات .(3)

هكذا أصبح الألمان خلال شهرين اثنين المهيمنين في يوغوسلافيا واليونان. بخسائر لا تتجاوز 2500 قتيل و9000 جريح أو مفقود. أما الانتصار في جزيرة كريت فقد دفعوا له ثمناً أعلى، طائرات كثيرة (والخسائر الألمانية على أرض جزيرة كريت 1915 قتيل، و1759 جريح، و2004 مفقود). ولكن منذ ذلك التاريخ أصبح في وسعهم أن يسيطروا على بحر إيجه وأن يهددوا أسطول كاننغهام البريطاني في المتوسط الشرقي. كما أصبحوا على مقربة من تركيا ومصر والشرق الأوسط . هكذا انتهى هتلر من بلاد البلقان بسرعة وببساطة تقريباً، وبدأ يفكر في احتلال روسيا.

ويقدّر الخبراء العسكريون أنه قد كان في وسع هتلر تغيير مجرى الحرب لو أنه تابع زحفه نحو الشرق الأوسط بدلاً من أن ينقضّ على روسيا ويبدّد قواه. إن النهاية كان يمكن أن تكون شيئًا آخر. وبينما كانت الجيوش الألمانية تنقض على يوغوسلافيا واليونان في شهري نيسان وأيار قامت حركات مؤيدة لألمانيا في العراق وإيران، بسبب تذمر السكان من السياسة الاستعمارية البريطانية. ولو أن الألمان تابعوا خطتهم ونجحوا في وضع أيديهم على تلك المناطق الشرق أوسطية لحرموا البريطانيين من موردهم البترولي

الرئيسي وعزلوا تركيا عزلاً تامًا ، والتي كان يحتمل آنذاك أن تعلن انضمامها إليهم . يضاف إلى ذلك أن مستعمرة الهند (مخزن الموارد البريطانية) ستصبح معرضة لخطر شديد فتنقطع طريق التموين التي تمر عبر الخليج العربي بإيران .

بيد أن الإنكليز والفرنسيين الأحرار(حكومة ديغول في لندن) لم يقفوا مكتوفي الأيدي . لقد استولوا على سوريا والعراق في شهر نيسان / 1941 وطردوا منهما أنصار المحور وأقاموا فيهما حكومتين مواليتين لهم . وفي شهر أغسطس، وبعد أن بدأ الهجوم الألماني على الاتحاد السوفيتي اشترك الروس والإنكليز في احتلال إيران، وطردوا الحكومة الموالية للنازيين وضمنوا سلامة طريق المواصلات المار عبر الأراضي الإيرانية صوب البلاد الروسية

التقييم العسكري للعمليات :
خلال تنفيذ هذا المشروع العسكري، ثبت أمران : الأول هو الأداء العالي للقوات الجوية الألمانية، والثاني هو الأداء الممتاز للبحرية البريطانية. وفي الختام فإن الفضل في نجاح العملية يعود للطيران الألماني، بحيث استطاع الإبرار بواسطة البحر ممكناً بعد موجة الهجوم الثالثة، ولم يعد ممكناً للأسطول البريطاني التقرب والقيام بعمليات إنزال أو إخلاء.

احتلال كريت بواسطة قوات المحور (ألمانيا ـ إيطاليا) أمنت الجناح الجنوبي الشرقي للهجوم الوشيك الوقوع على الاتحاد السوفيتي، ولكن مع ذلك لم يكن لاحتلال الجيش الألماني والإيطالي أية تأثير عسكري فعال في مسرح العمليات الحربية في هذه المنطقة. رغم أن أجزاء من الجزيرة ظلت حتى الاستسلام الألماني التام وغير المشروط في 8/ أيار / 1945 بيد القوات الألمانية وسرت عليها اتفاقية التسليم، ثم لعب توجه القيادة العسكرية الألمانية دور فيما يخص الحملة في شمال أفريقيا، والبحر المتوسط، الشرق الأوسط، إذ اعتبرت كساحات قتال جانبية.

وكان التخلي عن المقررات في نيسان / 1942 التي اتفق على تنفيذها في تموز، عملية هيركوليس (هرقل) في مخطط لاحتلال جزيرة مالطا، كانت تنتظر نتائج حملة كريت واحتلالها. وكانت أيضاً العملية الدموية التي اتصفت بها عملية احتلال كريت، عاملاً في التردد بل ومؤثراً على منهج الحرب الألماني، لذلك كان هناك لدى الحلفاء استبعاد أن تقوم ألمانيا بعمل مماثل في أفريقيا أو مكان آخر في البحر المتوسط (وخاصة مالطا).

حتى هذا الوقت كان الجيش الألماني يضع اعتماده في الحرب على فرقة جوية واحدة، وهي الفرقة 7 مظلات، وكانت هذه القوات تضم متطوعين، وعلى درجة عالية جداً من التدريب، والروح المعنوية، وفقد نصف جنوده في القتال ضد الجنود البريطانيين والأستراليين والنيوزيلنديين واليونانيين المدافعين عن الجزيرة، وبعد استخدامهم في كريت، تمت إعادة ترقيق الفرقة وإملاء نواقصها، وأعيد استخدامها في المواقف الحرجة، ولم تستخدم وحدات المظليين إلا بعد عام 1943، وشكلت وحدات مظليين جديدة، ولكن لم تتكرر استخدام الإنزال بالطائرات الشراعية بعد كريت مطلقاً. (4)

وعملية ميركور التي نفذتها القوات الألمانية لم تنجح إلا بخسائر عالية، والسبب في ذلك يكمن بأخطاء كثيرة في إدارة العملية:
وبالدرجة الأولى في إدارة القطعات بعد هبوطها.
والوقت القليل اللازم لإعدادها.
الخطأ الأكبر كان في بخس قيمة وقوة العدو،
الافتراض بأن السكان سيستقبلون الألمان بالترحيب.

بالإضافة إلى عامل مهم في العمليات الهجومية المتمثل بالمباغتة والمفاجأة. فقد كان الإنكليز والقوات المتحالفة معهم، ينتظرون الهجوم في أي لحظة، ولديهم المعلومات حولها.

في قتال الفيلق 11 هناك الملاحظات التالية:
ـ القوات البريطانية الأرضية على أرض جزيرة كريت، كانت أقوى ثلاثة أضعاف ما تصوره الألمان.
ـ كانت مناطق القتال على الجزيرة كانت قد أعدت بعناية فائقة، وبجهود مبذولة في تحضيرها كمواقع دفاعية.
ـ والمواقع (المحصنة) كانت مموهة بذكاء.
ـ معلومات ناقصة وضعيفة عن العدو قادت إلى خسائر عالية .

أعجب الحلفاء الغربيين كثيراً بالقوة القتالية للوحدات المظليين الألمان، وأمر رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل بالمباشرة في بناء وحدات بريطانية لوحدات الإنزال (جنود الجو)، ثم مارس الحلفاء فيما بعد عمليات إنزال كبيرة كالإنزال على جزيرة صقلية الإيطالية، والإنزال في نورماندي، والإنزال في بلجيكا / هولندة بالاسم الكودي (Market Garden) 17 / أيلول / 1944، كان بخسائر عالية (خسر الحلفاء أربعة أضعاف الألمان)، ثم في عملية إنزال أخرى، والإنزال الأكبر كان عملية (Varsity) 24 / آذار / 1945 (قبل نحو 40 يوماً من استسلام ألمانيا) للاستيلاء على جسور الراين في ألمانيا.

الخسائر :
تتفاوت المصادر، أحياناً تفاوتاً كبيراً في حجم خسائر الطرفين، وهي مسألة مألوفة تقريباً في الحروب، والأرقام أدناه بتقديرنا هي الأكثر دقة :

نجمت عن عملية ميركور (احتلال جزيرة كريت) خسائر عالية سواء في صفوف البريطانيين، أو بين المواطنيين المدنيين في الأرواح والممتلكات. القوات البحرية البريطانية تحملت خسائر في القتال أمام جزيرة كريت، ثم خاصة خلال عمليات الإجلاء: فقد خسرت ثلاث طرادات (غلوستر وفيجي وكلكتا) وستة مدمرات، (كيلي، غراي هوند، كشمير، هارفارد، إمبريال، جونو)، وأصيبت ست طرادات، وخمس مدمرات، وثلاثة سفن قتال، وحاملة طائرات واحدة أصيبت بأضرار، بعضها كانت إصابات قوية، قتل فيها 2000 بحار. سقط 5000 جندي بريطاني أو من جنود الكومنولث، في أسر القوات الألمانية، وتمكن عدة مئات منهم من الهرب. كانت خسائر الألمان 6200 جندي، بينهم 3714 قتيل، و2494 جريح، دفن جميع قتلى الجيش الألماني على أرض كريت. (5)

هوامش الفصل الرابع

1. للأهمية الاستراتيجية لهذه العملية نفرد لها فصلاً خاصاً.
2. العريس، إبراهيم: الألمان يستولون على كريت في طريقهم إلى ليبيا ومصر، الإنترنيت / تاريخ النشر:19/5/1998
3. دنكرك الأولى حزيران / 1940 في فرنسا، ودنكرك الثانية في اليونان أيار / .1941
4. استخدمت ألمانيا طائرات شراعية لنقل جنود الجو، تسحبها طائرات وتقلع بها إلى مسافة تكون في الطائرة في مجال حركة الريح، وتفلت السلك الرابط مع الطائرة الأم، وتمضي الشراعية صوب هدفها وتهبط في الهدف دون حاجة إلى مدرج طويل.
5. التاريخ العسكري للجيش الألماني / موقع على الإنترنيت

خامساً : مقاومة الشعب اليوناني للاحتلال

المقاومة هي رد فعل غريزي لكل شعب يتعرض لعدوان خارجي، وبهذا المعنى فالشعوب ليست بحاجة إلى محرض أو مشجع، فهي كالبدن الذي يهب لمقاومة الفايروسات الدخيلة، ودون طلب من صاحبه، بذلك يمكن وصفه تماماً برد الفعل الغريزي المناعي للتدخل الخارجي والعدوان والاحتلال.

(الصورة : مقاومون يونانيون)

المقاومون لا يمتلكون الأسلحة الفتاكة التي يمتلكها المعتدي، وقد لا يمتلكون تلك الأعداد الكبيرة لجيوش المعتدي، وبداهة لا يمتلكون التنظيم الدقيق لجيوش العدوان والاحتلال التي بها تمكنوا من قهر إرادة البلاد واحتلوها .. إذن على ماذا يعول المقاوم ...؟

المقاومة تعول على الشعب وحده، الشعب هو البحر الذي تسبح به المقاومة، هي تتحدث مع ابن البلاد بلغته، بل بلهجته المحلية، ويمتلك ذات الخصائص البدنية (لون البشرة، لون العين، والشعر)، والمعطيات الثقافية (اللغة، الدين، التاريخ)، والاجتماعية (لباس وتقاليد). سيحاول الأجنبي المحتل أن يقحم لهجة جديدة وتقاليد وثقافة ليقهر بها الوحدة الوطنية، ليدمر النسيج الذي لا سبيل لخرقه، ولكن هذه محاولات تفتقر إلى الأصالة، وتبدو زائفة واضحة للعيان، والأجنبي سيحاول كل جهده أن يجد من يتعاون معه، وسيوفق في مساعيه بدرجة ما بصعوبة أو بسهولة، فهناك دائماً في أي مجتمع ما يسمى قاع المجتمع، وحثالته، والطامحين عبر التزلف سواء للحكم المحلي الوطني، أو للأجنبي أن ينال ما لم يكن يحلم بالوصول إليه، أو من استطاع الاحتلال التغرير بهم، تحت أي ذريعة، ولكن في جميع الأحوال، الأجنبي يبقى أجنبي، والمتعاون في مرتبة وضيعة، يحاول التخلص والتملص منها.

والبلدان التي تتعرض للاحتلال من دولة أجنبية قد لا تتشابه في ظروفها الذاتية والموضوعية مع بلد آخر. فالظروف التاريخية والمرحلة وخصائصها، وطبيعة الظروف الداخلية والخارجية للبلاد ستلعب دوراً مهماً في معارك المقاومة وفي مصير البلاد ومستقبلها.

واليونان بسبب المعطيات الجيواستراتيجية (Geostrategic) أصبحت محط الأنظار والأطماع، فمن جهة تحاول بلغاريا اقتطاع أراضي منها (تراقيا) لضمها إليها، وتحالفت مع ألمانيا لتضمن لنفسها هذه الجائزة، أما إيطاليا، فأطماعها قديمة في اليونان، في المياه الإقليمية وفي الجزر في بحر إيجة والمتوسط، بل وصولاً إلى كامل الأرض اليونانية، تحقيقاً للحلم الروماني بسيادة حوض البحر المتوسط.

ودارت الأحداث بمحاولات توسع إيطاليا في الأراضي والمياه اليونانية، ففي يوم 28/ تشرين الأول / 1940، أنذرت إيطاليا / موسوليني اليونان بالاستسلام، ولكن الحكومة اليونانية رفضت ذلك، وعندما نشبت العمليات الحربية، كانت إيطاليا قد احتلت ألبانيا بصعوبة، وألحق الجيش اليوناني الهزيمة بالجيش الإيطالي في المعارك التي دارت على الحدود وداخل الأراضي الألبانية، وكان ذلك أول انتصار للحلفاء على المحور امتدحه رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل قائلاً " لن نقول أن اليونانيين يقاتلون كالأبطال، بل نقول، أن الأبطال يقاتلون كاليونانيين". وكذلك أبدى الجنرال شارل ديغول إعجابه بشجاعة اليونانيين. (1)

وكانت أولى علامات الحرب الأهلية (1946– 1949) قد ظهرت خلال فترة الاحتلال، بعجز الحكومة اليونانية الملكية من التصدي لواجب الدفاع عن الوطن، وخاضت القوى الشعبية المقاومة ضد الاحتلال (الألماني ـ الإيطالي)، وكانت أقوى تلك القوى والمنظمات (جبهة التحرير الوطني) وذراعها العسكري جيش التحرير الشعبي.

وقد ابتدأت المقاومة اليونانية ضد الاحتلال الألماني مع بدايات الاحتلال الإيطالي / الألماني على أرض الوطن والجزر وخاصة جزيرة كريت. ووقف اليونانيون مع جيش بلادهم وقاوموا الاحتلال الألماني لبلادهم وقاتلوه، فمن أجل تعزيز قوة الدفاع عن جزيرة كريت في الأسابيع التي سبقت الاحتلال، انتظم أعداد من المدنيين في ميليشيات، باشرت عملها فور بدء إنزال المظليين، كما انضمت أعداد أخرى من السكان المدنيين في القتال ضد القوات المهاجمة. وفوجئت القوات الألمانية بمشاركة السكان في القتال، وكان في تقدير الموقف العام، أن السكان ضد الحكومة، وسيرحبون بقوات الاحتلال، ثم أن قوات الاحتلال اعتبرتهم فدائيين وتعاملت معهم على هذا الأساس. وخلال سير العمليات الحربية، تعرض الجنود الألمان إلى هجمات من وحدات المقاومة، وخاصة تعرضوا لعمليات مستخدمين فيها التفجيرات أوقعت إصابات في صفوف الجيش الألماني، وأحياناً كانت قوات الحلفاء تقدم لهم الدعم.(2)

بمجرد قيام الجيش الألماني بالشروع باحتلال اليونان، شاعت روح مقاومة الغزو وفرض الأمر الواقع، وتشكيل مقاومة الشعب اليوناني: وكانت قوات موسوليني قد خسرت حرباً صعبة ضد اليونانيين على الجبال في الشمال الغربي من اليونان في يوغسلافيا وعلى الحدود الألبانية واليوغسلافية، وكان الجيش الألماني يستخدم وحدات عسكرية بلغارية التي تدخلت في مناطق تراقيا، ولكن ضعف الجيش اليوناني، وتفوق القوات الألمانية، وقدراتها التكنيكية، واستخدامه أسلحة حديثة، وقوات آلية، وبتكتيكات الحرب الخاطفة أرغمت الجيش اليوناني على الاستسلام في نهاية المطاف في 23 / نيسان / 1941 .

أنشأت سلطات الاحتلال الألمانية المؤقتة. بعد إتمامها احتلال البلاد، سلطات مؤقتة ووجدت من يتعاون معها، وسرعان ما هيمنت على جميع المفاصل الرئيسية في الاقتصاد اليوناني بأيدي متعاونين مع سلطة الاحتلال الألمانية، وكانت إيطاليا وبلغاريا قد احتلتا أجزاء كبيرة من اليونان. ولكن المناطق الاستراتيجية

المهمة، للاحتلال الألماني، بما في ذلك سالونيك مع المناطق النائية ومحيط أثينا، وكذلك بعض الجزر الهامة مثل كريت بقيت تحت سيطرتهم المباشرة.

أعطيت القيادات العسكرية: قائد "سالونيك إيجه" و"القائد في جنوب اليونان" اتخاذ إجراءات قوية ضد منظمات المقاومة، وحركة إيلاس كانت حزبية (شيوعية) (EAM-ELAS ومن أقوى المنظمات، وقام الجيش الألماني والكتائب الأمنية من السكان اليونانيين (المتعاونين). كسلطات احتلال بفرض نظام وحشي وما سمّي بإجراءات "الانتقام" مع النهب وإطلاق النار على الرهائن، وحرق قرى بأكملها. وقتل عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء، معظمهم من النساء والأطفال والمسنين، بوحشية بهذه الطريقة. انتهى الاحتلال في أكتوبر 1944 مع انسحاب القوات الألمانية من اليونان، ولكن حتى عام 1949 اندلعت حرب أهلية مدمرة. (3)

وموقف المقاومة، مثّل مفاجأة كبيرة للقوات الألمانية التي كانت تحسب موقفها السلبي من النظام اليوناني، مؤشراً على تعاون مفترض بعد الاحتلال، فظهر العكس وكان مفاجأة، اتخذت قوات الاحتلال ردود فعل عنيفة وانتقامية ضد السكان. ومن أجل الحفاظ على الروح المعنوية للقوات المهاجمة، أصدر الفريق شتودنت قائد قوات الهجوم الأمر التالي في 31 / أيار / 1941

" الآن حان الأوان للتصرف حيال الوقوعات التي تحدث وفقاً للخطة وممارسة العقوبات وفقاً للقوانين الجنائية، كوسائل ردع في المستقبل حيال مثل هذه الحالات. ونحن عازمون للضرب في هذا الاتجاه بشدة بالغة ".

وفي إجراءات الانتقامية وردت هذه الملاحظات:
ـ إطلاق النار.
ـ فرض الغرامة الحربية.
ـ إحراق البلدات (سابقاً كانت تستثنى الأموال المنقولة وغير المنقولة والحفاظ على السكان المسالمين).
ـ إبادة السكان من الذكور في كل المنطقة.
ـ من أجل تنفيذ الفقرات 3 ـ 4 أحتفظ لنفسي البلوغ إلى الحالة من أقصر الطرق (مع تبرير الأسباب). (4)

وقد قامت قوات الاحتلال بتنفيذ التعليمات بكل سرعة، وتجاوز كافة الشكليات وإهمال المحاكم الخاصة، وفي كل حال فالقوات هي من يقرر، وليست المحاكم المحلية. وغير مسؤولين عن أي من الحالات حتى تلك التي تنطوي على إجرام. هذه الإجراءات التي أمر بها الفريق الطيار شتودنت، كانت تنطوي على معاني في القانون الدولي للحرب، ولا تسمح للأعمال الانتقامية، بل جرائم حرب، ولكن حتى بعد نهاية الأعمال القتالية في كريت تم في 2 / حزيران/ 1941 وبناء على أوامر من الملازم أول هورست تريبس في منطقة كوندوماري إعدام عدد غير معروف من المدنيين الذكور، في النصب التذكاري للحادثة هناك 23 اسماً.

بينما كان القتال ما يزال دائراً، وكما أمر اللواء رينجل (الألماني) أن في يوم 4 / حزيران، أن على الفرقة الجبلية الخامسة، أن يطلقوا النار على عشرة من السكان مقابل كل جندي ألماني يُقتل، إضافة إلى إحراق بيوت الفلاحين والقرى التي صدرت منها رمايات باتجاه القوات الألمانية، وتؤخذ منها الرهائن..

وبسبب مقاومة السكان خلال الغزو، تمّ تأسيس منظمتين خاصتين تتعاون مع الأمن العام الألماني، تنظم قوائم البحث وتنفذ الأحكام القضائية بحق من اعتقلتهم الفرقة الجبلية الخامسة، وبموجبها حكم على 110 شخص بالإعدام رمياً بالرصاص، وبعدها 39 شخصاً. وبسبب المقاومة اضطرت القوات الألمانية لأن

تضع 50,000 ألف جندي ألماني يتمركز على أرض جزيرة كريت، وبسبب أعمال المقاومة أعدم الألمان أكثر من 200 شخص.

وإجمالاً فإن مجموع من قتل من السكان المدنيين على جزيرة كريت منذ هزيمة الحلفاء (والإنكليز وحلفائهم) منذ بدء الاحتلال حتى نهاية الاحتلال عام 1945 وهزيمة قوات المحور (الألمان وحلفائهم)، نحو 8575 وهو عدد كبير قياساً إلى عدد سكان الجزيرة الذي لم يكن يتجاوز 200 ألف نسمة في ذلك الوقت.
وفيما اهتم الألمان بمناطق أثينا وتيسالونيكي، أعطيت مناطق أخرى من البلاد لشركاء ألمانيا، إيطاليا الفاشية وبلغاريا. وأدى الاحتلال إلى معاناة فظيعة للسكان المدنيين اليونانيين. توفي أكثر من 100،000 مدني بسبب المجاعة خلال شتاء 1941-1942، بسبب سوء الإدارة الاستعمارية، وسيق عشرات الآلاف إلى معسكرات الاعتقال النازية السيئة الصيت.

ونشطت المقاومة اليونانية، التي وصفها العديد من المؤرخين والسياسيين، بكونها واحدة من المقاومة الأكثر فعالية في أوروبا، قاتلوا بقوة ضد المحتلين والمتعاونين معهم. وقد ارتكب المحتلون الألمان العديد من الفظائع والإعدامات الجماعية. وفي سياق حملة مكافحة العصابات المتضافرة، تم حرق مئات القرى بشكل منهجي وتشرد ما يقرب من 1،000،000 يوناني. وأعدم 21,000 يوناني على يد الألمان، و40,000 على يد البلغار، و9000 على يد الإيطاليين، ليكون المجموع نحو 70,000 مدني يوناني فقد حياته.

وكتقييم عام للعملية الألمانية في اليونان، يستفاد من جريدة الحرب الألمانية الحديثة (تاريخ عمليات الجيش الألماني) (Bundesheer Operation Kreta 1941) في صفحات طويلة ومفصلة، دور كل وحدة، وواجباتها ومنجزاتها، وكل قائد وحدة، ومفصل العمليات التي خاضتها بدقة مدهشة، وبقراءة شاملة واستنتاجات، أن الجيش الألماني كقيادة عليا، وقيادة العملية رغم أنها كانت بيد أهم قادة الجيش الألماني (الفريق طيار شتودنت، لاحقاً المشير) إلا أن القيادة العامة وقيادة الفريق شتوندت كانا على درجة كبيرة من الخطأ في تقدير الموقف لجهات عديدة :
ـ اعتقادٌ ساد أن الحملة ستكون سهلة، لضعف الجيش اليوناني، والوحدات البريطانية ضعيفة عامة .
ـ اعتقادٌ ساد لدى القيادة أن هناك عداء بين الشعب والنظام الملكي، لذلك رجحت أن المقاومة الشعبية ستكون معدومة.
ـ بالغت القيادة الألمانية بحجم القوى المتعاونة معها من اليونانيين.
ـ لم يكن الجيش الإيطالي ذلك الحليف الذي يُعتمد عليه، لضعف قياداته وتسليحه، ومعنوياته، وكان واجب الجيش الألماني إنقاذ الإيطاليين في عملياته في : ألبانيا، يوغسلافيا، وأخيراً اليونان، ولاحقاً في تونس وليبيا. (5)

وفي العمل السياسي وفي مضاعفاته، هناك ما يمكن اعتباره مأزق، ولكن الذكاء هو في تحويل المأزق إلى مكسب، والألمان لم يكونوا بغافلين أن الحليف الإيطالي متعب، ولكنه ضروري في قارة تعج بذئاب استعمارية قديمة (بريطانيا و فرنسا) وبعملاق ينهض بجبروت (الاتحاد السوفيتي) فبدت إيطاليا صديقاً ودوداً يتشابه في المطامح ولا يتناقض معه في القارة، لذلك القيادة الألمانية كانت تضع أهدافاً ثانوية مع حليفها، وبتقديرنا، أن أحد أهم تلك الأهداف هي إطلالة النمسا على البحر (إقليم تريستا) الذي انتزع منها وأصبحت النمسا بلد داخلي لا يطل على بحر، وهذه حسابات مرجئة ودخول الجيش الألماني إلى ألبانيا ويوغسلافيا واليونان سوف لن يكون مجاني في نهاية المطاف.

بعد نهاية الحرب وهزيمة المحور (ألمانيا ـ إيطاليا ـ اليابان)، ضمت اليونان جزر دوديكانيس من إيطاليا واستعادت تراقيا الغربية من بلغاريا. لكن البلاد انحدرت بسرعة تقريباً إلى حرب أهلية دامية بين القوات

الشيوعية والحكومة اليونانية المناهضة للشيوعية، والتي استمرت حتى عام 1949. أدى الصراع بتدخل غربي واسع (بريطانيا والولايات المتحدة) إلى هزيمة القوى الاشتراكية، تعتبر واحدة من أقدم نضالات الحرب الباردة، في الدمار الاقتصادي علاوة على ذلك، النزوح الجماعي للسكان والاستقطاب السياسي الحاد في السنوات الثلاثين المقبلة.(7) (6)

وكانت محاولات سلطات الاحتلال من الجيش الألماني / الإيطالي، والكتائب الأمنية من السكان اليونانيين المتعاونين لقمع حركة المقاومة من خلال فرض عقوبات وإجراءات وحشية فيما أطلقت عليه إجراءات انتقامية، بما في ذلك نهب ممتلكات المواطنين وإطلاق النار على الرهائن والمدنيين العزل وحرق القرى. وسقط فيها عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء- معظمهم من النساء والأطفال والمسنين - قتلوا بوحشية بأساليب متوحشة. انتهى الاحتلال في أكتوبر 1944 مع انسحاب القوات الألمانية من اليونان، ولا تزال الحكومة الألمانية ترفض التعويض الشامل لضحايا القوات المسلحة في اليونان، فهناك مصادر تفضّل ذكر المقاومة الناجحة للجيش الإيطالي , وأقل من ذلك بالنسبة لقوات الاحتلال الألماني , ربما بسبب أن الحرب الأهلية بعد الحرب أقل في خسائرها من المقاومة خلال الحرب .
وفي ألمانيا لايزال هناك من يحاول التقليل من شأن جرائم الجيش الألماني والتقليل من شأنها مقابل المبالغة في الحرب الاهلية وخسائرها , لذلك ذكرت صحيفة "دي فيلت" الألمانية في صيف عام 2008 ضرورة إعادة تقييم مكتب البحوث والجرائم الألمانية. (8)

وبنهاية الحرب الأهلية عقب التدخل الغربي الواسع النطاق، اتجهت الحكومة بتشجيع من الغرب فانضمت لحلف الناتو، واندغمت في استراتيجية الغرب، ثم انضمت للسوق الأوربية والاتحاد الأوربي لاحقاً، وانضمت إلى معاهد منطقة اليورو.

هوامش الفصل الخامس

1. Dictatorship, World War II, and reconstruction
Geschichte der 2 Weltkrieg , Wiederstand der Bevölkerung gegen die Deutsche Besetzung
3. Sophia Georgallidis: Die deutsche Besatzung in Griechenland und der : Widerstand des griechischen Volkes.

4. ربما يقصد الأمر أن تنفذ هذه الفقرات بمعرفة القائد الشخصية
Bundesheer 5. Operation Kreta 1941
6. (Truman Doctrin) هو مبدأ سياسي أصدره الرئيس هاري ترومان في 12 / آذار / 1947 وقد صدر هذا المبدأ بناءً على مفردات الصراع في اليونان، وينص على : " حين يهدد العدوان سواء كان مباشراً أو غير مباشر، أمن الولايات المتحدة الأمريكية وسلامتها، فعندئذ يكون لزاماً على الحكومة الأمريكية أن تقوم بعمل ما لوقف هذا العدوان ".
7. الحرب الأهلية اليونانية (Civil War) دارت بين الحكومة اليونانية التي تأسست بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وكانت موالية للغرب حسب اتفاقات مؤتمر يالطا 1945، وبدعم مباشر من بريطانيا والولايات المتحدة، وبين الجيش الديمقراطي اليوناني(الفرع العسكري للحزب الشيوعي اليوناني) بدعم من يوغسلافيا وبلغاريا وألبانيا، أسفرت عن هزيمة الثوريين اليونانيين. وكانت الحرب الأهلية نتيجة لصراع قوى اليسار واليمين، وهذه الحرب كانت أولى ظواهر الحرب الباردة التي بموجبها أصدر الرئيس الأمريكي ترومان مبادئه (Truman Doctrin).
8 Dictatorship, World War II, and reconstruction.

مجموعة المقاومة الألمانية " الوردة البيضاء "

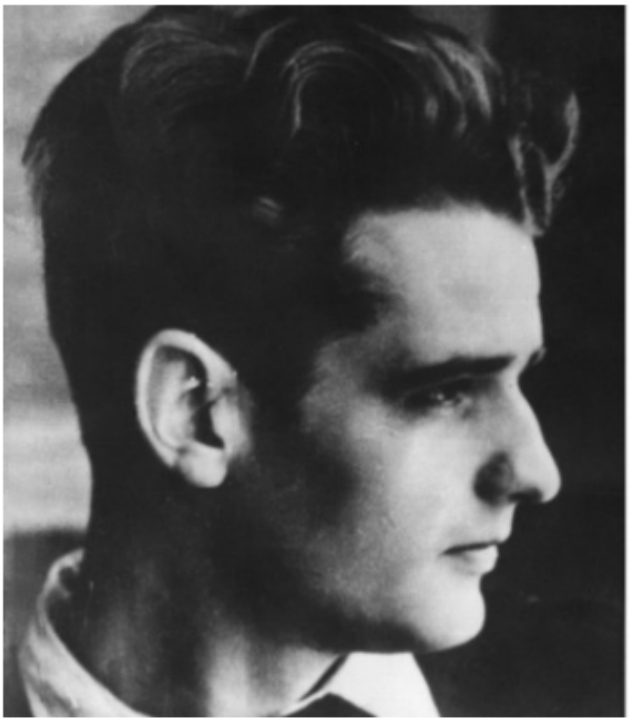

ترجمة

د. ضرغام الدباغ

مجموعة المقاومة الألمانية " الوردة البيضاء "

مجموعة الأشقاء شول

تحرير : أوتو لانغلز ، Otto Langels
ترجمة : ضرغام الدباغ
نشرة الإذاعة الألمانية
بتاريخ : 18 / شباط ـ فبراير / 2018

تمهيد
لم يكن الشعب الألماني بأسره مؤيداً للنازية وقائدها هتلر. صحيح أن هتلر وصل السلطة عن طريق انتخابات ديمقراطية، وبأغلبية مريحة مكّنته من تشكيل حكومة تحت هيمنة الحزب الذي بموجبه أصبح قائده أدولف هتلر مستشاراً (رئيس للوزراء) للرايخ الألماني الثالث، ولكن ذلك لم يكن ليتم إلا من خلال فوضى عارمة سياسية / اقتصادية / اجتماعية عاشتها ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى 1918، وحتى 1933، وهو العام الذي جرت فيه الانتخابات البرلمانية التي فاز بها الحزب النازي، بسبب التناقضات العميقة التي مزقت الحياة السياسية تحت ظلال الأحكام القاسية لاتفاقية فرساي (28 / حزيران / 1919) والتي كان ظلمها وإجحافها السبب الرئيسي لفوز الحزب النازي الذي كان يعد بتخليص الأمة الألمانية من ظلم اتفاقية فرساي، وبالتالي قادت إلى الحرب العالمية الثانية.

بيد أن القوى المناهضة للنازية، صممت على مواصلة رفع لواء المعارضة، وهي بدرجة أساسية : الحزب الشيوعي الألماني، والحزب الاشتراكي الديمقراطي، إضافة إلى شخصيات وجماهير مستقلة كان ترى في النازي شراً مستطيراً سيلحق الدمار بألمانيا، وقد تحقق فعلاً ما كانت هذه القوى تحذر منه.

ولكن هذه الحركات والأحزاب والشخصيات الوطنية التي ناضلت بشكل مستقل ومتفرق، وأحياناً ضمن مجاميع صغيرة، قدمت الضحايا في سبيل معتقدها، من تلك المجموعة التي نأتي على ذكر تاريخ نضالها، ونهاية أبطالها على يد آلة القمع النازية. البطلة صوفي شول وشقيقها هانز شول، وصديقهما ألكسندر شموريل وآخرون، الذين وبعد محاكمة سريعة حكم على ثلاثة منهم بالإعدام بواسطة المقصلة، بتاريخ 18 / شباط ـ فبراير / 1943.

(الصورة : الطابع البريدي الألماني يخلد ذكرى مجموعة الوردة البيضاء)

الرابط أدناه لفلم الوردة البيضاء
https://www.youtube.com/watch?v=8YI7SJoURVs

مقطع آخر من فلم مماثل

https://www.youtube.com/watch?v=wybS7FfqupM

(الصورة : النصب التذكاري لضحايا الوردة البيضاء في مدينة ماربورغ ـ تاننبيرغ)

مجموعة الوردة البيضاء

المجموعة أطلقت على نفسها اسم " الوردة البيضاء " وهي تتألق من صوفي شول، وشقيقها هانز شول، وصديقهما ألكسندر شيموريل، وكريستوف بروبست وفيلي غراف. الذين كانوا في أواسط عام 1942 قد اتفقوا بالعمل بنشاط ضد نظام النازي من خلال العمل الدعائي ضد الحرب وجرائم النظام النازي بتوزيع المنشورات، وكان آخر منشور وزعوه بتاريخ 18 / شباط ـ فبراير / 1943.

وتتذكر إنجى شول (شقيقة الأبطال) دون كلل في ما بعد الحرب، فعاليات الاحتجاجات لشقيقتها وشقيقها، هانز وصوفي. وكانوا ينتمون لمنظمة من الطلبة الشباب، الذين اتخذوا من اسم " الوردة البيضاء " اسم بمنظمتهم لمقاومة النظام النازي. هانز وصوفي شول الذين ولدا عام 1918 / 1921 على التوالي، ينحدارن من أسرة برجوازية متحررة (ليبرالية)، وترعرعا في الرايخ الثالث كأسرة مسيحية. (1)

" وفي هذا الوقت كانت المسيحية تلعب دوراً هائلاً، إذ لم يعد هناك ما يكفي من إنسانية ومفاهيم العدالة من جل الصمود والمثابرة وهنا يحتاج المرء إلى إيمان قوي، وهذا ما كنا نحن بحاجة له".
" ولكن ذلك لم يكن ليعني بطبيعة الحال، أن التعليم كان يتم في بيت الوالدين منذ البداية ".

ويوضح المؤرخ فولفغانغ بينز المدير لسنوات طويلة لمركز برلين للدراسات والبحوث المعادية للسامية.

وكان كل من صوفي وهانز معجبان في الشبيبة الهتلرية، وكانا طبيعيان جداً ومعجبان بالحزب الوطني الألماني (النازي) وبالشباب وفيما بعد بدأت أعينهم تتفتح. فقد كانا طفلان قد تربيا في أفضل البيوت، في تربية برجوازية، وقد تلقيا تربية جيدة، وتعليماً ممتازاً وكان لديهما المقدرة الاجتماعية على إبداء المودة للآخرين.

والتالي كان في تقبل مصطلحات النازية

في البدء كان كلاهما متقبل للدعاية النازية في الحديث عن المجتمع الوطني الموحد، والعلاقات الرفاقية، ولكنهما أشاحا بوجهيهما عن الحزب النازي مبكراً. وقام هانز شول عام 1936 بتأسيس الطائر الحر مجموعته الشبابية الخاصة، واعتقل لفترة قصيرة عند الجستابو(البوليس السري)، لأنه أظهر ميول شاذة مع صديق له، ولكنه كان محظوظاً عندما قيمت المحكمة الخاصة هذه العلاقة " طيش شبابي "، وأطلقت سراحه.

وفي عام 1939 بدأ في دراسة الطب في جامعة ميونيخ، وهناك حيث التقى الطالب ألكسندر شموريل، وكريستوف بروبست، وفيلي غراف. والأصدقاء الأربعة كانوا يدرسون الطب، وكذلك صوفي شول، (شقيقة هانز شول) التي كانت بعد أن أنهت تدريباً في مجال رياض الأطفال في ميونيخ، اتجهت لدراسة البايولوجي والفلسفة. وشكّلوا نواة منظمة " الوردة البيضاء "، ثم انضم إليهم المدرس الجامعي كورت هوبر، وكانت المجموعة تناقش قضايا فلسفية وسياسية. وانضم إلى المجموعة لاحقاً يورغن فيتنشاين، زميل دراسة لألكسندر شموريل.

ولم تكن منظمة " الوردة البيضاء" أكثر من مجموعة من الطلاب الجامعيين الذين لهم اهتمامات متشابهة، وبصفة أساسية في الثقافة، والموسيقى، والفن، والأدب، والفلسفة، يلتقون معاً ويتحدثون عن هذه القضايا والمشكلات، ولكن حتى بداية الحرب لم يكونوا أكثر من أصدقاء لهم اهتمامات متشابهة.

من الحرب إلى الانتفاضة

وقد تشكلت مجاميع محيطة بالجمعية " الوردة البيضاء " تتألف من طلبة المدارس المؤيدين الذين تتراوح أعمارهم بين 17 – 18 عاماً، وبعضهم كانوا أصدقاء لسنوات طويلة، وهذه البيئة المحيطة يمكن اعتبارها ووصفها اليوم بالمتعاطفين وكانوا لهم بمثابة الداعم اللوجستي (الإداري)، وفي مجرى الحرب العالمية الثانية تجذرت انتقادات المجموعة الموجهة إلى النظام النازي.

ويقول المؤرخ فولفغانغ بينز " تكاثف فيما بعد الموقف المعارض وصولاً إلى الانتفاضة، وبعد الخدمة في الجبهة الشرقية (مع الاتحاد السوفيتي) الذي قام به هانز شول وأصدقاؤه كجنود مساعدة طبية، أصبح واضحاً لهم كيف اندلعت هذه الحرب، وبهذا وجدوا أنفسهم في المعارضة والمقاومة ".

" وعندما علمنا ذلك، كيف جرت الأمور وحدثت، وما جرى لليهود، وما حدث لبولونيا، كيف جرى التعامل مع أسرى الحرب، كان يتضح لنا المزيد من الحقائق، وفي وجوب إزاحة هذه الحكومة ".

يتذكر يورغن فيتنشتاين (زميلهم). في عام 1942 بدأت المجموعة بالاحتجاجات العلنية. ففي 27 / حزيران ظهر العدد الأول من النشرة، كان قد أعدها هانز شول، وألكسندر شموريل، استنسخت بعد ذلك قليل من النسخ، ووزعت بواسطة البريد، إلى عناوين الأشخاص المعروفين من قبلهم.

" هو لا شيء أكثر من شعب لا يستحق الاحترام، يسمح لنفسه أن يحكم من قبل زمرة لا تمتلك الشعور بالمسؤولية، وظلامية التفكير ولا يبادر للمقاومة وكنا ندرك مدى الخزي، الذي يصيبنا عندما كانت الستائر تسقط أمام أعيننا، والجرائم الفظيعة التي تجاوزت كل الحدود، التي كانت تجري في ضوء النهار، نحن نرجوكم أن تستنسخوا هذه النشرات بأوسع عدد ممكن، وبالتالي أن يجري توزيعها.

يورغن فيتن شتاين : " لم يكن بوسع المرء الذهاب إلى دائرة البريد وشراء 100 طابع، لماذا يحتاج شخص اعتيادي 100 طابع ؟ وكان الحصول على جهاز ناسخ، كان غير ممكن، ما لم يكن بدرجة ووظيفة رسمية. ولهذا السبب كانت النشرات الأولى تطبع على الآلة الكاتبة، وباستخدام أوراق استنساخ (كاربون) لكل ست أو سبع صفحات.

القتل الجماعي لليهود ابتدأ بوقت مبكر

كانت النشرات تتسم بالثراء الثقافي، وتضم مقتطفات من أقوال يوهان غوته وفردريك شيللر، وموجة إلى المشاعر المحتشمة والأخلاقية وتنادي إلى الانتفاضة ضد النظام الظالم، ويقول المؤرخ فولفغانغ بينز :

" أعداد الطبعات كانت قليلة، وإذا تصور المرء أن هذه النشرات كانت طبعت بوسائل بسيطة، وبنحو 100– 120 نسخة من كل منشور، كانت أوراق الاستنساخ (الكاربون) تتعرض للتلف بعدها، والنشرات كانت صغيرة الحجم تتعدى المئات ".

" النشرة رقم 2 تضمنت أن 300،000 ألف شخص في هذا البلد قد قتلوا بطرق وحشية ".

فرانز جوزف مولر، الشخصية المعروفة، والتي كانت تدعم الأخوين شول من بلدة أولم، كتب بعد سنوات من نهاية الحرب، ونقل نصوصاً من نشرات " الوردة البيضاء " عن وضوح فكر المجموعة. وقد سبقوا في ذلك سواهم من مجاميع المقاومة، كانت مجموعة الوردة البيضاء قد تحدثت عن الإبادة البشرية، وقد شخّصوا وذكروا بدقة القتل الجماعي الذي يتعرض له اليهود .

" أيها الألمان، هل تريدون لكم ولأطفالكم أن تعانون نفس المصير الذي حدث لليهود ؟ ومن هذا يستنتج .. قرروا ذلك بأنفسكم فوراً، مزقوا عباءة اللامبالاة وإلا فأن المصيبة ستحل بكم ".

وكان من بين من أبدى المساعدة في بلدة أولم، إلى جانب فرانتز جوزيف مولر، سوزانا هيرتسل التي تقول : " كنت قد تعرفت على صوفي شول منذ أن كانت في الرابعة عشر من عمرها، وكنا أصدقاء حتى النهاية ".

فرانز جوزيف مولر " كنت قد تعرفت على صوفيا شول وشقيقها هانز شول برؤيتهما، هانز شول كنت قد تعرفت عليه من خلال الشبيبة الهتلرية، ولكنه كان شيئاً آخر ".

سوزانا هبيرتسل " لقد قالت، ينبغي فعل شيء، وإلا فإني سأكون مذنبة أيضاً، ثم أنها حكت لي أنهم سيطبعون المنشورات، وأنهم سيقومون بتوزيعها ".

فرانتز جوزف مولر " صوفيا شول كانت زميلة صفي في الدراسة وهانز هيرتسل هو من جلب النشرات، وكمية كبيرة منها، من ميونيخ، وسأل فيما إذا كان بوسعه أن يوزعها، وهانز سألني فيما إذا كنت سأساعده في ذلك وأشاركه التوزيع، حينئذ قلت له .. نعم كيف وماذا ..!".

فرانز جوزيف مولر كان في ذلك الوقت شاباً في الثامنة عشر من عمره، بحث عن ظروف رسائل من مكتب والده، ثم قام هو وهانز هيرتسل وهو شقيق سوزانا هيرتسل، وابن لرجل دين (قس) من مدينة أولم، بالبحث عن مكان مناسب يتمكنان فيه من توزيع المنشورات دون خطورة .

" ثم قال أنهما يستطيعان فعل ذلك بوضع النشرات خلف الأورغن في كنيسة مارتن لوثر. وهناك أيضاً لدينا آلة طباعة قديمة وهو سيقوم بالكتابة وأنا أملي عليه النص، وهنا أيضاً كانت سوزي هيرتسل قدمت مساعدة لنا، وكان لديها كتاب يحتوي على عناوين كانت قد جلبته من شتوتغارت، ولا نعرف كم أعددنا من رسائل، ولكن ينبغي أن أقول بحذر، أنها كانت بضعة مئات ".

" النشرة رقم 4 كانت تضم إحصاءات القتلة، هتلر أو غوبلز، لم يكونا يعرفان كم من القتلى يسقط في روسيا، إنه زمن الحصاد، والحصاد يحمل بعربات القطار، في المدن النائمة، يخيم الحزن على الأكواخ، ولا أحد هنا ليمسح دموع الأمهات ".

" في وقت ستالينغراد، حلت ساعة الحسم ".

يورغن فيتن شتاين عضو جماعة الوردة البيضاء يقول :
" إن القرار الداخلي الذي اتخذناه والذي ناقشناه مع بعضنا بالطبع، أن الأسلوب والطريقة الوحيدة التي يمكن بها إنقاذ ألمانيا، وفيها خسارة للحرب، كان قراراً فظيعاً ولم يكن من السهل اتخاذ هذا القرار".

" النشرة رقم 5 جاءت حين اهتز شعبنا بسقوط 330,000 الرجال الألمان في ستالينغراد، واهتزت معها الاستراتيجية العبقرية للحرب العالمية التحريرية، وبدون شعور بالمسؤولية والموت والخراب يرددون أيها الزعيم نشكرك ..! ".

نداءات لم تجد صداها ..

وما كانت المجموعة تأمله بعملها ونضالها من التحقق السريع، لم يحدث. فالألمان لم يثوروا ولم ينتفضوا ضد هتلر والنظام النازي، بل واصلوا هتافهم لهتلر، وفي هذا يقول فولفغانغ بينز :

" لم تجد المجموعة نتائج فورية لعملها، ولم يكن لها صدى، ولم تقفز إلى مستوى مقبول، في قلوب زملائهم الطلبة الألمان ".

ومن أجل توسيع نطاق العمل، قام هانز شول وشقيقته صوفي ومناضلين آخرين بكتابة شعارات على جدران مدينة ميونيخ، ولا سيما في محيط جامعة ميونيخ. وكانت شعاراتهم ...

" يسقط هتلر .... هتلر قاتل شعوب ....! الحرية ...!

ومن الفعاليات الأخيرة تلك التي حدثت في شباط ـ فبراير / 1943، طبعت مجموعة الوردة البيضاء نشرتها 6 والأخيرة، طبعت من قبل كورت هوبر، وكان عدد نسخ النشرة 2000 نسخة.

" أيها الشعب الألماني : هل سنواصل المماطلة في مصير جيوشنا ؟ هل نريد نمنح ما تبقى من الشباب الألماني إلى أيادي سلطة منحطة من عصابة الحزب ... لا لن يكون هذا ..!

ـ توزيع النشرات، العمل الخطير

في 18 شباط وزّع هانز وشقيقته صوفيا آخر النسخ في المبنى الرئيسي لجامعة ميونيخ. وعن هذا يقول فولفغانغ بنز :

" والنشرة الأخيرة جرى توزيعها خلال أجواء التخوف والترقب داخل قاعات المحاضرات والممرات، وهانز شول وشقيقته صوفي في غمرة الحماس والشجاعة الشبابية، فكرا أن يقذفا ببقية النشرات من الطابق الثاني في باحة الجامعة، وهو ما كان سهلاً على الموظفين والعالمين في الجامعة تجميعها. وقد أغلقت بعد هذه الحادثة كافة أبواب الجامعة. وقد ألقى بواب الجامعة القبض على هانز وشقيقته، وسلمهما للبوليس السري (الجستابو).

وهنا عثر الجستابو على مسودة / نص قد كتبها زميلهم في المجموعة كريسوف بروبست، فألقي القبض على هذا أيضاً، وبعد استجوابات (تحقيق) طويلة اعترفوا بفعاليات المقاومة التي قاموا بها. أمر أدولف هتلر بتقديمهم للمحاكمة. وعين رولاند فرايزلر رئيساً للمحكمة، وقد سافر على التو من برلين إلى ميونيخ في 22 / شباط، ليرأس محكمة الشعب التي افتتحت وبدأت بأعمالها. وكانت لائحة الاتهام تتضمن " خيانة الوطن لمصلحة العدو، والتحضير للخيانة العظمى وإلحاق الضعف بالقوات المسلحة البلاد ". وكان والد ووالدة شول، بين من حضر لمشاهدة جلسات المحكمة. وعن ذلك كتبت شقيقتهم الأخرى أنجي شول، بعد أن انتهت الحرب :

" وعندما سمع والدي أن محامي الدفاع (عينته المحكمة) قد فشل كلياً وقبل أن تمنح المحكمة والدي الحق، نهض وحاول الدفاع عن أولاده (هانز وصوفي) وهنا قوطعت كلمته، وأمر الحاكم بإخراج والداي من قاعة المحكمة. ".

ـ الحكم صدر : الإعدام بالمقصلة (الجيلوتين)

يقول فولفغانغ بنز : قرار الحكم على أفعال الوردة البيضاء لم يستغرق إلا ساعات قليلة، بعدها اجتمعت هيئة محكمة الشعب، ثم قرأت قرار هيئة الادعاء ولائحة الاتهام كانت قصيرة وغاضبة ومليئة بالشتائم والإهانات. وكان ذلك وأقول حرفياً أنها كانت أقصر مرافعة يمكن القيام بها. وقرار الحكم كان بالطبع أيضاً قوياً وواضحاً وجرى تنفيذه فور قراءة الحكم. وعندما كان الوالدين شول يحاولان العمل على تهيئة محاولة للعفو، في مساء اليوم الذي تمت فيه المرافعة، لم يكونا يعلمان أن ولديهما هانز وصوفي قد تم بالفعل تنفيذ حكم الإعدام بهما. ". (2)

هانز وصوفي شول، وكذلك رفيقهما كريستوف بروبست، توفوا بعد تنفيذ حكم الإعدام فيهم بواسطة المقصلة في السجن الجنائي بمدينة ميونيخ.. كانت أعمارهم على التوالي 21، 23 ، 24 سنة. وكان رولاند فرايسلر السيء السمعة الذي اشتهر فيما بعد كرئيس للمحكمة التي حكمت على الشبان الثلاثة، يدرك مدى الجدية التامة التي كان النظام النازي حيال قضية الوردة البيضاء، والخشية والقلق من اتساع حركة الاحتجاجات ومجموعات المقاومة في صفوف الطلبة. قلق غير ضروري، وهذا ما كتب عنه فولفغانغ بينز :

" بعد صدور الحكم، كان هناك حفل في جامعة ميونيخ، وفيها تم تكريم الحارس الذي أمسك بهانز وصوفي شول، وسلمهم للجستابو (البوليس السري)، وكرم كبطل ورفع الطلاب أذرعهم تحية له. وأمر الطلاب بأن يظهروا اشمئزازهم مما فعله زملاؤهم السابقين، إذن فهم لم يعودوا طلاباً، وعندما أدينوا

وكذلك مدرسيهم والبروفسور كورت هوبر، الذي خلعت مرتبته العلمية (دكتور)، ولقبه العلمي (بروفسور) على الفور. ".

الحلفاء وإذاعة (BBC) تعلق على حركة الوردة البيضاء المقاومة :

كورت هوبر، وألكسندر شموريل، وفيلي، أدينوا في محاكمة ثانية أمام محكمة الشعب في نيسان / 1943 في محكمة أخرى، وأعدموا أيضاً. وفي هذه المرافعة جلس أيضاً فرانتز جوزف مولر، وهانز وسوزانا هيرتسل، في قفص الاتهام. وتقول سوزانا هيرتسل :

" لقد اعتُقلت في أولم، في شأن له علاقة بأخي هانز، ومن أولم نقلونا معاً إلى مدينة شتوتغارت في سيارة مرسيدس. وفي شتوتغارت جرى التحقيق معنا في مقر للبوليس السري (الغستابو)، ثم جرى نقلنا إلى ميونيخ، ومن ثم وُضعت في نفس الزنزانة التي كانت فيها صوفيا شول . ".

المتهمون الثلاثة حكم عليهم بالموت، فيما حكم على فرانتز مولر وهاينز هيرتسل لكل منهما بالسجن لمدة خمس سنوات. وحكم على سوزانا هيرتسل بالسجن لمدة ستة أشهر.وهذه الدعاوي المرفوعة أمام محكمة الشعب، والأحكام القاسية التي أصدرتها، وانتشار مسألة المنشورات أثارت " اضطرابات محسوسة " بين الناس. كما سجلتها دائرة الشرطة السرية (الجستابو) في ربيع عام 1943. واهتم الحلفاء ووسائل الإعلام الأجنبية بها، بما في ذلك صحيفة النيويورك تايمس، وإذاعة (BBC) ونقلوا أنباء أعمال المقاومة لمجموعة الوردة البيضاء، وعن ذلك كتب فولفغانغ بينز :

وقد أسقطت طائرات السلاح الجوي البريطاني منشورات جماعة الوردة البيضاء في مناطق الرور (مناطق المناجم والقلب الصناعي الألماني) على مناطق أخرى مكتظة بالسكان. ولكن دون أن تتوصل إلى خلق تأثيرات ودون أن تساهم في رفع درجة العداء ضد النظام النازي وهتلر. والمحاكمات كانت علنية، وتحدث توماس مان في الإذاعة مشيداً ببطولة الشباب الرائعين في إذاعة موجهة إلى المستمعين الألمان وحاثاً الشعب الألماني إلى اعتبارهم أمثلة يقتدون بها.(3)

ولكن الرنين لم يحدث صداه، وحركة احتجاج الوردة البيضاء، كانت منارة ولكن دون عواقب.
فولفغانغ بينز يكتب :

" لماذا عرف وأدرك خمسة طلاب وبروفسور في جامعة ميونيخ ما لم يكن العالم يريد إدراكه ومعرفته ..؟
والمشاركين في جماعة الوردة البيضاء كانوا مقتنعين أنهم بمنشوراتهم الجميلة، أنها ستؤثر بمن يقرأها، ولكن المرء عندما ينظر للمسألة بدقة ونتائجها، يرى أنها قد فشلت تماماً. والزملاء في الجامعة لم يكونوا يرغبون في معرفة أن جماعة الوردة البيضاء كانت تتصرف بشكل فردي، وبدأ التعرف عليها، ولكنهم واصلوا تصرفهم بذات الطريقة وهو ما لم يكن يقبل به الآخرون ". (4)

بعد سقوط النظام النازي، أصبحت الوردة البيضاء وبسرعة في ألمانيا الاتحادية من أشهر وأهم حركات المقاومة الوطنية الألمانية ضد النظام الهتلري. والرايخ الثالث. ورمزاً لألمانيا أخرى أفضل. فيما جرى تهميش للمقاومين الأصليين للنظام الهتلري النازي وهم بشكل أساسي الحزب الشيوعي الألماني والحزب الاشتراكي الألماني. وما كان توماس مان قد أكده من خلال خطابه في محطة إذاعة (BBC) في حزيران / 1943 " لا ينبغي أن يموتوا عبثاً، يجب أن ننساهم " وهو ما ثبت خلال العقود التالية.

فولفغانغ بينز " في الدولة الألمانية الغربية كان الأخوة شول (هانز وصوفي) وجماعة الوردة البيضاء، المثال والقدوة (مع بعض الصعوبات ووفرة في الرجال) للمجموعة التي قامت بمحاولة 20 / تموز / 1944، والأبطال الأعظم بطولة في المقاومة الألمانية. الوردة البيضاء، بصفة خاصة والأشقاء هانز وصوفي شول حصلوا على المجد مبكراً جداً، وهذا ما يميزهم تقريباً عن سائر منظمات المقاومة. ومصيرهم الذي واجهوه من العدالة النازية البربرية والمنحطة. وهؤلاء كانوا أطفالاً مثاليين قد تلقوا تربية بيتية جيدة، ، وكانت لهم شقيقتهم الكبرى التي أخذت على عاتقها مجد شقيقها وشقيقتها ورفاقهم.

تقول إنجي شول " هم لم يكونوا أن يصبحوا أبطالاً ولا شهداء، أرادوا أن يفعلوا شيئاً، شيئاً ما اعتبروه ضرورياً، لقد شعروا أنه لابد أن تكون هناك بداية، ، وهذا يجب أن يفعله أحد ما ... وأن الجموع الشعبية ليست كلها مغفلة ومضللة .. ..!

الهوامش

الرايخ الألماني : وترجمة المصطلح " الإمبراطورية الثالثة "
الإمبراطورية الألمانية الأولى كانت : النظام الملكي لبيت هوهنتسولرن كانت معروفة بالإمبراطورية الألمانية (1871-1918)
والإمبراطورية الألمانية الثانية كانت : الجمهورية الديمقراطية، كانت تعرف بجمهورية فايمار (1919-1933)
والإمبراطورية الألمانية الثالثة كانت : الديكتاتورية الشمولية كانت تعرف باسم الرايخ الثالث أو ألمانيا النازية(1933-1945)

المقصلة : (سكين حادة ثقيلة تسقط من ارتفاع فتحز رقبة المحكوم وتفصلها عن جسده)

توماس مان : أديب ألماني ولد في مدينة لوبك عام 1875وتوفي عام 1955 في مدينة زيوريخ / سويسرا عام. حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1929

يحلل الكاتب فولفغانغ بينز، عمل ونهاية الوردة البيضاء بطريقة لا تتفق مع عمل المقاومة. المقاومة الألمانية هي حركة معارضة للنظام النازي، وفي الأربعينات كان سقوط النظام وانهياره أمر متوقع، بعد أن فتح على نفسه جبهات كثيرة، وعادى الكثير من القوى السياسية والاجتماعية داخل ألمانيا نفسها، ونكّل بها تنكيلاً دموياً، لا يدع للتراجع مكاناً في سياسته. مجموعة الوردة البيضاء، شبان طلبة يحملون توجهات ليبرالية، أيقنوا أن حريقاً سيبتلع بلادهم فهبوا لعمل شيء، تعوزهم التجربة ولكن لا تعوزهم الوطنية والإخلاص، والأهم الشجاعة للوقوف بوجه نظام دموي. وبتقديرنا أن التجربة لم تفشل تماماً، بدليل أن

التاريخ الوطني خلدها، ودخلت في الإرث السياسي والثقافي الألماني، والعالمي أيضاً، بوصفها علامة من علامات نضال الشعب الألماني ضد النازية.

ارتهان القرار السياسي بيد المؤسسة الدينية

د. ضرغام الدباغ / برلين

مدخل

بينما كنت أطبع الكتاب: ألبرتو ومحاربو الشمس، وهو عمل ممتاز كنت قد ترجمته في وقت سابق من الآن، يبحث في التاريخ السياسي والحضاري، للمكسيك قبيل وبعيد الاحتلال الإسباني لها وتدمير الحضارات التي كانت قائمة هناك، انتبهت للفقرة (د) من الفصل الخامس، وأعتقد أننا يجب أن نمنح عناية خاصة لمطالعة هذا النص.

المفارقة هنا أن تمتلك المؤسسة الدينية، أو تمنح لنفسها حق إصدار القرارات السياسية، وبعض من تلك القرارات ستلعب الدور الحاسم في تاريخ الشعوب ومستقبلها إلى آجال غير محددة. المؤسسة الدينية عندما تكون هي صاحبة القرار، ولا أظنها تقبل بدور المشارك الثانوي، فالمؤسسة الدينية تنفرد بخاصية معروفة، هي أنها تعتبر نفسها المقام الأول ولا يوجد مقام ثاني وثالث، هي على صح، وغيرها سيان من يكونوا على خطأ ذلك أنها تمثل إرادة الرب، وماذا يمثل الآخرون ..!

المصالح البشرية والوطنية لا تساوي فلساً واحداً (في هذه الأيام سنتاً واحداً) في عرفهم

إذن نحن أمام إشكالية سياسية لها طابع خاص. ففي العلوم السياسية المعاصرة، يتخذ القرار السياسي عبر قنوات عديدة، وقياس حسابات دقيقة، وردود أفعال محتملة، وموقف عناصر وجهات كثيرة، وجرد لقدرات ومستودعات الإرادة الذاتية، وقدرات الجهات المقابلة، وينبغي أن يشارك في صياغة القرار السياسي، جهات وقنوات عديدة، وهي عملية يستحسن التأني بها وأن لا تكون ارتجالية سريعة فتعرض القرار لمصاعب في التنفيذ. وكلما كان القرار يمس مرتكزات الدولة، كانت عملية اتخاذ القرارات تكتسب أهمية استثنائية تستلزم أقصى قدر من الفحص والتمحيص.

المؤسسة الدينية لا تحتاج لكل ذلك، ربما تكفي رؤية طالع النجوم، أو إجراء استخارة، أو السؤال من كاهن لا يعرف جدول الضرب ..! بيد أن الكاهن إن نطق، فقد وقع الفاس بالراس ولا مرد لقراره. والكاهن لا يقر بلعبة التوازنات، ولا يعترف بإقامة الائتلافات والتحالفات بين قوى متعددة الأيديولوجيات، فالآخرون برأيه قد يكونون: مردة، كفرة، هراطقة، زنادقة.

ماالعمل ...؟

التاريخ بتطوره حل هذه الإشكاليات، وما تبقى هي الذكرى فحسب .. أما من لا يزال يعيش في حمى الذكرى فالتجربة وأحداث التاريخ المقبل ستكون خير معين له، هذا إن كانت هناك ثمة فائدة من التجربة، وبعض الأحيان لا توجد فائدة للأسف من التجربة، فأنت لا تستطيع القول فلنجرب ماذا يحدث إن ضغطت على زناد سلاح ناري مصوب إلى الصدغ، فالسلاح الناري سيحدث فجوة محترمة في الجمجمة بما لا يمكن معها إعادة التجربة.
نحن نضرب الأمثال، ونتوسلها من عبر التاريخ أن تكون مؤثرة في وعي الناس.

****

د : هبوط الآلهة

(الفقرة الثامنة من الفصل الخامس)

ألبرتو محاربو الشمس
تأليف: رولاند كوربر
ترجمة: د. ضرغام الدباغ
رويتلينغن 1960 / ألمانيا الاتحادية
دار النشر: أيسلين ولايبلين

نزل الإسبان في المكسيك عام 1519 بقيادة هيرناندو كورتيس Hernando Cortez حيث كان الملك موكتيسوما الثاني يحكم الأزتيك. وكان الأزتيك يسمون تلك السنة ب (قصب 1) لأن اليوم الأول من تلك السنة من تلك السنة يحمل هذا الاسم، وكانت السنة تسمى باسم اليوم الأول منها.

والسنة " قصب 1 " كانت لها أهمية خاصة في معتقدات الأزتيك، إذ أن آلهة الضوء، نجمة الصباح " كويتسالكواتل " والتي كانت سنة ولادته في عام قصب يسمى (أمير قصب 1) قد غادر البشرية بعد 52 عاماً من ولادته، ثم عاد بعد سنة واحدة. وبعد النصر أصبح المعلم العظيم للبشر. وكان يشغل منصب

الملك والكاهن الأكبر فيها، وكانت الظروف والأحوال تشابه الجنة، ولكن الناس لم يكونوا يظهروا له الاحترام والتقدير الكافيين، لأن ملك الآلهة في كويتسالكوتابل قد غادرهم، فقد صعد مع المقربين إله إلى سفينة في خليج مكسيكو، ونادى عليه الناس أن يعود في عام القصب لكي تسود العدالة(هكذا الأسطورة).

وعندما لاحظ سفراء ملك الهنود موكتيسزوما الثاني في عام القصب التي تقابل عام 1519 ميلادية بخبر عن نزول البيض، إذ لم يكن يشك ولا لحظة واحدة، بأن كويستاكواتل قد عاد مع المقربين إليه، لا سيما وأن الإنزال قد جرى في نفس الموقع(حسب الأسطورة). وكان ملك نجمة الصبح قد ركب زورقه (الآلهة البيض) كانت لهم لحى، وحتى كويستاكواتل كانت له لحية، وهذا يعني شيئاً كثيراً للهنود الذين لم يكونوا يطلقوا لحاهم، وقد نزلت حيوانات ضخمة، ربما هي آلهة، إذ أن الهنود لم يكونوا يعرفون الخيول التي ظهرت لهم كمخلوقات من العالم العلوي، كما كان قصف المدفعية الإسبانية قد من عزز قناعتهم من أن القادمين يتمتعون بقوة الآلهة.

وما لم تكن تلك علامة مقبضة للنفس، التي أكدت هذه الإحداث. فالملك موكيتزوما ما يزال يتذكر شخصياً ذلك اليوم الذي فيه جلب الصيادون له طيراً مائياً كان يحمل فوق رأسه مرآة وبوسع المرء أن يشاهد في هذه المرآة السماء والنجوم. ولكن حين تطلع الملك في المرآة، شحب لونه، إذ علم أن هناك كثير من المحاربين يقتربون وهم يمتطون ظهور حيوانات كبيرة غير معروفة عام 1509، وكانت هناك نار كبيرة يتصاعد لهيبها من الأرض إلى السماء. وعندما شاهدها الملك، هكذا يحدثنا المؤرخ: " لم يظهر احتراماً وتقديراً للسلطة، وأعطى، في الحال الأوامر بإيقاف القتال والحرب ". والآن قد حلت سنة قصب، وها هو كويتساكوابل قد جاء لإحلال العدل.

وعندما يقرأ المرء التقارير الإسبانية عن احتلال المكسيك يتساءل، لماذا لم يرسل ملك الأزتيك جيشاً كبيراً إلى الساحل ليطردوا الـ 500 إسباني برغم تسليحهم الحديث. وهذه الأفكار يناقشها الناس اليوم فقط، ولكن الأزتيك كانوا يعيشون في عالم كان القرار فيه للآلهة النجوم، ونحن نعلم بالتأكيد، بأن الحرب إنما تتم بتوجيه من الآلهة إلى الجن والعفاريت، ولكن كل شيء يتحدث هنا ضد مثل هذا القرار.

انتهى النص

(وهنا يكمن السر لماذا لم يقاوم الأزتيكيون احتلال الغزاة الإسبان لبلادهم، رغم أن ذلك كان بمقدورهم، لسوء حظ الشعب أن الكهنة لم يوافقوا .. فهم تحت وهم أسطورة أنه الإله المختفي قد عاد).

...